

# الحربُ اللامنظورةُ

نقله

إلى العربية

الاب

منيفُ حمصي

**1991**

جميع الحقوق محفوظة

طبعة اولى

**1991**

الاھداء

إلى:

- قدس الأب الفاضل الأرشمندريت افرايم كرياكوس المحترم
- قدس الأب الفاضل جورج عطية وعائلته
- الاخ المحامي اسكندر ورد وعائلته
- الاخ المحامي انطوان ورد واهله
- الدكتور عدنان طرابلس

سائلاً لهم جميعاً

الخير والبركة والدعاء

الأب

منيف حمصي

كافن بلدة عفصديق.

## الفهرس

- حياة واعمال القديس نيقوديم.....
- كلمة للشيخ الناس القديس نيقوديم الاشوعي.....
- كلمة المعرّب.....

### **القسم الاول**

- الفصل الأول: ما هو الكمال المسيحي؟ الحرب ضرورية لاكتسابه. امور أربعة لا غنى عنها للنصرة في هذه الحرب.....
- في عدم الثقة بالنفس في أي شيء.....
- في الثقة والرجاء بالله فقط.....
- في كيف يعرف المرء أنه يضع ثقته بالله ولا يتكل على ذاته.....
- في ضلال الذين يزعمون ان الافراط في الغم فضيلة.....
- في أمور أخرى بها تصير الثقة بالله كاملة ، مع عدم الاعتماد على الذات.....
- في كيفية ترويض الذهن لوقايته من الجهل.....
- في بواعث التمييز الصحيح وكيفية معرفته.....
- في حراسة النوس من المعرفة الكثيرة غير النافعة والفضول المجنون.....
- في كيف نروض ذواتنا كي يكون لها هدف واحد مطلق هو ارضاء الله في الأمور الخارجية والداخلية.....
- بعض الأفكار التي يمكن أن تدفع ارادتنا نحو الرغبة في ارضاء الله في كل عمل ونشاط.....
- في الرغبات الكثيرة وفي الشهوات التي في الانسان وال الحرب التي بينها.....
- في كيف تحارب ضد الارادة الحسية البهيمية. وفي الضروري من التدريب كي تكسب الارادة خبرة في الفضائل.....
- ماذا تفعل ان اظهر العدو أن الارادة السامية خاضعة بالكلية لإرادة الادنى.....

- ينبعي أن تستمر الحرب بلا انقطاع وبشجاعة.....
- في كيف يستعد جندي المسيح للمعركة في الصباح.....
- بأي ترتيب ينبغي ان تحارب اهواك.....
- في كيفية محاربة ضغوطات الاهواء المفاجئة.....
- في كيفية الجهاد ضد الاهواء الجسدية.....
- في كيف تغلب الاهمال والتراثي.....
- في ضبط الحواس الخارجية وحسن استخدامها.....
- في ان المواقيع الحسية ذاتها التي حولها دار كلامنا، يمكن أن تكون وسائل وادوات نضبط بها حواسنا جيداً ان تمكنا بها من - التأمل في تجسد الله الكلمة، وفي أسرار حياته وألامه وموته.....
- في كيف تترجم الانطباعات الحسية إلى دروس مفيدة.....
- دروس عامة في كيفية استخدام الحواس.....
- في ضبط اللسان.....
- في كيفية تقويم الخيال والذاكرة.....
- يتوجب على جندي المسيح الذي يرغب بحق ان يهزم اعداءه أن يتحاشى كل عوامل الاضطراب في القلب.....
- ماذا نعمل عندما ننجرح في المعركة.....
- في نظام الحرب الذي ينتهجه العدو ضدنا في الحرب الروحية، وكيف انه يضل الناس بحيل داخلية مختلفة.....
- في كيف يثبت الشيطان الخطأ في عبودية الخطيئة.....
- في كيف يستبني الشيطان أولئك الذين تحققوا من فداحة حالهم فرغبو بالانعتاق الا انهم لا يتحركون. وما هي الأسباب التي تحول دون تحقيق نوايانا الحسنة اجمالاً.....

- في حيل العدو التي يستخدمها ضد الذين شرعوا في السير في الدرج الصحيح .....
- في كيف يبعد الشيطان الانسان عن الأمور الصالحة ويفسدها .....
- في كيف يحول العدو الفضائل ضد الذين يمارسونها .....
- نصائح نافعة لغلبة الاهواء و اكتساب الفضيلة .....
- في ترتيب اكتساب الفضائل .....
- ما هي الاستعدادات المطلوبة لاكتساب الفضائل عموماً و كيف يكون التدريب من أجل كل واحدة منها .....
- يجب ممارسة الفضيلة بثبات واجتهاد .....
- على المرأة أن لا يتتجنب الفرص التي تصادفه من أجل أعمال الخير .....
- على المرأة أن يحب الفرص الصعبة من أجل ممارسة الفضيلة .....
- التقدم في فضيلة واحدة في ظروف مختلفة .....
- كم من الوقت ينبغي على المرأة ممارسة الفضيلة، وما هي علامات تقدمه فيها .....
- ينبغي على المرأة أن لا يرحب بشدة في الانتعاق من هجمات الضيقات، بل يجب أن يسلم ذاته الله و لمشيئته .....
- التنبيه ضد مشورات الشيطان الشريرة فيما يختص بالأعمال الصالحة .....
- في أن دينونة الآخرين القاسية تتأتى من تقدير رفيع لذواتنا ومن تحريض ابليس عليها. وكيف تكون النصرة على نزوعنا إلى دينونة الآخرين .....
- في الصلاة .....
- ما هي الصلاة الذهنية أو الداخلية وما هي أنواعها؟ .....
- كيف تتعلم الصلاة على هذا النحو؟ .....
- في الصلاة المرتجلة .....
- في الصلوات القصيرة والتنهد إلى الله .....

- في صلاة يسوع.....
- أمور تساعد على النجاح في اكتساب عادة الصلاة.....
- دور الصلاة في الحرب غير المنظورة.....

## القسم الثاني

- في سر الشكر الكلي القدسية.....
- في كيف ينبغي على المرء أن يشترك في سر الشكر المقدس أو كيف يشترك بال المسيح ربنا عبر الأسرار وعلى نحو سري.....
- كيف تضرم محبة الله في النفس بالولوح إلى عمق سر الشكر.....
- الشركة في الروح.....
- في رفع الشكر لله.....
- في التسليم لمشيئة الله.....
- في دفء القلب وبرودته وجفافه.....
- في حراسة الضمير وفحصه.....
- في الاستعداد للمعركة ضد العدو في ساعة الموت.....
- التجارب الأربع الآتية من العدو في ساعة الموت: التجربة الأولى هي ضد اليمان. وما هي السبل للنصرة في هذه التجربة؟.....
- 1- ضد اليمان.....**
- التجربة الثانية.....
- التجربة الثالثة.....
- التجربة الرابعة.....
- السلام الروحي في القلب.....
- في وسائل حفظ السلام الداخلي.....

- سلام القلب يبني شيئاً فشيئاً.....
- من أجل حفظ سلام القلب، على المرء أن يتاحاشي الامجاد ويحب التواضع والفقر....
- من الضروري أن تبقى النفس سجينه ذاتها ان توقعت أن يوجد عليها الرب بالسلام.....
- في المعنى الحسن في أعمال محبة القريب من أجل سلامك أنت.....
- عندما تتخلى النفس عن ذاتها عليها أن تسلم أمرها لله.....
- اطلب الله فقط، لا التعزيات والمسرات.....
- لا تخاف عندما ينسحب السلام الداخلي أو يتوقف.....
- كثيرة هي حيل العدو التي بها يتلف سلامنا الداخلي. فتبيّن.....
- على المرء أن لا يضطرب أمام فقط الأحاسيس الروحية أو التجارب الداخلية الأخرى.....
- لخيرنا هي كل تجربة.....
- علاج الغم الناجم عن مخالفات صغيرة وضعفات.....
- في انه ينبغي على الانسان المضطرب والحزين أن يوطد السلام في نفسه على الفور.....

\* \* نبذة عن حياة القديس ثيوفان الحبيس

## القديس نيقوديم الآثوسي

### حياته و كتاباته

ولد القديس نيقوديم الآثوسي في جزيرة ناكسوس Naxos سنة 1747 من أب يدعى أنطونيوس و أم تدعى أنسطاسيا. اسمه في العالم نيكولاوس. كان والد نيكولاوس ذا شأن في تلك الأيام، تقىً ورعاً، تعاون مع زوجته انسطاسيا على تربية أولادهما على مخافة الرب، والسلوك بمقتضى مشيئة الله. لنيكولاوس (القديس نيقوديم) أخ يدعى بطرس. أخبرنا أنه كان يمسك بيده فيذهبان معاً برفة الأهل إلى الكنيسة. في الكنيسة كان الشقيقان يساعدان كاهن الجزيرة في شؤون الهيكل أثناء القدس الإلهي، وكانا في الوقت نفسه يساعدان في الترتيل والقراءة والإنشاد. ليس عندنا معلومات البتة عن أخيه بطرس، هل مات، أم تزوج و انتقل إلى مكان آخر.. جل ما في الأمر أننا سمعنا عنه بشكل موجز في إحدى كتابات القديس نيقوديم دون أن يعني ذلك من معلوماتنا عن بطرس.

بعد موت أبيه أنطونيوس، ترك نيكولاوس العالم و مضى إلى جبل آثوس حيث صار راهباً يحمل اسمًا جديداً هو نيقوديم Nicodimus. أما والدته أنسطاسيا فقد توجهت إلى دير نسائي على اسم القديس يوحنا الذهبي الفم يقع في إحدى أطراف الجزيرة النائية Naxos ، حيث صارت راهبة تحمل اسم (أغاثي = أي صالحة).

ما إن حطَّ به الرحال في آثوس، حتى طاف في الجبل و استقر في النهاية في دير القديس ديونيسيوس ليبدأ حياته الملائكية. وما هي إلا فترة قصيرة، حتى تقدم ولع بالفضائل، و تميز بالطاعة و اشتهر بحب الصلاة القلبية (1)، فكان رجل الصلاة، يتكلم عليها بفرح و في كل المناسبات. والذي يقرأ كتاباته، يلاحظ أنها لا تخلو البتة من لهفة و التفاته واضحة إلى ضرورة الصلاة و حلوتها.

لم يكن القديس نيقوديم إنساناً أمياً، بل كان مثقفاً كبيراً وعارفاً علوم عصره. فكان ذا عقل علمي، وفك ثاقب خلاق. وكان إلى جانب ذلك ، يتمتع بأخلاق عالية تندر بين بني البشر.

تلقي القديس نيقوديم علومه الأولى، منذ أن تفتح على الحياة، على يد كاهن رعيته، الأرشمندرية خريسانثوس (الزهرة الذهبية)، الذي كان أستاذًا في مدرسة الجزيرة Naxos . ولما بلغ الخامسة عشرة من عمره، أرسلته أمه انسطاسيا إلى مدينة أزمير (تركيا)، إلى مدرسة داخلية تعرف باسم (المدرسة الإنجيلية)،

## The Jesus prayer

و كانت بحق على المستوى اللائق بين مدارس ذلك الزمان. أعجب نيكوديموس القديس لا سيما بمدير المدرسة القدير ابروثيوس بولسام. وفي تلك المدرسة التقى نيكولاوس (نيكوديم لاحقاً) رفيق الدراسة غريغوريوس السادس بطريرك القدسية. كان نيكولاوس مثال الطالب الخلوق النجيب والمجتهد، أحب العلم جداً و انكبّ على التحصيل بكل جوارحه. درس اللاهوت والآداب واللغات الأجنبية. ويقال أنه تعلم الانجليزية أيضاً. كان باختصار رجل الحكمة والفضيلة معاً. ثم إن مدير مدرسة أزمير، طلب منه أن يُعدّ نفسه لخلافته على إدارة المدرسة و شؤونها، لكن نيكولاوس رفض عرضه بلطف، فنار الشوق الإلهي كانت تستعر في داخله، وكانت أنظاره تتطلع إلى آثوس.

كان في نفس نيكولاوس الشاب حنين لا يوصف إلى حياة الصلاة والسكينة، وقد رغب من كل قلبه في أن يكرس حياته لله. لقد أحب القول الآبائي الشهير: "مغبوطة عيشة أهل البراري لأنهم بالعشق الإلهي يتطابرون دائمًا".

في تلك الأثناء ، اضطر نيكولاوس أن يعود إلى جزيرة ناكسوس بسبب اندلاع الحرب بين روسيا وتركيا في صيف 1770. فعاد إلى مسقط رأسه ناكسوس، وهناك أوكل إليه الطران أنتيموس مهمة إدارة ديوان المطرانية وجعله كاتباً عنه وأمين سره. فقام نيكولاوس بتنفيذ المهام الموكولة إليه، بجدٍ وغيرة و أخلاص. وخلال الخمس سنوات التي قضها في ديوان المطرانية تقرب من كتابات الآباء القديسين والنصوص التسكية الأرثوذكسية، فالتهب قلبه من جديد وتحركت فيه الدعوة الرهبانية. تعرّف نيكولاوس إلى الأسقف مكاريوس القديس مطران كورنثوس، الرجل القديس الذي فتح نفس نيكولاوس على السيرة الملائكية وحلواتها. وكان بنتيجة اتصاله بهذا الأسقف أن وطّ العزم على الرحيل إلى آثوس، فقام يودع والدته أنسطاسيا، ثم حمل حقيبته وتوجه إلى الشيخ (Starets) سبستروس للتبرّك، فحمله ذاك بعض الرسائل إلى القديسين في آثوس.

وصل نيكولاوس إلى آثوس سنة 1775 وكان ابن ست وعشرين سنة. نزل على دير القديس ديونيسيوس أخيًّا مبتدئاً. ومنذ وصوله تحول اسمه إلى نيكوديم Nicodimus الاسم الذي طبقت شهرته الآفاق، فيما بعد، نظراً لعلمه وغزاره كتاباته الروحية ونوعيتها.

وفي الدير تدرج نيكوديم في الفضائل، فبدأ قارئاً، ثم كاتباً. كان الراهب نيكوديم صاحب قلم سيال، وفكّر دفاق، وروحانية مشرقة، فوضع كتابه الأول وسمّاه (فيليوكاليا الآباء النساك). وبعد فترة وجيزة وضع كتاباً آخر سماه أقوال

الآباء الشيوخ، ثم ألحقه بثالث سماه (المناولة المتواترة)، ودفع بهذه الكتابات كلها إلى مطران كورنثوس مكاريوس الذي كان في زيارة للجبل المقدس (آثوس) بغية الاستجمام الروحي والتبرك من الآباء القدسين. فما أن تسلم المطران مكاريوس هذه الكتابات وطالعها، حتى وعد نيقوديم بطبعاعتها فور عودته.

لم يكن نيقوديم رجل القلم والفكر فقط، بل كان إلى جانب ذلك، رجل المحبة والجهاد والصلة وكل الفضائل. وبسبب عشقه لحياة الصلاة، وموهبته الفكرية، وقدرته على الكتابة، فقد وضع كتاباً رابعاً يعتبر بحق درة ولؤلؤة في كل أنحاء العالم الأرثوذكسي، سماه (الاعتراف) فجاء هذا الكتاب وسواء من كتابات القديس نيقوديم، ليلبّي حاجة، ويسدّ فراغاً عند المعرفين والمعترين معاً، لاسيما وأن الأبوة الروحية ركيزة أساسية في مدماك التقليد الأرثوذكسي الشريف **Holy Tradition**. ثم ما لبث نيقوديم أن وضع بعد حين كتاباً آخر في تفسير رسائل القديس بولس، وآخر في تفسير كتاب الزامير. ثم أضاف كتاباً آخر سماه (بستان النعم) شرح فيه، مطولاً، التسع الأدوية في صلاة السحر.

إن حياة النسك الشديد، وشظف العيش، وحسد الأعداء المقربين والبعيدين، تضافت معاً على هدم صحته، فاعتلّ، لكنه رغم هذا ظلّ مواطباً على الصلاة بغيره منقطعة النظير، وتمكنَ، في مرضه، من وضع كتاب جديد سماه (اعتراف الإيمان).

في نهاية حياته، ومع اقتراب موعد رحيله، خارت قواه، ودبّ إليه المرض ناشباً براشه فيه، وضرب الشيب رأسه، وخف سمعه، وضعف عزمه رغم أنه لم يكن قد تجاوز الستين من العمر. ولم تمض فترة من الزمن حتى شلت يمناه، فأدرك أن النهاية باتت وشيكة، وأن الرحيل قريب. والروحانيون لا يهابون الموت هذا الضيف العزيز فهو جسرهم إلى الله، وهم منذ بداية حياتهم في الروح، يحيون في انتظار الموت، وأدبهم النسكي ممهور بذكر الموت نيقوديم مقابلة الأب الروحي، فكان له ما أراد. ولما امتنع ذاك في حضرة هذا الشيخ الجليل المدد على فراش الموت، انبرى نيقوديم يبوح له بكل مكنونات قلبه، على نحو يندر بين البشر. وفي الثالث عشر من تموز، ساعت حاله وتراجعت صحته، وخفت صوته وغار النور في عينيه، وضربته رجفة تجلّت في كل جسمه. في تلك اللحظة الرهيبة وقف واحد من الموجودين في المنسك وقال : هل أنت في هدوء يا أبتي؟ وكان جواب الأب القديس : كيف لا أكون في الهدوء (**Hesychia**) وقد جعلت المسيح في مركز حياتي، وكل حياتي، وغاية وجودي؟ هذه كانت آخر كلمات

نطق بها هذا الفم الطاهر. وفي صبيحة الرابع عشر من تموز، غادر هذه الفنانة إلى العالم العلوي، بعد حياة في الجسد عاشها يغب من فيض النعمة الإلهية. ففُتِّحت الصلاة على جثمانه وفق عادة الدير وتقاليده، ثم دفن في منس克 سكورتي، باحتفال رهباني ليتورجي مهيب. وما تزال هامته إلى اليوم في المكان الذي دفن فيه. رقد بالرب في 14 تموز سنة

.1807

للقديس نيكوديم شهرة طبقة الآفاق في حدود آثوس وخارجها فلا يكاد اسمه يطرح في أوساط اللاهوتيين والرهبان إلا ويقوم من يتكلّم على لاهوت نيكوديم وسيرته وقداسته. لقد طبعت في أرجاء العالم الأرثوذكسي أجزاء كثيرة من مؤلفاته، ونقل بعضها إلى الروسية والإنجليزية والفرنسية والألمانية والإيطالية بما فيها الرومانية والتركية أيضاً. وقامت البطريركية المسكونية سنة 1955 باعلان قداسته بعيد قرن ونيف على رقاده. ما يزال هذا القديس إلى اليوم في ضمير المؤمنين، لا سيما أحباء اللاهوت والروحانية الأرثوذكسيّة. كانت حياته مرآة تعكس الجمالات الفردوسية وتشهد بالذaque أن عذابات الأرض لا تقاد بأفراح السماء. إنه وجه معاصر لفتحة النعمة الإلهية، فسطع التراب فيه وتجلّى.

### كتاباته:

مع كبير الحزن نقول بأن جزءاً ضئيلاً من أعماله قد ضاع. لكن لحسن الحظ، إن معظم كتاباته ما تزال محفوظة، وببعضها قيد الطبع، والبعض الآخر تحت أكوام من التراب، وآخر صدر بحلة رائعة تشهد في الشكل والمضمون على روعة الفكر النسكي والأدب الروحاني، يبقى أن نقول بأن ما طبع حتى الآن يعتبر في ذاته كنزاً رائعاً وتراثاً فريداً وتحفة أرثوذكسيّة آثوسية لا تُنسى.

## فما هي أعماله؟

### 1- في التفسير:

1- تفسير كتاب المزامير (مجلدان - 1200 صفحة).

2- تفسير رسائل القديس بولس (ثلاث مجلدات 1350 صفحة).

3- الرسائل الجامعية (كتاب في 370 صفحة).

### 2- في القانون الكنسي:

1- تفسير القوانين الموجودة في البيزاليون (789 صفحة).

2- قوانين الاعتراف (400 صفحة).

### 3- في النسك والأخلاق والتصرف:

1- فيلوكاليا الآباء النساك (5 مجلدات).

2- أقوال الآباء الشيوخ (نصوص، وسير، وآباء، ونسكيات) وهذه تقع في 4 مجلدات ضخمة.

3- في المناولة المتواترة (288 صفحة).

4- في الإرشادات الروحية، كتاب يقع في 220 صفحة يتناول موضوع حفظ الحواس الروحية الخمس.

5- كتاب عن البار ملاتيوس المعترف (225 صفحة).

6- تعريف بكتابات القديس سمعان اللاهوتي الجديد، ومدخل إلى قرائته. وهو كتاب كبير يقع في (758 صفحة).

7- تعريف بالأب القديس غريغوريوس بالاماں وبكل كتاباته (3 مجلدات ضخمة) لم يحفظ لنا الدهر منها سوى المقدمة فقط.

8- كتاب الحرب غير المنظورة (276 صفحة).

9- كتاب الرياضيات النسكية (608 صفحات)، وقد أكسبه شهرة عالمية في الأدب النسكي.

10- حقيقة يسوع المسيح، درة فريدة ولؤلؤة روحية (395 صفحة).

**11** - كتاب يتناول حياة القديسين برصنوفيوس ويونا يتناول فيه القديس نيقولاوس أسئلة روحية شائكة ومشاكل كنسية عالقة ويرد عليها ببساطة وعمق نادرتين ويقع في (855 صفحة).

#### **4- في سير القديسين :**

- 1** - قائمة بسيرة باقة من الأبرار والقديسين (مجلد واحد).
  - 2** - قديسون شهداء معاصرلون (مجلد واحد).
  - 3** - سير قديسين على مدار السنة (3 أجزاء ضخمة).
  - 4** - كتاب يمدح فيه شخصية القديس يوحنا الذهبي الفم.
- 5- في الليتورجيا :**

**1** - شروحات قانونية ليتورجية عن والدة الإله مريم العذراء، هي بمثابة تفسير لكل القوانين الكنسية التي وضعتها المجامع حول مريم والدة الإله.

- 2** - كتاب الأفخولوججي.
- 3** - كتاب مزامير خاص بصلوات الأديار.
- 4** - بستان النعم هو بمثابة شروحات مستفيضة للأدوية التسعة ويقع في (357 صفحة).
- 5** - كتاب الأعياد السيدية، يتناولها كلها بشروحات رائعة متسلسلة وتقع في 1500 صفحة موزعة على مجلدين.
- 6** - كتاب (السلم الجديد) هو بمثابة شرح مستفيض لكل قطع الأنافضي باللحن الثامن (يقع في 390 صفحة).

#### **6- في الكتابات التسبيحية Hymnography**

**1** - هي بمثابة 51 كتاباً ضخماً يتناول فيها بالتفصير والشرح صلوات السحر و الغروب و البراكليسي.

#### **7- رسائل Epistles**

- 1** - رسائل روحية.
- 2** - رسائل بمثابة إرشادات.
- 3** - رسائل إلى أحباء خارج الجبل المقدس ويبلغ عددها قرابة 79 رسالة طويلة تربو الواحدة منها على 60 صفحة.

#### **8- في الدفاع apologetics**

**1** - كتاب اعتراف الإيمان (وجهة نظر شخصية خاصة به).

## On dreams 9- في الأحلام

### 10- متفرقات

- 1- كتاب تحت عنوان (ما هو إنجيل الراعي؟).
- 2- ثلاث مقالات ضخمة في ماهية التوبة.
- 3- مقالات رائعة في ماهية الرثاء الأرثوذكسي.
- 4- مقالة في خدمة صلاة السهرانة.
- 5- رسائل مختلفة في شرح محطات ليتورجية.
- 6- رسائل يشرح فيها معاني الأعياد من خلال قطعتي القنداق والبيت.  
من كتب عن القديس نيقولاوس؟ وماذا قال؟
- 1- جراسيموس مكرييناتيس (متفرقات).
- 2- نيقولاوس بالفرداس (متفرقات).
- 3- المطران نفروكوبيوس (متفرقات)
- 4- دراسات قام بها الراهب ثيوكليتس ذيونيسياطي تحت عنوان (القديس نيقولاوس) منشورات، الكوكب، أثينا، 1959، يتناول فيه الكاتب كل أعمال القديس نيقولاوس جملة وتفصيلاً.
- 5- دراسة قام بها يعقوب مليروس تحت عنوان (القديس نيقولاوس، الراهب الآثوسي، والشخص التاريخي الفذ)، أثينا نيسان 1963.
- 6- دراسة وضعها قسطنطين نيليندوس تحت عنوان (القديس نيقولاوس، اللاهوتي الآثوسي )، أثينا 1967
- 7- دراسة وضعها بلاليس تحت عنوان (البار نيقولاوس الآثوسي)، طُبعت مزданة بالصور والأيقونات، أثينا، حزيران 1969.
- 8- دراسة وضعها كوستي سرذليس (نيقولاوس والمكتبة الآباء)، طبع مرتين 1969-1974

ملاحظة: تلاحظ، أخي القارئ وأختي القارئة، إن القائمة الطويلة بأعمال هذا القديس تعطي صورة عن أهميته ومكانته في العالم الأرثوذكسي، وتجعله وجهاً بارزاً وركيزاً وطيداً من أركان رجالات الله العظام الذين عبروا هذا العالم تاركين لنا فيه مسحة قدوسه رسمتها يد ترابية غمرتها أنوار النعمة والمحبة الإلهية. حتى أن الراهب

ثيوكليتس ذيونيسياتي قال فيه بحق : " إن من يقرأ أعمال هذا القديس لابد أن يغير حياته ، فإذا كان لصاً ، سينقلع عن اللصوصية ، و إذا كان تاجراً ، سيحسن استعمال تجارتة ، و إذا كان أستاذًا ، سيبعد في علمه هذا القديس ، لابد أن يتعطّش إلى معرفة الخلاص الحاصل في يسوع المسيح و الممنوح لنا مجاناً .

الأب منيف حمصي

## كلمة الشيخ الناسك نيقوديم الآثوسي

هذا الكتاب النافع للنفس، يدعى: (الحرب الروحية غير المنظورة)، لأن العديد من أسفار الكتاب المقدس، بعهديه القديم والجديد ، جاءت عنوانينها مطابقة للموضوعات التي انشغل بها. فكتاب "الخلق" ، (التكوين) مثلاً، سمي هكذا، لأنه يتكلم عن خلق العالم من العدم. و(الخروج) سمي هكذا ، لأنه يتكلم عن خروج العبرانيين من مصر الفرعونية. كذلك البشائر الانجيلية الأربع، سميت هكذا، لأنها تتكلم عن الفرج العظيم، وعن بشارة الخلاص التي صارت للعالم بميالد يسوع : "لأنه ولد لكم اليوم..." (لوقا 2-10:11). وما كان هذا الكتاب يتحدث، لا عن فن المحاربات المنظورة، أو الأعداء الجسديين، فقط، بل عن الأعداء الذين لا ننصرهم، كما أنه يتحدث عن جهاد المسيحي منذ تقبّله لسر العمودية، وحتى لحظه موته، فقد جاء تحت هذا العنوان، لأنه يتحدث عن محاربات روحية عديدة ومختلفة، كما ويتحدث ويقول الرسول بولس فيها: "لأن جهادنا ليس مع لحم ودم، بل هذه الحرب الروحية، وأن ربانهم هو يسوع المسيح الذي تحيط به الملائكة والقديسون. ميدان الجهد، هو عالم القلب، الإنسان الداخلي. زمان المعركة، يدوم العمر كله، ما هو سلاح المحارب الروحي ؟ خوذته والإيمان به و الثقة بالنفس، وعدم الاعتماد عليها. فالاعتماد كله على الله، والاثمان به والثقة فيه. ما هي أدواته؟ إنها النمو في آلام يسوع المسيح. ما هي منطقته؟ إنها بتر الأهواء الشهوانية. ما هي نعله؟ هي التواضع وتذكر الضعف، و ذلك خشية الوقوع في الكبرياء. ما مهماز أرجل المجاهد؟ إنها الصبر على التجارب واللامبالاة بإزاء الاتهانات وكل الاضطهادات. ما هو سيفه؟ إنه الصلة الطاهرة التي ترفع الى الله ابداً ما هي رمحه؟ إنها عدم الرضوخ للشر، أو الدخول في هدنة مع الشيطان، ورفض جميع عروضه وإيحاءاته. ما غذاءه؟ إنه جسد السيد ودمه. في هذا الكتاب، يستطيع الجندي الروحي المدرب على مواجهة حيل العدو، أن يتعلم كيف يبطلها و يقاومها فيبلغ إلى الخطة الجهادية وقانون الحرب الروحية. ومن يبتغي خلاص نفسه، سيتعلم من الكتاب كيف ينتصر وينال أوصدة الفضائل الإلهية ، و إكليل المجد الذي لا يفنى ، و ذلك كي يتحدى بالله في هذه الحياة، وفي تلك. وفي هذا يقول الرسول : "إن كان أحد يجاهد، فلا يكُل إن لم يجاهد قانونياً..."

(تي : 2:5) سلاح ذاتك بما يقدمه الكتاب، وذلك كي تغلب أعداءك الداخليين، الذين هم أهواوك المهلكة للنفس.

"البسووا سلاح الله الكامل، لكي تقدروا أن تثبتوا.." (اف 6:11). تذكر أنك في العمودية قطعت عهداً أن ترفض الشيطان و كل أعماله.. والعهد هذا يعني أن ترفض الشهوة، والمجد الباطل، وحب المال، والعجب بالنفس. لذا جاهد

بكل قوتك كي تدحره. ترى ما هي المكافأة بعد النصرة؟ إنها أمور كثيرة، استمع لما يقول الرب فيها: " من يغلب ، فلهو  
أن يأكل من شجرة الحياة التي في وسط الفردوس" (رؤ 2:7) . " من يغلب ، لا يؤذيه الموت الثاني" (رؤ 2:12) .  
" من يغلب... يأكل من المن السرّي" (رؤ 2:17) . " من يغلب... فله سلطان على الأمم وأعطيه كوكب الصبح"  
(رؤ 2:26-28) . " من يغلب يلبس ثياباً بيضاء ولن أمحو اسمه من سفر الحياة، وسأعترف باسمه أمام أبي  
و ملائكته" (رؤ 3:5) " من يغلب سأجعله عموداً في هيكل الهي" (رؤ 3:12) " من يغلب ، يجلس معني في عرشي "  
(رؤ 3:21) " من يغلب ، يملك كل شيء ، أكون له الهاً و يكون لي ابناً". (رؤ 21:7) أرأيت عظمة المكافأة التي  
ستناها إذا غلبت الشيطان؟ ليكن هذا نصب عينيك واهرب من جميع المعوقات "لئلا يأخذ أحد إكليلك" (رؤ 11:3)  
الرياضيون في الميدان يمتنعون عن كل ما يحول دون تقدمهم ، و ذلك كي يتوجهوا بإكليل الغار رمز الغلبة. فأين أنت  
منهم إذا كان إكليلك من النوع الذي لا يفنى؟ لذا لا تهدر حياتك بالكسل و التوانى. "الستم تعلمون أن الذين يركضون في  
الساحة ، كلهم يتبعون ، إلا أن واحداً فقط يفوز بالمكافأة؟" هكذا أنتم ، جدوا كي تنالوا...." (1 كور 9:24-25) و  
أنت إذا أهلت إلى إكلييل الغلبة ، فما عليك إلا أن تصلي إلى الرب كي يغفر خططيها من أعانتك على الوصول إلى هذه النعم ،  
عن طريق هذا الكتاب. لا تنسى أن تشكر سندك الأول وعلة انتصارك ، و أعني ربنا يسوع المسيح . قل له كزربابل : "  
منك الغلبة.... وحدك رب المجد ، أنا رهن إشارتك وهكذا تردد مع داود: " ياربي لك العظمة و الجلال...." (1  
أخبار 29:11) .

الراهب

نيقوديم الآشوري

## كلمة المَعْرُب:

في حضارة الاستهلاك، يتتسارع ايقاع الحياة اليومية، وتكثر المتطلبات والاحتياجات والاهتمامات والمشاغل. وقد يكون سوادها غير ضروري للإنسان، فكثيراً ما تكون حدود الحاجة من صنع الإنسان وتخيله. الإنسان يكثُر ويتعجب بحجة تأمين اللقمة. غلاً أن استحضار اللقمة، لا يحتاج إلى جهد على مستوى شق النفس، الإنسان باسم اللقمة واللباس والعائلة والمستقبل، يخترع مبرراً للعمل المفرط، وباسم اللقمة يحجم عن الالتصاق بالله، إن مشاغل الحياة وكثرة الاهتمامات تصبح مادة يبرر بها المخلوق عدم اتصاله بالخالق.

وإذا تأملنا بعين ناقلة بناءً في ما تقدمه وسائل الاعلان المختلفة المرئية والمسموعة والمفروءة، وفي ما تحاول أن توجس به لأنسان اليوم، وفي ما تطلبه منه، أو تدعوه إليه، وكيف تستحوذه وتوجهه وترببيه في كل لحظات حياته، لابد ان يبلغ بنا الامر حد إدراك الحقيقة المزعجة المرة: لقد تخصصت وسائل الاعلام في زيادة الاستهلاك. وسائل الاعلام باتت أداة تستبعد الإنسان. إنها تقتاحه بألوانها وايحاءاتها وإخراجها. تذله وتستعبده. لا تريح له بال، إنما توغل في تنغيص عيشه وقض مضجعه فوسائل الاعلام كما تبدو، بنزاهة، لا تعمل من أجل خدمة الانسان وخلاصه، بل يهم منظموها إلى استبعاد الإنسان وتشيئه. ماذا نرى في وسائل الاعلام؟

فيها نرى العطور الكثيرة الأنوع، و السيارات الباهظة الثمن، وأصناف الدخان، كل صنف يتبوأ عرش الطهارة، فيحار المرء في أي يختار، وأيهما يمجّ، فجميعها مشهود لها بالقدرة على خلق السعادة المزيفة. وما يتربع منه على عرش الصدارة، يمجّه أطباء القلب في حضرة مرضاتهم. فالطلب بحقائقه ومعطياته، يأبى رومانسيّة الدخان حتى ولو جاء من نكهة تبغ بلد العم سام. وللمستهلك سلعة أخرى تأتيه عبر وسائل الاعلان، باتت سلعة ظن وهي ليست في الأساس هكذا، إنها الجنس. يُقدّم الجنس عند كل فقرة و منعطف أو لقطة أو نبأ أو فيلم. و من يروّجه، دائم إلى اقتحام أبواب القلب لاستلاب الإنسان عبر سلسلة من الآثار الشهوانية المؤذية والهدمية، يكون بنتيجتها أن يسترخص المرء الجسد والقيم والأخلاق والأعراف، فيسعى بيسير، ودونما رادع، إلى ارتكاب الموبقات بعد أن تكون ذاكرته وخياله قد عجا بالخيالات المريضة الهدمية، في كل نبأ تجاري، يطل عليك الأمر المعروض عبر بوابة الجنس، وباختصار فإن وسائل الاعلام لا تربّي، كما تبدو، مما يجعلنا نتساءل عن الرؤية والثقافة التي يتمتع بها مروجوها

والعاملون في سبيلها. و كل هذا ليس إلا غيضاً من فيض، تأتي بعده إلى القناعة أن ما يحكم شؤون الدنيا والناس ليس هو الله.

الدعایات والاعلان التجاری، عموماً موجّهة شطر الاستهلاک والتھام المراهقین. ترى کم يستخف منظموها بنا؟ في نظرهم، شرائح المجتمع واحدة وهي : المراهقون. وفي هذا يخطئون ويضللون. فلييس من السهل اجتذاب كل الناس، فلكل جذر وقدره وعقيدته وقناعته.

وعرفنا أيضاً، نحن أبناء هذا القرن، تصارعاً بين إيديولوجيات. لقد أسمهم هذا القرن الذي نوع، في ترسیخ مقوله أکيدة في النفوس تجذرت مع بريق التکنولوجيا و الوثبات العلمية الجبارۃ، إنها العقل و مكانته ودوره و فعله و قدراته. فما طبع من كتب و منشورات ومدونات، يکاد أن يوازي وزن كرتنا الأرضية إذا جاز التعبير. ولكن ما قيمة الفكر، إن ترسّخنا على الاعتقاد والسيرة بأننا استهلاكيون؟ ما قيمة الفكر والعقل إن كنا نفكر بخلاف ما نعيش، ونعيش بخلاف ما نفكر؟ أين تتجلى قيمة الفكر، إن كان الجهل إلى تزايد، كما هي النزعة الاستهلاکية فيينا؟

ويأتي هذا الكتاب طيراً يغرّد خارج سر به . لماذا؟ لأن مادته تختلف عما يتلقاه المرء في ساعات و دقائق حياته اليومية. فكل أيامنا تسهم في اندلاعنا الى الخارج. نحن نسكب ونهدر Externalized0 ) . حياة الدنيا تتزعزع كياننا لترميء لقمة تافهة في فم العدم. والكتاب هذا، وتلك التي تسير في ركبها، انتهجهت خطأ معاكساً للحضارة الاستهلاکية، لأنها تحاول أن تسترجع ما قد اندلق، إن كلامنا هذا، يطرح سؤالاً هو في جوهره روحي و مركزي: ما هي الحياة الروحية؟ كيف تحدد؟ إنها عودة الذهن إلى القلب. هذا واحد من تحدياتها. الحياة الروحية هي اكتساب الروح القدس كما قال القديس سيرافيم ساروف لتلميذه موتوفيلوف. وهذا يكون تحديداً آخر. الحياة الروحية، هي حياة في الروح ، او حياة الروح فيينا، او إذا شئت حياتنا في قلب الله. إن التحديد الأخير هو مدلول جديد لمعنى الحياة الروحية، إلا أنه مبهم، إلى درجة أن الإنسان المعاصر لا يفهم منه شيئاً ، رغم استعمال اللفظة بكثرة في الحياة اليومية، ويزعم البعض أن الحياة الروحية هي التواجد في إطار الدين. إنها الرهبنة، هكذا يخال البعض، وهكذا يحبون أن يفكروا . وفي هذا تجنّ على الحياة الروحية، وانتقاد مدتها ودورها، كما أن في ذلك دعوة إلى تغريب جماعة المتزوجين عن القدسية، وبالطبع قبول هذه المقوله، هو في ذاته احتقار للكلام الالهي، فيسوع نفسه بارك عرس قانا الجليل. و كرونستادت نفسه كان قد يسأ متزوجاً و بواسل الرسول رأى الكنيسة الحقيقية مشعشعة وراسخة في بيوت أناس متزوجين، رغم أنها كثيراً ما تحتجب في نطاق العازبين. ولليس في هذا دعوة إلى استعلاء المتزوجين على العازبين، فكم من زنادقة و زناة كانوا من

رهط المتزوجين، و كم من اطهار خرجن من أحشاء العزوبيّة المكرّسة (كور 19:16) (فيليبي 4:22). (كولوسي 4:1-3) (فليمون 1:15).

ورغم تبادل التحديّات وكثُرتها، يبقى أن الكتاب مادة قائمة في ذاتها. إنه كتاب خرج من أحشاء الروحانية الغربية على يد كاهن كاثوليكي يدعى لورنزو سكوبولي. عاش هذا الرجل في إيطاليا في القرن السادس عشر. وضع كتابه هذا، لا ليكون مجرد صورة عن سيرته، وهي جميلة و بديعة كما تبدو من خلال الكتاب، إنما ليجسّد لنا من خلال مادة الكتاب، حقيقة روحية بالغة الأهمية: ما هي؟ إنها زوال البون والقطيعة والجفاء بين الروحانيتين الشرقيتين والغربية. فبينما كنا و لانزال نعاني من ثمار الانشقاق الكبير (1054) أطل علينا هذا الكتاب وسواه، ليؤكد أن الحياة الروحية قطاع قائم في ذاته، له هويته و ميزته في كل زمان و مكان. له فرادته التي تتخطى حدود الهمم المسكونية والحزنات اللاهوتية، رغم إقرارنا العميق بدور اللاهوت في تنمية حياة الروح، ورسم إطارها ومعالجتها و ممارساتها. القطاع الروحي لم ينقسم، رغم انطباعه بالنهج اللاهوتي المحلي حيث وجد. فالقديس أغناطيوس بريانشانيوف لا يدعو إلى نهج القديس فرانسيس الإسيزي مثلاً، رغم أن القديس المطران ثيوفان الحبيس راقة الكثير من وجوه الروحانية الغربية، لقد تلمّس الكثيرون تبايناً عقائدياً تجلّى هنا و ثمة في الروحانية المسيحيون اليوم أمام مفترق، فإما أن يجدوا في البحث عما مرق شملهم، ووحدة إيمانهم أو أنهم سيندرجون على تعددياتهم و مشاربهم و طوائفيتهم في شريحة استهلاكية جديدة. وللآباء القديسين دور كبير في هذا المضمار، فهم عامل الوحدة الأساسي، و منطلقها، كونهم قابعين في قلب الله. مسيحيو اليوم في وضع حرج، فأفكارهم تباين حياتهم و سيرتهم اللاهوتية أيضاً معرضون لهذه التجربة، تجربة الكلام بخلاف الحياة، و الحياة بخلاف الكلام. من هنا يأتي الكتاب بوداعة فحواه ولطفه ليهز كياننا و نحن في معمعة القال و القيل في هذه الحضارة المرهقة و المتعبة. الاتصال بالخالق، فحياة المخلوق لا تقوم بدون الله. إلا أن وصول الكتاب كما هو في حلتة الحاضرة، كان نتيجة تلوّنه بثلاثة كتاب تتبعوا دون ترابط زمني. فواحد وضعه، و آخر عدّل فيه، وثالث وضع لمسته عليه، فجاء الكتاب معدّلاً. لقد تطور الكتاب وتعدّل رغم التقارب الكبير بين الذين أسهموا فيه. الكتاب يشير إلى منهج واحد يتفق عليه الثلاثة. ما هو؟ إنه عودة الذهن إلى القلب. من هم هؤلاء الكتاب؟ إنهم : 1- لورينزو سكوبولي 2- نيقوديم الآثوسي 3- ثيوفان الحبيس. إن أدق التعديلات في الكتاب تناولت باب الصلاة كما يتفق أغلب الدارسين له. لقد اشتهر و طبّقت شهرته الآفاق. إن كلاماً كثيراً يقال في كواليس الباحثة والدارسين للكتاب (الحرب اللامنظورة). أليس هذا هو عنوان الكتاب؟ ترى لماذا سماه

صاحبـه هـكـذا؟ من سـيـقـبـلـه إـذـا كـانـ كـلـامـاً عن حـرـبـ لا تـرـى بـالـعـيـنـ، وـالـدـنـيـا تـقـومـ وـتـقـعـ، نـتـيـجـةـ لـحـرـوبـ مـدـمـرـةـ نـعـاـيـنـهاـ وـنـتـلـمـسـ ثـمـارـهـاـ فـيـ كـلـ مـكـانـ مـنـ الـعـالـمـ؟ أـنـ يـكـونـ الـكـتـابـ عنـ حـرـبـ غـيرـ مـنـظـورـةـ، فـهـذـا يـرـفـعـهـ عـنـ الشـبـهـاتـ لـيـمـيـزـ حـرـبـ الـكـتـابـ عـنـ حـرـوبـ الدـنـيـاـ.

طبع الكتاب لأول مرة سنة 1589. ثم قال الأب سكوبولي نفسه بعد ذلك، بتوسيع مادته واطاره، فجاء أكبر بكثير من النص الأصلي. وفي الواقع انه تحفة نادرة تشد القارئ وتجذبه.

قلت إن الكتاب تعدد بمرووره على كتاب ثلاثة، وفي هذا اشارة الى تمایز، إن لم نقل فروقات بين مسيحي العالم في كل مكان كذلك في هذه الظاهرة اشارة الى ما ذكر آنفاً من أن الروحانية واحدة، لكن يمكن أن تتأثر و تتطبّع، على العقيدة التي يُقرّ بها في اطار الجماعة. فعند سكوبولي تلميح الى المطهر (purgatory)، الأمر المرفوض عند الشرقيين لقد وجد القديس نيقوديم الأثوسي أن الروحانية الغربية تنزع إلى إعمال الخيال في التأمل. في التأمل بالمفهوم الغربي، كثيراً من الخيال ، مما حدا به الى التعديل المذكور. تعديلات أخرى طرأت على الكتاب في باب الصلاة، وقد وجدها أصحابها ضرورية كي يأتي الكتاب منسجماً مع الذهنية الروحية الأرثوذكسية. لقد وصلت نسخة من الكتاب في القرن الثامن عشر الى نيقوديم الأثوسي، فقام بنقله بعد تعديل أجزاء فيه، الى اليونانية. وتعديلاته لا يعني احتقاره، فنقله الى اليونانية علامة واضحة على وزن الكتاب وقيمتها. ما مصدر التعديلات الطارئة على الكتاب؟ لم يكن الأمر نابعاً من مزاجية نيقوديم، بل كان يقوم على قاعدة اكليزيسولوجية اورثوذكسية. نيقوديم هو نموذج اللاهوتي الشرقي. انه مرآة الكنيسة قام بتعديل الكتاب، لأن مضمون بعض أجزائه لا ينسجم مع المبدأ الأرثوذكسي العام. وسنعود الى هذه المسألة لاحقاً. إلا أنه يمكن القول إن تعديلات نيقوديم لم تكن نابعة من موقف ذاتي، بل جاءت نتيجة انحرافه العميق في تيار التقليد الحي والروحانية المشرقية، فكان الناطق الرسمي باسم رجالات عظام سبقوه. وبالطبع فإن ظاهرة التعديل الحاصلة على الكتاب، تتطوّي على اشارة الى التباين العقائدي الواضح بين الشرق والغرب، رغم وجه الشبه والوحدة في موضع عدة، الأمر الذي لا ينكره أحد من أتباع الطرفين. ونحن شئنا أم أبينا أمام حقيقة قائمة، هي التباين العقائدي بين الشرق والغرب، في النهج حيناً، وفي الخلاصات العقائدية حيناً آخر. فكم وكم من جدل دار حول مواضع عقائدية اختلف عليها الشرقيون والغربيون على السواء. وليس بظالم القول إن مسألة عقيدة الحبل بلا دنس، هي وجه من وجوه الاختلاف العقدي بين الفئتين. كثيراً ما باعدت الكتابات اللاهوتية المختلفة، بين الوحدة الكنسية من جهة، وبين طالبيها وعشاقها والمنتنطسين لها، من جهة أخرى. في الكتاب فصل يتناول مسألة المناولة

(القسم الثاني منه). يتضح للقارئ مقدار الأهمية التي يعلقها الكاتب على سر الشكر علامة الوحدة بين الخالق

والملحق في العهد الجديد. في المناولة تجذب الله اليك، ليأتي و يحوّل كيانك إلى كيانه.

و نحن اليوم أمام تساؤلات عديدة تفرضها علينا مسألة المناولة: كثيرون يرون في المناولة الجسر إلى الوحدة بين

الطوائف. أو هي حسب رأي البعض الآخر، تعبير عن وحدة . فئة ترى في المناولة قيام الوحدة المسيحية و إحقاقها.

إلا أن جملة من أسئلة تفرض نفسها في هذا الباب، و مصاديقها مشرقة: ما قيمة الفكر و التراث في الدرب إلى الوحدة؟

و هل من قيمة للتراث أبان السعي إلى الوحدة؟ هل من وحدة بين أنساس لا يمتلكون الفكر الواحد؟ ما قيمة الفكر التراثي

بإزاء التعددية المسيحية القائمة؟ كيف نفهم الوحدة على القاعدة التعددية؟ كيف ينظر إلى الوحدة طوائفياً؟ ما معايير

الوحدة و مستلزماتها؟ من يرئس الدعوة إليها؟ هل الوحدة حقيقة قائمة، أم مجرد حلم منشود؟ ماذا قدّمت الأنشطة

المسكونية من خدمة للوحدة المسيحية؟ أليست النشاطات واللقاءات و المؤتمرات المسكونية علامة على غياب الوحدة؟

أليست النشاطات المسكونية علامة على الرغبة بها و الحنين إليها؟ ما قيمة الكلام عن وحدة ، الكتاب خضع للتعدّيل؟

إن هذه الأسئلة و سواها واجبة قبل الإجابة على كافة التساؤلات التي يطرحها هذا الكتاب (الحرب اللامنظورة).

و يبقى رغم هذا و ذاك من التنظير أن الوحدة هاجس الكثيرين تشغل كيانهم و قد شغلتهم و دفعت بهم إلى تكريس

القلب لله ، و هذا ليس بالأمر القليل.

المسيحيون طوائف، جماعات، فئات. منذ أن كانوا انطلقوا من القاعدة المحلية. الكنيسة المحلية معيار الكنيسة

الجامعة. الجامعية (Catholicity)، تقوم في المحلية. لا تُرى الأولى، إلا بالثانية. لا جامعية (catholicity)

، خارج المحلية (locality) قد يكون في التعددية المسيحية غنى حضاري و ثقافي و تراثي ، وهذا ممكناً، و ليس من

شك في أن التعددية تسهم في قسط كبير من حركة الحضارة صدعاً. إلا أن التعددية الطوائفية يستحيل أن تكون ذات فكر

واحد لاهوتى وعقائدي ، والا وجوب أن تبطل الطوائفية و تفقد التعددية ضروريتها. الأمر الذي يعني أن الدعوة إلى

الحياة الواحدة، غير متفق عليها، نظراً لغياب الفكر الواحد. عندها من البديهي زوال الطوائف، باندراج اتباعها في

بودقة واحدة. وهذا يستتبع إلى جانب وجود جماعة واحدة ذات فكر واحد، اسمًا واحدًا لكل الجماعات المسيحية، هنا

وثمة من العالم. انه يستوجب أسقفية واحدة تنبع من علاقة المسيح بالكنيسة (4:3-7)، (أفسس 5:24) ليس هذا

فحسب ، بل أيضًا يستدعي مؤسسات ذات مقاصد واحدة، و قاموس تحديدي واحد، و كل ذلك كي يجوز القول إن

وحدة الفكر، هي نبع حياة واحدة، و ما يزال هذا في نطاق الحل المنشود بين الحلم و الواقع.

و كلامي هذا ينسحب أثره على الأيديولوجيات أيضاً فمن المستحيل ان تتوحد ايديولوجيات البشر في هذا العالم. الوحدة هذه ممكنة في الابدية فقط، عندما تزول تلك التي تعوزها مقومات البقاء. من يقرر هذا؟ ما المقياس؟

القرن العشرون رمى بثقل العقل في حياتنا ووجوديتانا. العقل، المنطق، الفكر، كلها مرتکزات تصرخ وتئن. العقل نفسه يصرخ؟ و يصرّح أن المسيحيين ليسوا واحداً في العالم. ليس في الكلام غرطسة أو ادعاء. ليست المقوله هذه شعاراً أطلقه، ولا عقيدة أدفع عنها. الإنسان في كل مكان يحمل في اعماقه عطشاً إلى الحق. في العالم أناس كثيرون جذبوك أكثر من أبناء الملة. كم تجد بين أناس لا ينتمون إلى جماعتك، أفراداً يناظرون السماء، وتعتز أنت بهم، بينما ترى في العديد من أبناء ملتك من يناظرون الأرض وكأنهم يقيمون الزير من البير، بين أبناء مجتمعك أناس لمعوا، وجاز فيهم الدهش والإعجاب. الحقيقة كلها غير متجزأة وتدعوك ألا تطلق الأحكام جزاً و كيما اتفق. لا تحكم جزافاً. لا تصنف أحداً. لا يمكن لك أن تقوم أفكار الناس بيسراً و سهولة لا تتجاهل الأمور الحسان عند سواك، و لا تعتبر نفسك وجماعتك خيراً من الغرباء. لكن لا تعتبر ما عند الآخرين خيراً مما عندك، تمهل وترى ملياً و مطولاً أمام المسائل الدقيقة والصعبة، فخير المواقف أكثرها بطيءاً.

الشرقيون يكررون من الكلام عن لاهوت الكنيسة المحلية، دون أن يكون اللاهوت الرعائي عندهم يأخذ المحلية في الحسبان، و دون أن تكون المحلية منطلق العمل الرعوي. نحن أصحاب القول، لكننا كثيراً ما نفقده عند التطبيق. الغربيون بدورهم ينطلقون من قاعدة المسكونية (catholicity)، و كثيراً ما يخطئون الهدف، عندما ينسون المنطلق المحلي. الغربيون يهمّشون اللاهوت المحلي (local)، رغم وجود أبرشيّات ورعايا عندهم كما عندنا. الفرادة المحلية لا تلغى الجامعية، و الجامعية في ذاتها تقوم في المحلية. إلا أن التعددية المذهبية تتلف الهاجس إلى الوحدة، ولا تدعوا إليها. إنسان اليوم لا يأبه لثمار اللاهوتيين، و هو في هذا على ضلال، فالمعيار يقوم كنسياً على أناس قديسين ولاهوتيين. اللاهوت علم إلهي يقوم على التحاب و الخدمة، وذلك بكشف محبة الخالق للمخلوق إلا أن اللاهوت لا يقوم على أساس المساومة في الشأن العقدي. التحاب ينافي المساومة، ليس التحاب انصهاراً . انه ينافي منافاة النور للظلام، و الحق للكلذب، و الليل للنهار.

ويرى سواد الناس أن الرافضين لهماجس الوحدة هم جماعة بعيدة عنها، أسيرة و مستعبدة لتعصب بغيض. عند العامة، التعصب هو نقىض المحبة، ومناف لها، هذا صحيح. فالتعصب هو رفض لمحبة رخيصة مبنية على الرمال، و أنا أشاء هنا، استبدال التعصب بالتمسك. التعصب ممقوت، أما التمسك فمطلوب وحاجة، التمسك واجب،

أما التعصب فجيفة نتنـة، لكن يتـذر على المرء كائناً من كان، بلوغ التـمسـك بدون اطـلاع وتبـحر. فالتمـسـك يـقوم على رؤـية و مـعرفـة و بصـيرـة نـافـذـة المـعـرـفـة مـعيـار واجـب لـتـذـوق التـرـاث. الغـرـبة قـائـمة لا مـحـالـة بـيـن الجـمـاعـة و تـرـاثـها ، بدون مـعـرـفـة . تـغـيـبـ المـعـرـفـة اـحتـقـارـ فـاضـح لـحـلـوة التـرـاث وجـدواـه و فـائـدـته ، بدون المـعـرـفـة يتـذر على المرء نـقـدـ التـرـاث و تـبـيـانـه. ان مـثـلـ هـذـهـ المـعـرـفـة تـسـتـدـعـي اـطـلاـعاـ يـرمـي الى اـدـراكـ التـرـاث ، لمـعـرفـته و تـمـثـلـه ، و منـ ثـمـ ، لـاحـقاـ و سـابـقاـ ، لـعـيـشـهـ. ليـسـ التـرـاثـ ، أيـ تـرـاثـ ، دـعـوـةـ الىـ ايـديـبـولـوجـيـةـ صـرـفةـ طـوبـاـوـيـةـ هوـائـيـةـ لاـ صـلـةـ لـهـاـ بـالـأـرـضـ وـ بـالـفـكـرـ وـ بـالـحـيـاـةـ. الـاطـلاـعـ يـعـنيـ هـضـمـ التـرـاثـ ، لـتـمـثـلـهـ ، لـاـ لـمـجـرـدـ التـبـجـحـ بـهـ ، وـ الـزـهـوـ بـأـمـجـادـهـ وـ مـفـاخـرـهـ . التـرـاثـ لـاـ يـصـيرـ مـفـخـرـةـ إـلـاـ بـعـدـ تـعبـ نـبـذـلـهـ لـيـصـيرـ أـدـاـةـ العـيـشـ الحـيـ (well – being)ـ فيـ العـالـمـ.

وـ بـلـوغـ التـمـسـكـ ، شـرـطـ يـسـبـقـهـ تـعبـ وـ سـهـرـ وـ قـرـاءـةـ وـ فـرـكـ عـيـونـ وـ مـقـارـنـةـ نـصـوصـ ، وـ صـلـةـ حـارـةـ ، وـ تـضـحـيـاتـ ، وـ حـرـمـانـاتـ ، وـ حـرـجـةـ فيـ وـحدـةـ حـيـاـةـ ، بـيـنـ ماـ تـفـكـرـ بـهـ ، وـ ماـ تـعـيـشـهـ. سـوـادـ النـاسـ غـارـقـونـ فيـ بـحـرـ التـعـصـبـ. التـعـصـبـ اـدـعـاءـ ، إـنـهـ اـحـسـاسـ سـرـابـيـ بـالـمـعـرـفـةـ ، لـكـنـهـ غـرـيبـ عـنـهـاـ. التـعـصـبـ اـحتـقـارـ مـسـبـقـ لـفـكـرـ الغـيـرـ وـ مـبـادـئـ النـاسـ ، أـيـنـماـ وـجـدواـ. التـعـصـبـ وـالـجـهـلـ صـنـوـانـ. الـواـحـدـ مـنـهـمـاـ رـدـيفـ لـلـآـخـرـ. المـعـصـبـونـ يـنـهـشـونـ فـكـرـ الآـخـرـينـ مـنـ أـجـلـ اـحـتـقـارـهـ. يـتـطاـولـونـ عـلـيـهـ لـلـطـعنـ بـهـ ، لـاـ لـلـإـفـادـةـ مـنـهـ المـعـرـفـةـ الـحـقـيقـيـةـ شـامـلـةـ وـتـسـتـمـدـ مـادـتـهـاـ وـفـحـواـهـاـ مـنـ جـمـيعـ. الـجـمـيعـ عـلـىـ صـورـةـ اللهـ مـخـلـوقـونـ. المـعـصـبـ يـزـدـرـيـ فـكـرـ الآـخـرـينـ عـنـدـمـاـ يـنـظـرـ إـلـيـهـ عـنـدـ بـعـدـ ، لـاـ عنـ كـثـبـ ، وـشـيءـ مـنـ المـعـرـفـةـ يـمـيـتـ وـلـاـ يـكـفيـ ، إـنـهـ اـنـسـانـ يـمـجـ القـرـاءـةـ. اـنـ قـرـأـ شـيـئـاـ ، كـانـ سـعـيـهـ فـيـهـ إـلـيـ ماـ يـرـيدـهـ هوـ ، دـوـنـمـاـ نـزـاهـةـ فيـ الـحـكـمـ عـلـىـ ماـ هـوـ أـمـامـهـ. المـعـصـبـ أـمـيـ فيـ ثـوـبـ عـالـمـ ، وـجـاهـلـ فيـ هـيـئةـ باـحـثـ كـبـيرـ. فـلـاـ يـحـتـقـرـ لـمـجـرـدـ اـنـ الآـخـرـينـ مـخـتـلـفـونـ عـنـهـ. لـاـ يـحـتـقـرـ قـيـمـهـمـ لـمـجـرـدـ اـنـهـ لـاـ يـعـتـمـدـهـاـ نـبـرـاسـاـ وـقـاعـدـةـ لـحـيـاتـهـ وـ شـرـعـةـ لـنـفـسـهـ.

فـيـ الـحـيـاـةـ لـاـ بـدـ مـنـ الـاـنـتـمـاءـ. النـاسـ كـثـيـرـونـ ، وـ اـنـتـمـاءـاتـهـمـ كـأـعـدـادـهـمـ. الـإـنـسـانـ بـدـونـ اـنـتـمـاءـ يـضـيـعـ ، بـدـونـ اـنـتـمـاءـ يـسـتـحـيلـ عـلـىـ الـمرـءـ أـنـ يـحـيـاـ حـيـاـ وـفـيـرـةـ وـغـنـيـةـ بـالـقـيمـ وـ الـمـنـاقـبـ. الـاـنـتـمـاءـ أـسـاسـ مـتـيـنـ لـعـيـشـ الـوـجـودـ وـ اـخـتـبـارـهـ. لـيـسـ فيـ الـاـنـتـمـاءـ غـصـاصـةـ. عـلـىـ كـلـ مـنـاـ أـنـ يـنـتـمـيـ إـلـيـ مـارـ يـوـيـ فـيـهـ قـيـمـ الـحـيـاـةـ ، وـ مـعـراـجاـ إـلـيـ مـلـءـ الـأـنـسـنةـ. لـابـدـ مـنـ نـكـهةـ فيـ حـيـاتـنـاـ ، وـ إـلـاـ بـطـلـتـ قـيـمـتـهـاـ وـ خـبـاـ مـعـنـاهـاـ. الـاـنـتـمـاءـ يـعـيـنـ عـلـىـ تـذـوقـ الـحـيـاـةـ ، وـ الـهـوـيـةـ بـدـورـهـاـ تـرـسـخـ فـيـ الـمـرـءـ وـ جـوـبـ الـاـنـتـمـاءـ ، وـ بـلـوغـ الـاـنـتـمـاءـ يـسـتـوـجـبـ جـهـداـ وـ يـفـرـضـ تـعبـاـ وـ سـهـراـ عـلـىـ نـحـوـ مـاـ تـقـولـهـ طـرـوـبـاـ رـيـةـ الـكـنـيـسـةـ :ـ "ـ وـبـالـأـصـوـامـ وـ الإـسـهـارـ وـ الـصـلـوـاتـ ، تـقـبـلـتـ الـمـوـاهـبـ السـماـوـيـةـ...ـ".

وإنسان هذا العصر يخاف من البوح بانتقامه و هوبيته. إنه يخشى اللون العنفي الذي اتسم به هذا القرن المرعب العظيم. إنه يتكتم عن اعلان هويته خجلاً، أو حفاظاً على صدقة تشدد إلى أناس من غير نهجه و فكره. و الخوف أو الخجل يؤولان حتماً إلى الكتمان أو التكتم حيناً، وإلى التخلّي و اللامبالاة حيناً آخر. التعديدية المشرقية بما هي عليه، تسهم في ضمور الانتقام و الهوية دون أن تكون هي في ذاتها السبب. كثيرون من المشرقيين يدعون إلى الوحدة دون أن يعرفوا ما هو لهم و ما هو لسوادهم. يطالبون بالوحدة، لكنهم يحيون دفاعاً عن انتقاماتهم. التمسك بالانتقام و الهوية، بات شبه مستحيل، او هو على صعيد العامة كلام عن غير موجود. الناس يؤثرون عموماً الانفتاح الرخيص على التمسك المكلف. الأول دربهم إلى مصلحة، أما الثاني فمعراجهم إلى اكتساب رؤية. انفتاح الجھال، باب على النفعية، أما الانفتاح الحق، فهو دعوة إلى خدمة الثابت. انفتاح الجھال باب على النفعية والصيروحة. و العيش في الصيروحة لا يتطلب ولا يُحرج. و يبقى أن الدعوة هي إلى الثوابت لا إلى المتغيرات. سواد الناس في ممارستهم اليومية، مقتنعون و كأن نهضة الشعوب لم تكن يوماً حكراً على شعب أو ملكاً لفئة دون أخرى. هذا ما تقوله أفكار الناس في حضارة معلنة. لا ثقة للناس إلا في من يأتيهم بالتعزية. هم لا يفهمون في العمق لماذا يكون المسيحي خيراً من البوذي، و البوذي خيراً من اليهودي و سواه...، إذا كان الأول غير سلامي (*un peaceful*). صاحب البصيرة لا يرقب السلام من العالم الغربي لمجرد أن دولة و رجالاته مسيحيون. المسيحية الحق لا تموضع (*non-localized*) والكتاب هذا جاءنا من الغرب، وهو غريب عن كل تهمة تمسه، رغم الملاحظات التي لامسته بشكل تعديل، فهو كتاب صادق في دعوه، صاحبه جمع بين الفكر و الحياة، الأمر الذي لا ينتبه له إنسان القرن الحاضر. الجمع بين الشيوريا و البراكسيس، بين العمل و النرية، واجب. إن التعديلات التي طرأت عليه ليست من قبيل الصدفة، وهي جديرة بالدرس و التمحيق، كونها ليست ظاهرة عابرة، إن انجذاباً ما ، نتلمسه بين لورنزو و نيكوديم و ثيوفان، وفي هذا دلالة إن الحياة في الروح لا تت مواضع ولا تقاس بانتقام، لوريزنز وغربي، وصديقاً شرقيان، ومع هذا، فالوصال بينهما قام و ثبت. إن هذا قد يعني للمسكونيين إن الوصال بين الفرقاء والأخوة قد لا يقوم على حزلقات فكرية و دفاعات عقائدية وحسب، إنما هناك دور كبير و كبير جداً لرجالات الروح عند الطرفين. لرجالات الروح رأى في الوحدة ليس فقط قبل البدء بتحقيقها، بل وقبل التفكير بها أيضاً.

وقد يستغرب المرء في أيامنا كيف أن من يترجم كتاباً يستبيح مادته و يعدلها و يطورها. هذا لا يعني من الزاوية المبدائية أن لنيقوديم حقاً بما فعل، والشيء نفسه يقال في ثيوفان. يكفي أن الكتاب كان ملك صاحبه. إلا أن اعتراف

نيقوديم بأن الكتاب في حلته الأصلية لم يكن له، هو في ذاته دليل على اقرار بملكية لورينزوله، و مع هذا فالمسألة ما تزال مطروحة وقائمة، لكن لا ننسى أن العمل الفكري لم يكن في القرون السالفة قد عرف خصوصية الفكر و حقوق الطبيع أو الاستنساخ او التعديل و ما الى ذلك، فهذه أمور باتت جزءاً من حياتنا نحن، و مع هذا فتعديات أهل زماننا تتفوق بكثير ما حصل مع نيقوديم في (الحرب اللامنظورة).

إن قراءة دقيقة للكتاب و ما آلت إليه بنيته الأصلية، سواء قبل بها البعض أم لا، لهي الشاهد على أنه رغم القطيعة والجفاف بين الغرب و الشرق (1054)، فإن وحدة ما كانت قائمة بين المسيحيين. أو قل إذا شئت ، وصالاً و اتصالاً.

فالبُون العقائدي الواسع والجِدالات المدونة (**controversy**) لم تكن تحمل هواجس غنية من أجل وحدة كيانية شاملة، كالتي نراها على الصعيد الروحي. فتاریخ الكتاب هذا يعلن بوضوح أن باب الوصال بين الأخوة كان مشرعاً رغم فداحة الانشقاق و مآسيه. لقد تحول الكتاب إلى دم يغذى الناطقين باليونانية، بفعل مساهمة نيقوديم. و بالروسية، بفعل مساهمة ثيوфан. ولابد أن التعديلات المدخلة على الكتاب أكسبته حلة قشيبة جعلته يرتج في أواسط أوسع من تلك التي خرج منها. لقد تناولت أضخم التعديلات الفصول المتصلة بالصلة وبلغت حد انتقاد سكوبولي. ولم يكن انتقاده على قاعدة شخصية، بل جاء على أساس اختلاف التقاليد. الكتاب قبل بعد أن اكتسى لوناً مشرقياً، ولا غضاضة في ذلك، فالعالم يقوم على ألوان و تعددية. الإنسان يحيا ضمن لون تربي عليه. في هذا ضعف وقوه بآن. هذا واقع لا مفر منه. في الكتاب يستطيع المرء أن يرى تأثير الروح على الغرب و الشرق معاً، الجسور الروحية وحدها كفيلة بتحجيف غلواء الجهل المتبادل، والغرابة القائمة، والانشقاق المستشري، وكل هذا يأتي ليؤكد بعد تاريخ طويل من الهوى القسري (**proselytism**) ان الوحدة غير ممكنة قبل الرسوخ في محبة الرب. و الوصال المكوني، مهما كان عطاوه و ثمرته، يبقى في ذاته عديم النفع كونه معركة من أجل أفكار (**battle over abstractions**)، إلا إذا طعم بالمحبة للرب و للأخوة.

في الكتاب لاهوت نسكي واضح. الكتاب يرسم نهجاً، ويعلن أن ممارسة النسك ليست أمراً يؤتى به من خارج، من ديانات زيفس و النيرفانا و سواها، ولا من منابع الفكر الفلسفى اليوناني الافلاطونى. انه قائم على الكتاب المقدس، و منه ينطلق. إلا أن الصعوبة هنا، ان مادة النسك يبررها الكتاب، لكن عباراته تبدو غريبة عنه، أو غير موجودة. بولس الرسول يتكلم عن النسك بعبارات حرب. النسك عنده جهاد في معرفة، والمعركة ليست ضد لحم ودم (**أفسس 6:12**) الجهاد عند بولس ينتهي بإكلييل، فالمجاهد يُمتحن و يتوج (2:5) المجاهد جندي. لقد تكلم

بولس عن سلاح في الجهاد، عن درع و خوذة و سيف (أفسس). إلا أن يسوع يشجب الدعوة الى حمل السلاح عندما يقول "رد سيفك إلى غمده، فمن يأخذ السيف، بالسيف يؤخذ" (متى 26:52-54) كلام بولس عن السلاح، ليس هو كلاماً عن معدات قتالية، بل أدوات، ووسائل، السلاح عند بولس هو أدوات تخدم نهجاً ما هو النهج؟ انه الدنو من جملة الفضائل المسيحية وعيشها والارتقاء بفعلها، نحو العلاء، فالجهاد لابد أن يكون قانونياً، أي قائماً على مبدأ وأصول (2:5) لماذا يكون jihad قانونياً؟ لأن jihad غير القانوني، لا يؤدي ثماره، إذ لا ثمار له. فمن يتبع بدون مبدأ، يضيع تعبيه سدى، كلام بولس يقوم على إشارة إلى نهج. في jihad لابد أن يلبس المجاهد سلاح الله الكامل، لكي يثبت في قوله (11:6) في jihad لابد من سلاح، ولا بد أن يكون السلاح كاملاً، أي لابد أن تتوفر فيه أعلى درجات الجاهزية القتالية، و القدرة القتالية. وهذا لا يتوفّر في أي سلاح مهما كان، وهكذا فالإشارة عند بولس واضحة: "سلاح الله الكامل"، حيث أن سلاح الله قائم في الله، فالكامل لا يقوم إلا في الكامل، في مقدمة الكتاب للقديس نيقولاوس يعالج مسائل تتعلق بالجهاد، كالمعركة، ميدانها، أسلحتها، و يصنف الأسلحة داعياً إليها بأسمائها، فالخوذة هي الثقة بالله. و ساحة الولي، القلب، وما إلا ذلك. لماذا لا تكون حربنا بأسلحة مادية؟ لأنها ليست ضد عدو حسي، إنما ضد ابليس (أفسس 6:10-12)، ضد اعداء ليسوا من لحم ودم (أفسس 6:12) ويقول بولس بأن الثبات في هذه الحرب يستدعي اتمام كل ما علينا (أفسس 6:13). ما الذي يجب علينا اتمامه؟ إنه الحرب الروحية بدقتها وأصولها ومبادئها. لأن من لم يجاهد قانونياً، لا يتوج.

في الكتاب هذا نجد وكأن العالم هو إطار الشرور و مجسدها التجربة تحل بالإنسان في هذا العالم، كيف لا والعالم هذا لم يعرف المسيح؟ (يوحنا 1:10) يسوع ليس من العالم (8:23). مملكته ليست من العالم (يوحنا 18:36) يسوع في يوحنا، انتصر على العالم (33:16) وبعد الانتصار على العالم سيتركه ويمضي إلى الآب (يوحنا 16:28) يبدو العالم من خلال الكتاب، حقيقة مرعبة، سلبية، لا تخدم الخلاص، بل تعاكسه، وكل هذا لأن العالم مات بخطيئة الإنسان ف جاء المسيح ورفع خطيئة العالم (يوحنا 1:29). جاء كي يحيي العالم (يوحنا 6:51). ماذا يعني هذا؟ هذا يعني عن العالم يعاني من الخطية ، و قد مات بسببها. وهنا السؤال: ما هو العالم الذي مات؟ هل هو الجبال و الوديان.... أم هو الناس؟ العالم في الكتاب هو كينونة كثيرة المعاني: انه العالم و الناس... باختصار هو الوجود كله والذي بات مريضاً بعد خطيئة الإنسان. في الكتاب المقدس يبدو العالم كياناً حسياً (يوحنا 15:16)، الرسل يعيشون فيه (يوحنا 11:17) ويسوع يطلب من الآب لا أن يخرج تلاميذه من العالم، بل أن يحفظهم من

الشريـر (يـوحـنا 15:17) فـي العـالـم شـهـوـات (16:2 يـوـ) وـهـكـذـا لـابـد لـلـعـالـم أـن يـصـلـبـ، كـمـا وـلـابـد لـلـمـؤـمـن بـالـمـسـيـح أـن  
يـصـلـبـ (غـلاـطـية 6:14)

الكتـاب يـرسـم مـنهـجـاً يـومـيـاً لـمـسـيـحيـ المـتعـطـشـ إـلـى الـربـ. اـنـه يـدـرـبـهـ وـيـكـشـفـ لـهـ الفـخـاخـ التـيـ يـرـسـمـهاـ اـبـلـيـسـ، فـيـ هـذـاـ  
الـعـالـمـ، ضـدـ أـحـبـاءـ الـربـ فـيـ الـعـالـمـ الـحـاضـرـ يـقـومـ توـتـرـ عـمـيقـ، مـنـ شـأـنـهـ، إـذـا تـقـاعـسـ الـمـرـءـ أـنـ يـؤـديـ بـهـ إـلـىـ التـهـلـكـةـ.  
وـالـمـنهـجـ الـمـرـسـومـ، وـاجـبـ وـضـرـوريـ، لـأـنـ زـوـانـ الـعـالـمـ مـاـ يـزـالـ مـخـتـلـطاًـ مـعـ حـنـطـتـهـ (مـتـىـ 13:38).

يعـالـجـ الـكـتـابـ فـيـ الـعـمـقـ، مـسـأـلـةـ الـخـطـيـئـةـ. مـادـتـهـ وـفـحـواـهـ، هـيـ مـنـ أـجـلـ غـلـبـتـهـاـ وـالـنـصـرـةـ عـلـيـهـاـ. الـخـطـيـئـةـ أـمـرـ مـرـكـزـيـ فـيـ  
الـفـكـرـ الـمـسـيـحـيـ. مـنـ يـأـبـهـاـ وـيـتـجـاهـلـهـاـ، يـأـبـيـ دـيـنـهـ وـرـبـهـ، يـأـبـيـ مـوـتـ الـرـبـ وـقـيـامـتـهـ. الـخـطـيـئـةـ عـلـةـ شـيـخـوخـةـ الـوـجـودـ  
وـضـعـفـهـ وـتـحـولـهـ وـمـوـتـهـ. إـنـهـ فـشـلـ الـإـنـسـانـ فـيـ عـيـشـ مـشـيـئـةـ الـلـهـ. الـخـطـيـئـةـ غـبـاوـةـ وـجـلـهـ (moria). إـنـهـ حـالـةـ تـغـيـيبـ  
الـضـمـيرـ فـيـ حـيـاةـ الـإـنـسـانـ. إـنـهـ قـوـةـ تـعـمـلـ ضـدـنـاـ، تـصـدـعـ كـيـانـنـاـ، وـتـفـتـكـ بـنـاـ دـاخـلـيـاًـ التـصـدـعـ وـالـتـفـكـكـ فـيـ سـمـاعـ صـوتـ الـلـهـ،  
الـأـمـرـ الـذـيـ يـشـكـلـ جـوـهـرـ الـعـبـودـيـةـ لـلـخـطـيـئـةـ (روـ 7:15ـ20). وـيـتـنـاـولـ بـوـلـسـ الرـسـوـلـ مـسـأـلـةـ الـمـوـتـ، أـوـ مـوـتـ الـخـطـيـئـةـ  
فـيـ رـسـالـتـهـ إـلـىـ أـهـلـ رـوـمـيـهـ (6:8ـ10). وـالـخـطـيـئـةـ لـاـ تـمـوـتـ، إـلـاـ بـمـوـتـ النـامـوـسـ الـآـخـرـ فـيـنـاـ، الـغـرـيـبـ عـنـ طـبـيـعـتـنـاـ  
الـحـقـيـقـةـ، فـهـوـ يـضـلـلـنـاـ وـيـبعـدـنـاـ عـنـ الـلـهـ.

قلـتـ إـنـ الـكـتـابـ هـذـاـ طـيـرـ يـغـرـدـ خـارـجـ سـوبـهـ، وـذـلـكـ لـأـنـ الـعـالـمـ الـحـاضـرـ قدـ سـبـقـ وـرـسـمـ وـجـهـتـهـ. أـبـنـاؤـهـ جـادـوـنـ فـيـ إـثـرـهـ،  
سوـادـهـمـ يـزـحفـ إـلـىـ الـمـوـتـ وـالـعـدـمـ. وـحـضـارـتـنـاـ الـمـتـفـجـرـةـ، الـمـتـعـلـقـةـ، الـمـنـتـشـةـ بـالـمـنـجـزـاتـ الـعـلـمـيـةـ الـجـبـارـةـ، عـمـيـتـ عـنـ اـدـراكـ  
حـدـودـهـاـ، إـنـهـ حـضـارـةـ مـتـوهـمـةـ، يـرـسـمـ رـجـالـتـهاـ الـاـفـذاـنـ نـهـجـ سـيـاسـتـهـاـ وـتـوجـهـهـاـ. حـضـارـتـنـاـ تـعـمـلـ عـلـىـ خـرـابـنـاـ، لـأـنـنـاـ  
نـضـعـ بـأـيـدـيـنـاـ أـسـاسـ هـلاـكـنـاـ، عـالـمـاـ الـمـعاـصـرـ يـحـبـ الـلـذـائـذـ، وـنـحنـ فـيـ هـذـاـ الـقـرـنـ نـؤـكـدـ أـنـنـاـ عـبـيـدـ الـلـذـةـ، نـعـبـدـهـاـ وـنـسـتـحـلـبـهـاـ  
فـيـ كـلـ مـيـدانـ. فـجـرـنـاـ الـجـنـسـ، فـبـتـنـاـ مـنـ ضـحـايـاهـ، رـوـجـنـاـ الـمـخـدـراتـ، فـشـرـعـنـاـ نـقـتـلـ لـدـىـ تـعـاطـيـهـاـ. رـوـجـنـاـ فـكـرـ الـوـجـاهـةـ،  
فـبـاتـ الـكـثـيـرـوـنـ ضـحـايـاهـ، وـاـكـتـسـبـتـ طـبـيـعـتـهـمـ بـنـيـةـ زـجاـجـيـةـ هـشـةـ تـنـهـارـعـنـدـ كـلـ رـجـةـ أـوـ اـهـتـزاـزـ. بـنـيـانـنـاـ الـإـنـسـانـيـ،  
مـرـيـضـ فـوـقـ حـدـودـ الـوـصـفـ وـالـتـخـيـلـ، نـحـنـ غـارـقـوـنـ فـيـ اـسـتـهـلـاكـ كـلـ مـاـ يـقـدـمـ لـنـاـ، فـمـاـ عـدـنـاـ نـعـرـفـ الـحـاجـةـ مـنـ الشـهـوـةـ، وـ  
الـعـبـودـيـةـ مـنـ الطـاعـةـ، وـالـغـثـ منـ الثـمـينـ. الـجـمـيعـ هـامـوـنـاـ عـلـىـ وـجـوهـهـمـ وـضـلـلـوـاـ. كـادـ سـوـادـ الـمـصـلـحـينـ وـالـمـرـبـيـنـ أـنـ يـقـدـمـوـاـ  
رـشـدـهـمـ، وـبـيـأسـوـاـ. إـلـاـ أـنـ دـوـامـةـ الـفـسـادـ لـنـ تـدـورـ أـبـداـ، وـحـرـكـةـ الـضـلالـ، لـابـدـ أـنـ تـتـوقـفـ. لـابـدـ لـلـمـرـءـ أـنـ يـبـلـغـ نـهـاـيـةـ  
الـنـفـقـ، فـيـقـفـ عـلـىـ اـسـوـادـ الـخـطـيـئـةـ وـالـمـآـثـمـ. لـنـ يـدـونـ الـاجـتـارـ وـلـنـ تـبـقـيـ الـشـرـورـ تـعـيـثـ فـيـ النـفـوسـ شـرـاـ وـفـسـادـاـ. الـعـودـةـ

آتية لا محالة، ورجاؤنا بالله وبحكمة رعايته، رجاؤنا بالطيبين الطامحين إلى غرس الورود في صحراء الحياة، أملنا في هذا الكتاب وسواه من التي تسير في ركبـه.

وأخيراً، لن أتكلم أكثر من ذلك، بل سأدعو القارئ إلى الوقوف بنفسه على فحوـى الكتاب يقرأه، ليخرج بقناعات ، فالكتاب أستاذ نفسه وصورة فحـواه. ما يعنيـني أن الكتاب سيعود بالنفع على أحـباء الحياة الروحـية. لقد تأثرـت به كثيراً عندما طالعتـه وأنا رغـبة في أن أـنقل منفـعـته وفائـدـته إلى من يـرغـبـ. يـبـقـيـ أن أـقولـ بعدـ هـذـاـ، أنـ النـصـ العـرـبـيـ الذـيـ بيـنـ يـديـكـ أـخـيـ القـارـئـ، هوـ عـصـارـةـ النـصـيـنـ (الـانـكـلـيـزـيـ وـ الـيـونـانـيـ)ـ فـهـنـاكـ وـضـوحـ أحـيـاناـ فيـ النـصـ الانـكـلـيـزـيـ، وـ آخرـ فيـ النـصـ الـيـونـانـيـ.ـ هـنـاكـ باختـصارـ فـوـارـقـ بيـنـ النـصـيـنـ،ـ فـمـنـ يـطـالـعـ النـصـ الـيـونـانـيـ،ـ وـ النـصـ الانـكـلـيـزـيـ يـجـدـ أنـ الـكتـابـ واحدـ،ـ لـكـنهـ فيـ الـوقـتـ نـفـسـهـ،ـ يـجـدـ أنـ فيـ النـصـيـنـ فـوـارـقـ.ـ وـهـكـذاـ عـمـدـ إـلـيـهـمـاـ حـتـىـ يـولـدـ النـصـ العـرـبـيـ مـزـدـانـاـ بـمـاـ فيـ الـاثـنـيـنـ مـنـ فـوـارـقـ.ـ أـسـأـلـ الـرـبـ أـنـ يـجـعـلـ هـذـاـ الـكتـابـ وـ كـلـ كـتـابـ آـخـرـ لـمـجـدـ اـسـمـهـ الـقـدـوـسـ وـ مـنـفـعـةـ الـأـخـوـةـ أـمـيـنـ.

الأب

منيف حمصي

عيد الصليب - 1991

# القسم الأول

## الفصل الأول

ما هو الكمال المسيحي؟ الحرب ضرورية لاكتسابه.

أمور أربعة لا غنى عنها للنصرة في هذه الحرب.

نحن نريد أن نحيا في الكمال، والرب طالبنا: كونوا كاملين كما أن أباكم الذي في السموات كامل" (متى 5: 48). بولس الرسول يلفتنا أن نكون صغاراً في الشر، كاملين في الذهن (1 كو 14: 20). ويقول في موضع آخر : "اثبتوا كاملين..." (كو 4: 12). وأيضاً: "لنتقدم في الكمال" (عب 6: 1) وهذا ما قاله الرب في العهد القديم: "... تكون كاملاً لدى الرب الهك" (تثنية 18: 13) وداود ينصح سليمان ابنه بقوله : " و أنت يا سليمان ابني أعرف إله أبيك و أعبده بقلب كامل و نفس راغبة" (أي 28: 9) . لذا بعد كل ما قيل يمكننا أن نؤكد أن الله يريد الكمال من المسيحيين. فنحن يتوجب علينا الكمال في كل الفضائل، لكن أنت، إن أردت الوصول الى ذلك، ما عليك إلا معرفة أين تجد الكمال المسيحي، و إلا فإنك ستتحيد عن الدرب إليه و تدخل في سبل أخرى، فتظن أنك في الطريق.

إن أعظم شيء يتمناه المرء، هو التقرب من الله و الالتصاق به. و الكثيرون يزعمون أن ملة الحياة المسيحية موجود في ممارسة الصوم و السهر والصلوات، أو في النوم على الأرض مع كل الرياضات الجسدية الأخرى. إلا أن آخرين يزعمون أن الكمال المسيحي يكمن في تكرار الصلوات في البيت، و المواظبة عليها في الكنيسة. و آخرون يعتقدون أن الكمال، في دقة التطبيق لمضامين الوصايا، دون اهمال شيء، أو زيادة شيء آخر، على أن يتم ذلك بالاعتدال. إلا أن كل هذا هو مجرد وسائل للوصول الى الكمال، في الواقع إنها وسائل فعالة تقود إلى كمال الحياة الروحية. و نحن نرى الكثيرين من أهل الفضيلة يعكفون عليها لنيل قوة ضد طبيعتهم التي انفسدت بالآثام، و ضد أهوائهم الشريرة أيضاً. فهم يمارسون هذه الفضائل، لكي تنمو فيهم الشجاعة على مقاومة تجارب (الجسد و العالم و الشيطان)، و أيضاً لكي يحصلوا على العون من جراء هذه الوسائل . وهذه الوسائل واجبة كل الوجوب لخدم الله، لا سيما للمبتدئين منهم. الصوم ضروري لقمع حركات الجسم. والسهر ضروري لتنقية البصيرة الداخلية. النوم على الأرض ضروري، خشية الوقوع في الكسل و التراخي، ربط اللسان بالصمت واجب. الاختلاء واجب، و ذلك لاجتناب ما يعيق الحياة في حضرة الله. تلاوة الصلوات و المواظبة عليها في الكنيسة، و اتمام الأعمال الفاضلة، كلها أيضاً ضرورية لبقاء الذهن في السماء. القراءة في حياة المخلص تعين على معرفة الضعف البشري، و تكشف رأفة الله وحبه ورحمته، و ذلك لاتبعاه و السير معه بإنكار ذات. والذين يعملون كل هذا، يلتهبون بالرب أكثر فأكثر. من الجهة الثانية، قد تكون الفضائل سبباً لضرر عند الذين

يرونها غاية حياتهم، والعيب ليس في الوسيلة، بل في سوء استعمالها. فالوسائل حيادية في حد ذاتها. إلا أن الذين يمارسونها (الفضائل) ظاهرياً فقط، وقد عاشت قلوبهم وفق ارادتهم الخاصة، فإن موقفهم يكون مدعاة لفرح ابليس الذي يرى انهم قد تخلوا عن الصراط القويم، وهنا قد يكف (ابليس) عن تجربتهم جسدياً، فيسمح لهم بمزيد من الطاعة لأفكارهم الضعيفة، أمثال هؤلاء قد يقعون في نشوات خاصة، فيبدو لهم أنهم بلغوا حالة الملائكة، ويحال لأفكارهم أن الله رائق فيهم، فيكونون أحياناً على تأمل عاطفي غير روحي هو أشبه بالانخطاف (انخطاف بولس الى السماء الثالثة).

لكن يستطيع أي إنسان أن يعيين ضلال مسلكهم برؤيه حياتهم، فيتيقن من بعدهم عن الكمال الأصيل. و كقاعدة لذلك، تراثم يؤثرون أنفسهم على الآخرين، سالكين بمقتضى مشيئة نفوسهم. هم عادة عنيدون في مواقفهم، و عميان من جهة كل ما يتصل بهم. وإن سمعوا مدح أحد، تضيق نفوسهم، فيعادونه. وإذا تدخل أحد في حضور الآخرين، بشؤونهم، فإنهم يغتاظون و يهدرون هدوءهم.

عندما يريد الله أن يعرفهمحقيقة نفوسهم كي ما يسلكوا درب الكمال، يمطرهم بالتجارب والأوجاع، أو يسمح باضطهادهم. بهذه الوسيلة يختبر الله خدامه الحقيقيين. وهذه التجارب تستنبش ما دفنوه في نفوسهم، وتكتشف فسادهم بداعي الكبرياء، إنهم يرفضون التجارب، ولا يخضعون لحكم الله، و ليست لهم ثقة فيه. يأبون الانصياع والطاعة ليروع الذي تألم من أجلنا. يأبون التواضع، لأنهم ليسوا أدنى المخلوقات، يرفضون الاضطهاد الذي هو علامة صدقتهم لله. و هكذا فهم في مأزق، لأن حواسهم الداخلية قد اسودت ، أما هم فيرون في أعمالهم كل خير و صلاح، فينتفخون و يقعون في دينونة الجماعة، أمثال هؤلاء، يتذرع استرجاعهم إلا بتدخل الهي. إن الأئمـةـ التائبـ يعودـ إلىـ الخـيرـ بـسـهـولةـ،ـ أـكـثـرـ مـنـ الـذـيـ يـخـطـئـ وـهـوـ مـتـسـتـرـ بـالـفـضـائـلـ.

ها قد رأينا بجلاء أن الحياة الروحية والكمال المسيحي لا يمكننا في فضائل خارجية. عليه، فعلينا أن ندرك أن الحياة المسيحية لا تقوم إلا بمقاربة الله و ملاصقتـهـ منـ صـمـيمـ القـلـبـ،ـ وـ بـالـإـحـسـاسـ اـنـنـاـ عـدـمـ،ـ وـمـيـالـوـنـ إـلـىـ الشـرـرـ (31:10).

هـذـاـ هـوـ نـامـوسـ الـحـبـ،ـ مـكـتـوبـاـ بـيـدـ اللهـ فـيـ قـلـوبـ اـصـفـيـائـهـ الـأـحـبـاءـ،ـ هـذـاـ هـوـ رـفـضـنـاـ لـذـواتـنـاـ حـبـاـ بـالـهـ،ـ هـذـاـ هـوـ نـيـرـ الـمـسـيحـ المـبـارـكـ وـحـمـلـهـ الـخـفـيفـ.ـ هـذـاـ هـوـ التـسـلـيمـ لـإـرـادـةـ اللهـ:ـ (لـتـكـ مـشـيـنـتـكـ كـمـاـ فـيـ السـمـاءـ كـذـلـكـ عـلـىـ الـأـرـضـ..ـ)ـ (مـتـىـ 6:10).

و يسوع نفسه عَبَر عن هذا في ليلة آلامه، و ذلك بقوله : " لتكن لا ارادتي بل ارادتك... ) (لو 22:42). أمل يقل هو

نفسه: " لأنني نزلت من السماء لأعمل مشيئة الذي أرسلني " (يو 38:36)؟

هل ترى الآن يا أخي ان هذه كلها مجرد وسائل. أنا أعرف أنك مستعد و مشتاق لبلوغ ذرى هذا الكمال.

فليكن اندفاعك مباركاً. لكن عليك أن تعد نفسك للعمل، و للعرق، وللجهاد، منذ البداية، عليك أن تعمل ما يرضي الله

في كل شيء. ستري في داخلك أوجاع و أهواء كثيرة و مشيئة عديدة تصرخ طالبة الارتواء. إلا أن النجاح يتوقف على جهادك. و لا تنسى أن بلوغ الهدف يُعطى للأبطال فقط.

و إذا كان من مشقات في الجهاد، فهذا دليل اننا نحارب ضد أنفسنا، و أنفسنا تعاكستنا. لا تنسى أن الانتصار يرضي الله

كثيراً، وأنت إذا انتصرت مدفوعاً بالغيرة، فأمنت أهواءك ورغباتك، فإن الله يفرح بك كثيراً. وعلى هذا النحو، تعمل

لأجله بصورة أفضل بكثير مما لو تضرّج جسدك بالدم بفعل الجلد، و أفضل بكثير مما لو اجهدت نفسك بالصوم،

مضاهياً رجالات البرية. و أكثر مما لو خلصت مئات من العبيد المسيحيين، من ذلهم، و أطلقتهم إلى العتق و الحرية،

فإن هذا لا يخلصك، إن بقيت عبداً للذاتك. فأي عمل مهما كان، لا يوصلك إلى هدفك المنشود، إن أهملت أهواءك تاركاً لها العنوان.

وأخيراً، وبعد أن عرفنا ماهية الكمال المسيحي، و عرفنا ضرورة الحرب ضد أنفسنا، فإن أردت أن تنتصر في حربك

(الروحية)، وتنال الإكيليل، عليك أن تضع الأمور التالية نصب عينيك:

1- لا تثق بنفسك في أي شيء.

2- ليكن في قلبك ثقة كبيرة بالله.

3- جاهد بدون توقف.

4- صل بدون انقطاع.

## الفصل الثاني

### في عدم الثقة في النفس في أي شيء

إن عدم الثقة بالنفس أمر بالغ الأهمية في جهادنا، إذ بدونه نفشل دائمًا في الغلبة المرجوة، وبدونه أيضًا نعجز دائمًا لدى مقاومة العدو. فليكن هذا نصب عينيك.

من أيام آدم وحواء، دخلت علينا الخطيئة مسيبة وهذا في قوانا الروحية والأخلاقية. لكننا رغم كل هذا، مازلنا ننظر إلى ذاتنا نظرية فوقية، كأننا شيء، علماً أن الخبرة أثبتت وثبتت رباء نظرتنا و زيفها، إن هذا المرض الروحي، من الصعب تمييزه، لكنه ممقوت من الله، فهو المولد الأول (البكر) للعجب بالنفس، وهو أصل كل الآمنا وأهواننا وأفعالنا القبيحة، إنه يسد باب ذهننا ونفسنا، فمنه وحده فقط تستطيع سائر النعم أن تدخل.

إن الثقة بالنفس لا تتيح لها الفرصة كي تسكن علينا، وبالتالي فالنعمـة لا تعمل في الذين يثقون بنفوسهم. فكيف تعمل في من يظن أنه شيء؟ والله يتآلم من أجل الراذحين تحت هذا الألم، فيقول : ( ويل للحكماء بأعين أنفسهم، و الفهماء عند نواتهم ) ( 1 ش 21:5 ). الرسول نفسه يحذرنا قائلاً : ( لا تكونوا حكماء عند نفوسكم ) ( رو 12:16 ).

الله نفسه الذي يحقق تقويمنا الخاطئ لنفسنا، يحب أن يرانا مقتنيعـين أننا بدونه لا شيء، وأنه هو مصدر الخير، وأن لا شيء من الخير يأتي من نفسنا. لقد أراد الله أن تكون هذه الجذوة الصالحة مغروسة في قلوب أخصائه القديسين، فنشرع يبحث كل واحد منهم أن لا يعطي قيمة لنفسه، وان لا يثق بها. وهو يفعل هذا، تارة عن طريق النعمـة و الرؤية الداخلية، و طوراً عن طريق التجارب، ومرة أخرى بطرق لا نفهمها نحن. إن عدم الثقة بنفسنا هو من عمل النعمـة، لكن علينا أن نبذل كل الجهد كي نصل إلى هذه القناعة. لذا سأرسم لك أموراً أربعة بها و بمعونة الله، تبلغ إلى عدم الثقة بنفسك :

**1** - تأكد أنك لا شيء، وكن على يقين أنك عاجز عن أي خير يستحق الملـكوت. تذكر أقوال الآباء الذين قالوا: ليس أفضل من معرفة الإنسان لضعفـة، وليس أسوأ من تنـكر الإنسان لمعرفة نفسه. والقديس يوحـنا الذهبي الفم قال : ( لا أحد يعرف نفسه، إلا إذا اعتبر أنه لا شيء).

**2** - أطلب العون الإلهي بالصلة الحارة المتواضـعة. فبفضل النعمـة الإلهـية يستطيعـ المرأة أن يعرفـ نفسها، و إذا رغبتـ في اقتنـائـها، و طـد العزم على القنـاعة اليقـينـية بأن ابـتـغاـءـ النـعـمةـ ليسـ منـ طـبـيعـتكـ، وـ أـنـكـ لاـ تـبـلـغـ إـلـيـهاـ بـمـجـدـ

جهادك، إنما بوقوفك في حضرة الله، بإيمان ثابت في محبته اليي تمنحك معرفة ذاتك، ف والله وحده يهبك هذه القدر.

أما أنت فلا يخامرك شك، أو ارتياب، في أنك ستثال سؤالك من رب.

3- درب نفسك على الانتباه واليقظة أمام خصومك الذين لا تقوى عليهم، تهئب خبرتهم الطويلة في محاربة الإنسان، و خبthem و أشراكهم و قدرتهم علىأخذ هيئة ملاك من نور (2 كور 14:11-15). انتبه من شباكهم الكثيرة التي يجعلونها في درب حياتك.

4- و إذا وقعت في معصية، بداعي ضعفك، فا قبل ذلك لأن الله يسمح بالسقطة كي يجعل الإنسان أكثر وعيًا لحقيقة ضعفه، و هكذا فإنك بضعفك هذا تصبح راغبًا في قبول اساءة الآخرين إليك، و التي بدونها، لا يمكن أن تنموا فضيلة نكران الذات فيك.

إن هذا هو ركن التواضع و قاعدته، ويبني في العادة على التيقن من الضعف البشري القابع فينا. من التواضع تبدأ معرفة الذات الحقيقية. منه ندرك كيف يرحم الله المتكبرين فيسمح بسقوطهم، و ذلك لكي يأتوا إلى معرفة ذاتهم.

ورغم فاعلية التكتيك الإلهي عبر هذه الطريقة، إلا أنه يبقى أسلوباً خطراً لا يحتمكم إليه الله إلا عندما تتحقق الأساليب الأخرى و السقوط، في حال حصوله، يكون على مقدار عمق الخطيئة أو درجة الكبرياء. لهذا، فإن حصل ووقيت في زلة، فتتواضع في داخلك مواطباً على التضرع و الابتهاج إلى الله، ليهبك نوراً يخولك معرفة نفسك. لا تعتمد على ذاتك لئلا تقع من جديد، و يكون وقوعك في شر أقبح. الإنسان لا يصل إلى معرفة ذاته إلا عندما يُجرّب بالضيقات و المحن، لا سيما الجسيدي منها. لذا يتوجب على الإنسان أن يدرك ضعفه بحق، و يتضع.

الله يسمح بنزل التجارب علينا، سواء من الشيطان، أو من الناس، أو من الطبيعة الساقطة. و بولس أدرك هذا عبر التجارب التي أحاقت به فقال : " لا نريد أيها الاخوة أن تجهلوا الشدائـد التي نزلت بـنا في آسيا، فـكانت ثقيلة جـداً و فوق قدرتنا على الاحتمال حتى أـنـنا يـئـسـنا منـ الـحـيـاةـ، بلـ شـعـرـنـاـ أـنـهـ مـحـكـومـ عـلـيـنـاـ بـالـمـوـتـ، وـ ذـلـكـ لـكـيـ لـاـ نـتـكـلـ عـلـىـ أـنـفـسـنـاـ، بلـ عـلـىـ اللـهـ الـذـيـ يـقـيـمـ الـأـمـوـاتـ... " (2 كور 10:9-10).

إذا أراد المرء أن يدرك ضعفه بخبرته اليومية، فلينتبه إلى كلامي مدققاً في أفكاره و أقواله و أفعاله، فيجد أنها في معظمها خرقاء واهية. و التجربة من شأنها أن تكشف له ضعفه. فإذا كان يتلهف إلى الصلاح، سيدرك من ضعفه مقدار غباؤه إذا اتكل على نفسه، أو إذا حصر اتكله بنفسه فقط.

### الفصل الثالث

#### في الثقة والرجاء بالله فقط

رغم عدم جدو الاتكال على القدرة البشرية فقط، في الجهادات الروحية، إلا أن الواقع في اليأس دون التماس العون، قد يؤدي بالواحد من إلى التخلّي عن حلبة الجهاد، فنُستعبد للعدو. لهذا وبالإضافة إلى معرفة أفكار النفس، يتوجب على الإنسان أن يشعر من عمق القلب بأن الاتكال هو على الله دون سواه. فمنه كل خير، وكل عون، وكل مؤازرة، وهذا ما يحدو بنا إلى عدم الاتكال على أنفسنا البتة، فلا نتوقع منها سوى الضعفات والسقطات، الأمر الذي يقنعنا بضرورة عدم التمسك بأنفسنا، فالمؤمن على ثقة أن الغلبة تأتيه من رب، عملاً بقول المرّتم : "الرب عزي و عوني ، عليه اتكل قلبي فانتصرت..." (مزמור 28:7). أما الأفكار الواردة أدناه فتعين على الرجاء لنيل العون والقوة:

- 1- نحن نطلب عون رب لنا، وهو وحده قادر على ما يريد، لهذا فخلاصنا بين يديه.
- 2- نحن نطلب عون رب لنا، وهو وحده الحكيم العارف بأنجع سبيل يناسبنا. وهو وحده العارف بما يناسب كلّاً منا.
- 3- نحن نطلب عون رب على نحو غير محدود، وعونه يأتيها بمحبة منه لا توصف. فالله مستعد أن يمدنا بالموافقة كل حين بغية نيل النصرة التامة في الجهادات الروحية. يكفيانا أن نسرع إليه بثقة وثبات . الرب راعي نفوسنا الذي يبحث عن الخروف الضال في الدروب الوعرة المليئة بالشوك، وقد تجلّى هذا بمותו عنا. لذا فالمؤمن الساعي إلى الله، لابد أن يستقر في النهاية في الأحضان الأبوية، ليشتراك في الوليمة السماوية ، مع الملائكة الاطهار، الله لا يتوقف عن البحث عن كل خروف ضال، كتلك التي كانت تبحث عن الدرهم المفقود (لوقا 15:8-10). الله يفتح عن كل واحد منا، ويقعن أبواب قلوبنا كل حين، عساه يدخل ويتعشى كما جاء في سفر الرؤيا (رؤ 3:20). والله يصر على الدخول إلى قلوبنا إذا رغبنا به.
- 4- أما السبيل الرابع الذي تتولد لنا به، ثقة متينة في الله، فيقوم على استرجاع كل علامات العناية الإلهية من أجل البشر في الكتاب الإلهي، وهي في الواقع كثيرة ولا تحصى. فليس من يضع ثقته بالله يخزى. هذا ما يقوله ابن سيراخ (10:2).

تمسك بهذه السبل المذكورة يا أخي ، و حارب بشجاعة ، مقتنعاً أن الغلبة لا بد آتية من الله. و أني لا أتواني في هذا الباب عن تذكيرك بعدم الثقة بالذات ، فكلنا بحاجة إلى هذه الملحوظة ، و ليس أحد بغني عنها. إن اكرام الذات مرضى متجلز فيينا إلى حد أن الواحد منا يظن نفسه أمراً ذا شأن. إنه وجع رابض في اعماق القلب يتحرك فيينا على نحو خبيث ولا يمكن تتبعه بسهولة. ولكي نتحاشى الانخداع ، علينا التمسك بضعفنا الذي يسبق تأملنا بالله. ان الضعف المترن بالتأمل في الله ، هو شرط لابد منه ، في كل نشاطاتنا.

## الفصل الرابع

### في كيف يعرف المرء أنه يضع ثقته بالله و لا يتكل على ذاته

يُزعم المتكلمون على ذواتهم أن ثقتهم بالله، و اتكالهم عليه، و ان ليس فيهم اعتماد على ذواتهم البتة. والحال ليس هكذا أبداً، و يمكنهم تبيين هذا إن هم دققوا في نفوسهم حينما يتهمون. فإذا كان الحزن يلازمهم ساعة السقوط فيعيرون أنفسهم قائلين هكذا: سأقوم بهذا، و أفعل ذلك ، كي أتجاوز ما حصل ، و الكل سيكون على أفضل حال... إن في هذه المزاعم علامة بيّنة على الثقة بالنفس وعدم الاتكال على الله. فالحزن الناجم عن السقطة يكون كبيراً في الاعتماد على الذات. أما الذي يضع رجاءه بالله فإنه لا يتعجب ولا يندهل ساعة السقطة، ولا يحزن إلى حد الإفراط، فهو يدرك أن السقطة نتيجة ضعفه، و نتيجة انعدام ثقته بالله، و هكذا تكشف له نفسه بالزلة، فيحتمل الكل، ليتقدم في التعلق بالله و الثقة به. و بالتالي فإنه يحتمل مستلزمات التوبة، في يقين بأنه قد أهان الله. وهذا يقوم به بسخينةٍ وهدوءٍ متسلحاً بالله على نحو أفضل و أمثل، لمقاومة أعدائه بشجاعة و بإصرار، حتى الموت وأسوق مثلاً من الناس الذين يزعمون أنهم رجال الروح و الفضيلة، لكنهم سرعان ما يسقطون في الغم والكآبة بعد السقطة، فلا يعثرون على سلام و لا يطلبونه، بسبب الإيغال في محبة ذواتهم، وهكذا يهرعون إلى الآب الروحي جاعلين ثقل الخطيئة أمامه كي يتنقوا من رجاستها و يقووا على أنفسهم بواسطة السر الأقدس، سر التوبة والاعتراف.

## الفصل الخامس

### في ضلال الذين يزعمون أن الافراط في الغم فضيلة

يخطئ من يظن أن الحزن الشديد، الحاصل نتيجة للخطيئة، هو فضيلة. فقد يكون ناجماً عن كبراء وعجب بالنفس. وكثيراً ما يكون مثل هذا الحزن قائماً على ثقة بالنفس، وثقة كبيرة بالقدرة الشخصية، حيث أن المرء يندهل إذا ما وقف أمام أمر لم يكن يتوقعه، فيذوب قلبه من شدة الضيق، فهو لا يستطيع أن يصدق أنه مرمي إلى الحضيض بعد أن كانت الآمال والتطلعت عظيمة وكبيرة.

إن أمراً كهذا لا يصيب الإنسان المتواضع الذي تمتّنت ثقته بالله، فما عاد يرجو من نفسه أمراً حسناً . فعند سقوطه في زلة، يشعر بالحزن الشديد، دون أن يبلغ به الأمر إلى اليأس. فهو يعرف أن السقطان هي نتيجة لضعفه البشري، وأنها ممكنة دائماً ، فلا يضطرب ولا يتعجب، لأنه يدرك ذلك جيداً بمعونة نور الحقيقة.

## الفصل السادس

### في أمور أخرى بها تصير الثقة بالله كاملة مع عدم الاعتماد على الذات

لما كانت القوة التي بها نغلب أعداءنا، تقوم في عدم اعتمادنا على أنفسنا، وفي ثقتنا ورجائنا بالله، كان لابد أن يتتوفر عندك يا أخي علم جلي بهذا، لأنك به تأخذ القوة مقرونة بمعونة الله. فاعلم يقيناً أن ليست طاقاتنا، سواء الفطرية منها، أو المكتسبة، ولا الموهب المنوحة لنا مجاناً، ولا معرفة الأسفار المقدسة، ولا الأعمال التي عملناها من أجل الله عبر السنين، ولا كل هذه معاً، تؤهلنا أن نفعل ارادة الله كما ينبغي. فإن كنا أمام عمل جليل ننوي القيام به، أو أمام تجربة نسعى إلى تحاشيها، أو عندنا صليب علينا أن نحمله بمقتضى ارادة الله، فإن لم ترفع معونة الله قلنا و تمده بالقوة، فالكل بدون جدوى لأن الرب قال : (بدوني لا تقدرون أن تعملوا شيئاً) (يو 15:15). لذا يتوجب علينا طوال حياتنا، وفي كل يوم ، وساعة، ولحظة، أن نضع نصب أعيننا عدم الاعتماد على ذاتنا، بل نرجو على الدوام الاعتماد على الله.

أما من جهة الثقة بالله، فاعلم أنه قادر على نصرتك ضد أعدائك، سواء كانوا قلبيين أم كثيرين، ضعفاء أم أقوياء، لكن أوقاته و مواعيده خاصة، وهي قادرة على منح النصرة مهما كانت النفس محمّلة بالخطايا في العالم، ومهما كانت ملوّثة، ومهما تقلب في التجارب واستخدمت كل الوسائل كي تتحرر من الخطيئة، وتصنع الخير دون أن تقطف ربحاً غيّراً مهما كان. لا بل على العكس فإن سقوطها في الشر صار أعمق. فمهما حصل، لابد للنفس أن تتمسك بالثقة بالله دون أن تتخلى عن أسلحتها الروحية. عليها أن تجاهد بكل شجاعة دون التوقف عند حد، لذا عليك ان تدرك أن الجميع يخسرون في الحرب الروحية ما عدا أولئك الذين يواظبون على الجهاد، جاعلين رجاءهم في الله. الله لا يهمّ أحداً، رغم أنه يسمح لهم أحياناً أن يحتملوا الجراح. فليجاهد كل واحد، لأن الجهاد هو للجميع في مثل هذه الحرب. الأدوية جاهزة وفعالة، والرب يعطيها للمجاهدين الذين يتطلّعون إليه بثبات ورجاء. وهكذا فإن المجاهدين في أوان غير متوقع، سيرون أعداءهم يتقهقرن كما كتب : (لقد توقف عسكر بابل عن الحرب) (ارميا 51:30).

## الفصل السابع

### في كيفية ترويض الذهن لوقايتها من الجهل

إن الثقة بالله و عدم الاتكال على النفس، هما قاعدة وطيدة لا يمكن تناسيها في الحرب الروحية. إلا أن هذه المقوله لا تكفي، فثمة أمور ينبغي القيام بها من أجل البناء الروحي. فالاكتفاء بالمقوله لا يكفي وحده للوصول إلى النصرة، فقد نسقط في شر كبير. من هنا يتوجب علينا القيام ببعض الرياضيات النافعة للذهن والارادة معاً. فالذهن يجب أن يصان من الجهل و الغباوة التي تضره. الجهل يعيق الذهن عن بلوغ معرفة الحق، أساس العمل الروحي و هدفه السامي. لهذا لا بد من ترويضه كي يستأهل البلوغ إلى القامة المطلوبة لتنقية النفس من أوجاعها، و تجميلها بالفضائل.

و ثمة سبلان يتمكن المرء بهما من بلوغ نقاوة الذهن:

الأولى والأهم هي الصلاة التي بها نضرع إلى الروح القدس فينسكب نوره الإلهي في أعماقنا، ولنا كل الثقة في ذلك إذا كان التضرع إلى الله بإخلاص، و كنا نتوق إلى تمثل ارادته في كل شيء و نخضع لإرشادات الخبراء الروحيين دون القيام بأي عمل خارج مشورتهم.

أما السبيل الثانية فتقوم على ترويض الذهن ليتمكن من اختبار كل شيء، والتدقيق فيه بقصد معرفته للتمييز بين الحسن و الرديء. فحكمنا لا يجوز أن يكون دنيوياً بل نابعاً من الروح القدس أو من كلمات الكتب الإلهية المهمة، أو كلمات الآباء القديسين والمعلمين في الكنيسة. وإذا كان اختبارنا هذا و معرفتنا صائبين، وفي لياقة، فمن شأنهما أن يخوّلنا أن نفهم بصفاء، انه يجب اعتبار أمور العالم الأعمى، عديمة القيمة، مزيفة وباطلة، و ان أمجاد العالم و ملذاته وغناه، ليست بشيء، و أنها كلها باطلة وتؤول إلى موت النفس، و ان الافتراءات و الوشايات التي بها يعادينا العالم و يضطهدنا، تأتينا بالمجد الحق، و إن الآم العالم هي لنا مداعاة فرح. و ان مسامحة خصومنا و أعدائنا ، و إثبات الخير لهم، لهي الشهامة الحقيقية، وهي من أعظم ميزات التشبه بالله (الصبرورة على مثاله). و ان من يحتقر العالم، لھو أقوى من يسود العالم و يحكمه، و ان الطاعة طوعاً، لهي شأن يبرز شجاعة الروح و قوته أكثر من الانتصار على ملوك جباررة و استعبادهم. و إن معرفة الذات المقربة بالتواضع، لهي أولى من كل ضعف المعرفة مهما سمت. و إن اخضاع الشر و الميول والشهوات مهما صغرتها، لهو شأن جدير بالثناء أكثر من احتجاز و محاصرة قلعة كثيرة، و غلبة جيوش جراره في كامل عدتها و تجهيزها. لا بل ان اخضاع الشر، هو شأن يفوق صنع العجائب و يضاهي اقامة الموتى.

## الفصل الثامن

### في بواعث التمييز الصحيح و في كيفية معرفته

السبب \_ في أحكامنا المغلوطة التي نطلقها على بعض الأمور، \_ قد سبق ذكره، و هو أننا لم ندقق فيها كي ندرك كنهها ونعرفه. فنحن سرعان ما ننزع نحوها او نمجّها، لمجرد النظر إليها، فنطلق حكمنا عليها بمقتضى الظاهر. ان هذه الانواع من الحب والكراهية تظلم نوسنا (ذهننا) وتجعله ينحاز في قضائه و حكمه، فلا يكون واقعياً صائباً. فإن رُمت يا اخي الانتعاك من هذا الهوى، فامسك أهواك جيداً، و لا تسمح لنفسك بمحبة شيء أو كرهه، بعد أول نظرة. إنما دقق محمّحاً كل شيء في نوسك فقط. و النوس غير المعاق من الأهواء، يبقى نقياً و حراً ، فيتمكن من ادراك الحق و اعلانه، وهكذا ينفذ إلى ماهية الأشياء. و ذلك، لأن الشر كثيراً ما يحتجب وراء ظواهر جذابة و خداعية، أما الخير فيريض خلف ما هو سيء، أحياناً . فمتي استبدت بك الأهواء، فسرعان ما يجعلك تحب شيئاً أو تمجّه، و هكذا يتغدر على نوسك ادراكه كما يليق. فإذا كان هو التحامل (الانحياز) سابقاً لكل تقدير، فإنه سيحول بين النوس و الشيء المعقول، فيكون القضاء نابعاً من الهوى. بكلام آخر، النوس سيعجز عن ادراك الشيء كما هو حقيقة، وهذا يقوّي التحامل الظلمة الكاملة، و الهوى يبلغ أقصى حد له، عندما يدرك المرء أن شيئاً ما هو أحب الأمور إلى قلبه، أو أكثرها مقتاً عنده. و التراخي مع عدم كبح جماح الهوى، على النحو المذكور، من شأنه أن يفسد الارادة والنوس معاً، فيأتي القضاء مغلوطاً، فيتجذر المرء في الخطيئة، منتقلًا من اسوداد إلى آخر، و من إثم إلى إثم.

لهذا راقب نفسك يا عزيزي بيقظة، واحم ذاتك من محبة الشيء أو مقته، بدافع الهوى، قبل أن تمّحصه في نور العقل و الكلمة الحق التي في الأسفار الإلهية، و في نور النعمة والصلة وبعون قضاء أبيك الروحي. و إلا فإنك ستضلّ إذ ترى الخير الحقيقي شرّاً، و الشر الحقيقي خيراً. و كثيراً ما يحدث هذا كما في بعض الحالات الصالحة و المقدسة في ذاتها، دون أن تؤتيها أحوال ملائمة، كأن تكون قد حصلت في أوان غير مناسب، أو مكان غير ملائم، أو أنها لم تحصل بالقياس المطلوب. وهكذا فهي تلحق ضرراً غير قليل في من قاموا بها. و نعرف من الخبرة مقدار الآلام التي تكبدها البعض بفعل أعمال نافعة و مقدسة كهذه.

## الفصل التاسع

### في حراسة النوس من المعرفة الكثيرة غير النافعة والفضول المجنون

كما إنه من الضروري حماية النوس من الجهل، هكذا ضروري أيضاً صونه من الضد، أي المعرفة الكثيرة والفضول. فشحن النوس بالمعلومات الكثيرة والآراء والأفكار الباطلة وغير المفيدة، \_ يؤول إلى تشتتته وبعزقة قواه، فلا يعود قادرًا أن يفهم ما النافع لتقويم الذات، و للكمال. لذا ينبغي أن تضبط نزعاتك و ميولك من جهة المعلومات المتصلة بالأمور الأرضية. دع أخبار الماضي والحاضر تمر، مع التبدلات في العالم و ممالكه. لتكن كلها بالنسبة إليك، في عداد غير الموجود. وإذا حدث و جاءك أحد بأخبار من هذا القبيل، فانبذها طارداً إياها من قلبك و خيالك. استمع إلى ما يقوله القديس باسيليوس : " ليكن الاستماع الى الأخبار الدنيوية بمثابة طعام مرّ عندك. و لتكن كلمات الرجال الأنقياء كشهيد العسل". استمع لما يقوله داود: " تكلم معى مخالفو الناموس كلام هذيان، لكن ليس كناموسك يارب" ( مزمور 118:85 ). احبب سماع الروحيات والسماويات فقط، ادرسها و تأمل فيها. لا ترغب في معرفة أي شيء دنيوي بل اطلب ربنا يسوع المسيح و إياه فقط مصلوباً ( كور 2:2 ) ، مع حياته، و موته، و كل ما يطلبه منك. و إذا عملت هكذا، فأنت ترضي الله الذي يجمع أحباءه و مختاريه الذين يحبونه و يجاهدون لعمل مشيئته.

إن كل تساؤل و استفسار آخر هو وليد عشق الذات و العجب، و طعامها. إنها شباك ابليس و مصائدہ عندما يرى قوة المتيقظين الساهرين على حياتهم الروحية، و ثبات ارادتهم، فيسعى إلى الحاق الهزيمة بносهم، عن طريق الفضول و حب الاستطلاع، و ذلك كي يسوده و يستحوذ على ارادتهم، لهذا الغرض، يوحى إليهم بالأفكار (*logismos*) السامية الغريبة و الخبيثة، لا سيما لأولئك اللامعين في ذكائهم، القادرين على استخلاص التأملات الرفيعة، و إذ ينجذب هؤلاء إلى متعة امتلاك و فحص مثل هذه الأفكار، فإنهم سرعان ما يهملون اليقظة على نقاوة قلوبهم، و النظر إلى ذاتهم بتواضع، و ينسون الإمامة الحقيقية، فيسقطون في حبائل و قيود الغطرسة و الغرور، فيجعلون ذاتهم صنماً، ما يليثون شيئاً فشيئاً، بفعل الغفلة، أن يسقطوا في فكرة عدم الحاجة إلى نصيحة الغير و إرشادهم ، فهم قد ألغوا و ارتاحوا، في كل حال، إلى الاحتکام إلى صنم علمهم و قضائهم.

إن هذا أمر بالغ الخطورة، و يعسر الشفاء منه. فعجرفة الارادة أخف وطأة و أقل شرًّا من غطرسة النوس و زهوه، و يمكن الشفاء من عجرفة الارادة بسهولة، عندما يدركها النوس، و ذلك بإرغامها على نير ما هو صالح و نافع. لكن إذا كان النوس متجرداً في الثقة بالذات، و مقتنعاً إن ما لديه خير مما عند سواه، فمن يشفيه في النهاية؟ هل يطبع، من

تَيْقَنْ أَنْ احْكَامَ الْغَيْرِ لَيْسَتْ كَاحْكَامِهِ؟ وَ حِينَمَا يَعْمِلُ النَّوْسُ ( عَيْنُ النَّفْسِ ) ، بِالْكَبْرِيَاءِ ، تَلْكَ الْعَيْنُ الَّتِي بِهَا يَرَى الْمَرءُ كَبْرِيَاءَ الْإِرَادَةِ فَيَقُولُ مَا فِي الدَّاخِلِ سَيَقْتَشُوْشُ ، إِذْ لَيْسَ هُنَاكَ مَكَانٌ أَوْ إِنْسَانٌ يَصْنَعُ الشَّفَاءَ .

فَلَا نَتَوَانِي فِي صَدِ كَبْرِيَاءِ النَّوْسِ قَبْلَ اِنْسَالِهِ إِلَّا مُخْيِّرُ عَظَامِكَ قَاوِمَهُ . أَكْبَحْ جَمَاحَ نُوسُكَ ، وَ أَخْضَعْ فَكْرَكَ إِلَى فَكْرِ الْغَيْرِ وَ رَأِيهِمْ . كَنْ جَاهِلًا ، مِنْ أَجْلِ مَحْبَةِ اللَّهِ ، إِنْ كُنْتَ تَرْغُبُ فِي أَنْ تَكُونَ أَحْكَمَ مِنْ سَلِيمَانَ : " إِنْ كَانَ أَحَدٌ يَظْنُ أَنَّهُ حَكِيمٌ بَيْنَكُمْ فِي هَذَا الدَّهْرِ ، فَلْيَصُرْ جَاهِلًا كَيْ يَصِيرَ حَكِيمًا " ( كُور١٨: ٣ ) .

## الفصل العاشر

في كيف ندرّب (نروّض) نواتنا كي يكون لها هدف واحد مطلق الا و هو ارضاء الله في الأمور الخارجية

### و الداخلية

بالإضافة الى ترويض نوسك كي يتعلم، عليك أيضاً أن تضبط ارادتك كي لا تجنب نحو رغباتك الذاتية، إنما ينبغي أن تقودها كي تكون مماثلة تماماً لإرادة الله. ضع في ذهنك جيداً انه لا يكفي أن ترغب و تنشد ارضاء الله على الدوام و في كل شيء، إنما أيضاً أن يكون الله هو الذي يحركها، لغرض واحد هو ارضاؤه، بقلب طاهر نقى. و لكي نروّض نواتنا على الثبات أمام هذا الهدف، ينبغي أن نتحمل جهاداً أعظم ضد طبيعتنا، أكثر من أي شيء ذكر. فطبيعتنا اعتادت أن ترضى ذاتها و تطلب راحتها و ملذتها في كل شؤونها، حتى في الأعمال الروحانية و الصالحة، فهي تغتنى بها على نحو شهوانى، في الخفاء، كما لو كانت طعاماً تقتات به. وهذا يحدث عندما نرى فرصة لعمل روحي منصب أمامنا، فنرغب للحال في أن ننجزه على عجل و باندفاع، لكن ليس كأناس تحركهم ارادة الله، و هدفهم الوحيد ارضاؤه، إنما من أجل التعزية و الفرح المتولدين فيينا عندما نرغب و نسعى إلى ما يريد الله منا. وهذا المرض هو الأكثر مكرراً و احتجاجاً، لأن الأسمى والأكثر روحانية، هو طبيعة الشيء الذي نرغب به، وهذا هو السبب، كما أسلفت، أننا لا نرغب مشيئة الله فقط، إنما ينبغي أن تكون رغبتنا هذه، على النحو الذي يشاء هو، ومتى يشاء هو، وللسبب و المقاصد التي يريدها هو.

و الرسول يعلمنا أيضاً أن نختبر ما هي مشيئة ، الله ليس من حيث صلاحها فقط، بل أيضاً من جهة ما إذا كانت مقبولة لديه، وكاملة من كل الجهات. فيقول : " لا تشكوا هذا الدهر، بل تغيروا عن شكلكم بتتجدي نوسكم فتخبروا ما هي ارادة الله الصالحة المرضية الكاملة" ( رو 2:12 ) . و هذا يؤول بنا إلى خلاصة مفادها ، انه حتى ولو كنا نرغب في الله نفسه و نطلبـه، فرغبتنا هذه يمكن أن تنطوي على خطأ و نقصـ. وربما يمتاز برغبتنا شيء من العجب بالذات و المجدـ الفارغـ فنحن عرضة للاهتمام بشأننا الخاصـ، أكثر من اهتمامـنا بمـجد الله و ارادـتهـ، فـنعمل حـباً بـذواتـنا لا بالـربـ . و الله لا يقبل من الأعمـالـ، إلا ما كان منها لمـجـدهـ، فهو يريدـنا أن نحبـهـ وحـدهـ و أن نـرغـبـ بهـ وحـدهـ و أن نـعملـ لهـ فقطـ.

لذا يا أخي إذا كنت ترغـبـ في أن تـحمـيـ نفسـكـ منـ المعـوقـاتـ الكـامـنةـ فيـ طـرـيقـ الـكـمالـ، وـ إـذـاـ كـنـتـ تـرغـبـ فيـ تـرسـيـخـ نفسـكـ علىـ هـذـاـ المـوقـفـ، فـتـرغـبـ وـ تـعـملـ بماـ يـرضـيـ اللهـ، فـاطـلـبـ أـولاًـ اـرـضاـءـهـ وـ تـمجـيـدـهـ وـ الـعـمـلـ لـهـ فـقـطـ، فـهـوـ يـريـدـ أنـ يـكـونـ الـبـداـيـةـ وـ النـهاـيـةـ فيـ كـلـ أـعـمـالـنـاـ وـ أـفـكـارـنـاـ، وـ اـسـلـكـ عـلـىـ النـحوـ التـالـيـ: عـنـدـمـاـ يـنـتـصـبـ أـمـامـكـ عـمـلـ مـرـضـيـ اللهـ، أوـ صـالـحـ فيـ

ذاته، لا تنزع إليه تواً، و لا تطلبه إلا بعد أن ترفع نوسك نحو الله كي تتبيّن إذا كانت رغبةً مرضية له و يريدهك أن تنجزها. و عندما تعد أفكارك على هذا النحو. وترى أن ميلك هو من مشيئته ، عندها ارغل بالعمل و تنفذها. و بنفس الطريقة، عندما تريد أن تبتعد عما هو غير منسجم مع ارادة الله، فلا يكن ابتعادك فوريًا، بل ثبت عين نوسك في مشيئه الله أولاً، و تأكد أنها ارادة الله تدعوك للايابع ، ارضاء له (الله). ان اندفاع الذات في طبيعتنا، دقيق جداً و قلة من الناس تميّزه. فهو يبلغ مأربه خفية، بينما ظاهرة يبدو متفقاً مع ارضاء الله، و في الواقع ليس هو هكذا. و كثيراً ما يحدث أننا في الواقع نريد أو لا نريد أمراً لمنفعتنا الذاتية، لشعبنا، إلا أننا نتوهم أننا نطلب لإرضاء الله و حسب. أن الوسيلة الوحيدة لتجنب خداع كهذا، هي نقاوة القلب. و قوام ذلك هو نبذ آدم العتيق و لبس الجديد. هذه هي الغاية من كل الحرب غير المنظورة.

و إذا رمت معرفة كيفية تحقيق ذلك، فاسمع: عندما تبدأ عمل شيء، ينبغي، قدر المستطاع، أن تحرر نفسك من كل الرغبات الذاتية ، فلا ترغب في فعل هذا، و تحاشي ذاك، حتى تدرك أن ما يحضرك عليهما، هو وعيك لمشيئه الله. إذا كنت لا تدرك بقوٍة توجيه الله لك في كل شؤونك ، سواء الخارجية، أو الأكثر أهمية، الداخلية المتعلقة بنفسك، فاقنع بجعل هذا الادراك ممكناً. بكلام آخر روض نفسك بإخلاص على ارضاء الله دون سواه.

و قد يكون فينا الشعور الحقيقي بأن الله يحرّكنا إلى العمل، إما عن طريق ومضات الهيبة، أو استنارة داخلية تكشف بها ارادة الله لقلوب نقية، في تأمل ، أو عبر الهمام الإلهي داخلي، أو بواسطة كلمة داخلية أو من خلال أعمال تتحققها النعمة الإلهية الفاعلة في القلب النقي: على سبيل المثال، الدفء المحبّي و الفرح الذي لا ينطق به، ارتکاض الروح، التحرك نحو الرقة و الحنو، مع عبرات من صميم القلب ، و محبة الله و مشاعر أخرى محببة له، وكلها لا تنتج وفق مشيئتنا الذاتية، بل تكون من الله، لا من عملنا بل من خصوتنا. وهذه المشاعر يمكنها أن تكون تأكيداً على أن ما نعمله مرضي الله، لكن يتوجب علينا بادئ ذي بدء، أن نرفع إلى الله أنقى و أحقر صلاة، متسللين إليه بإلحاح مرة، مرتين، و مرات كثيرة أن ينير ظلمتنا و يعلّمنا. صلّ ثلث مرات ، هذا ما يقوله العظيمان برصانوفيوس و يوحنا، و بعد ذلك أعمل بحسب ميل قلبك. علاوة على ذلك ، لا تنسى أن كل القرارات التي تشكلت فيك نتيجة للحركات الروحية الداخلية التي ذكرت، ينبغي أن تمحّص بمشرورة وقضاء أهل الخبرة. أما بالنسبة للنشاطات التي يتطلب انجازها وقتاً أكثر أو أقل، أو التي تدوم. فينبغي أن نوطّد في قلوبنا عزماً ثابتاً على ممارستها، ارضاء الله، ليس في البداية و حسب، بل علينا أن نحاسب أنفسنا بين الفينة والأخرى، فنمجده حتى النهاية، أما إذا أخفقت في هذا، فأنت في خطر الوقوع في عشق الذات

ال الطبيعي فينا، و الذي ينزع إلى ارضاء نفسه أكثر من ارضاء الله. و كثيراً ما ينجح، بفعل الوقت، في تحويلنا عن استعدادنا الأصلي للخير، و في تحويل أهدافنا الخيرة و نوايانا، لهذا كتب القديس غريغوريوس السينائي يقول: " حذار من نوايا ارادتك، و انتبه إلى أي سبيل تنزع، هل إلى الله ، أم إلى نفعك الذاتي و فائدتك، كونك تقيم في السكينة ، و تتلو المزامير و ترفع الصلاة أو تعمل الأعمال الصالحة الأخرى، لئلا تنهب دون علمك.

لذا فإن لم يراقب الإنسان نفسه جيداً، فقد يبدأ نشاطاً ما بغية ارضاء الرب، لكنه سرعان ما يدخل إليه شيئاً فشيئاً هما ذاتياً يجد فيه اشباعاً لرغباته، فتتصبح ارادة الله فيه أمراً منسياً بالكلية. و مع هذا، يبقى مشدوداً إلى لذة العمل. ولو أن الله نفسه منعه من هذا العمل، سواء عبر المرض أو التجارب من بشر أو شياطين، أو عبر طرق أخرى، فإنه يمتلك حنقاً، فيلوم هذا أو ذاك لتدخله في أمور يحبها هو. و كثيراً ما يتذمر ضد الله نفسه، و في هذا عالمة أكيدة أن نية قلبه لم تكن من الله، إنما بروزت من جذر فاسد منتمن متصل بعشق الذات.

إن من يسعى للقيام بهذا أو ذاك من الأعمال، بنقاوة ووعي لإرادة الله، و رغبة في ارضائه، فإنه لا يؤثر عملاً على آخر، حتى ولو كان الواحد عظيماً رفيعاً، و الآخر بسيطاً محتقرأ، بل تكون نيته متساوية نحو الأمرين معاً، كونهما مقبولين لدى الله، فسواء عمل شيئاً رفيعاً وعظيماً، أو بسيطاً ومحترقاً، فإنه يظل في الأمرين قنوعاً و هادئاً، فنصب عينيه نية واحدة وغاية واحدة، هي ارضاء الله على الدوام، في كل ما يعمل، في الحياة أو في الموت حسب قول الرسول (2 كور 5:9).

لذا راقب نفسك يا عزيزي. اجمع ذاتك، وجادل بما أتيت من قوة، كي توجه أعمالك شطر هذا الهدف الوحيد. و إن حرّضتك دوافعك الداخلية كي تتحاشى عذاب جهنم، أو كي ترث السماء، هنا ايضاً، وجه نشاطك داخلياً شطر الهدف الأسمى ذاته، و ذلك كي ترضي الله بالطاعة لمشيئته، فمشيئه الله هي أن تذهب إلى السماء، لا أن تُلقى في جهنم. لا أحد يمكنه أن يدرك بالكلية عظمة قوة حياتنا الروحية، و أعني ارضاء الله. لأن نشاطاً بسيطاً وغير مهم، إذا تم انجازه بهدف ارضاء الله و تمجيده، من شأنه أن يصبح في عيني الله، أكثر قيمة من أعمال عظيمة ومجيدة تقام بدون هذا الهدف. الله يسر كثيراً عندما يراك تعطى متسولاً قطعة نقدية صغيرة بهدف ارضاء سموه الإلهي، أكثر من تجرّدك من ممتلكاتك كلها، لهدف آخر، حتى ولو كان طمعاً في اقتبال البركات السماوية، رغم أن هذه البركات، صالحة و مرغوبة. إن هذا العمل الداخلي \_ الذي ينبغي أن تمارسه في كل ما تقوم به، و أغنى توجيه أفكارك و مشاعرك و أعمالك نحو ارضاء الله، \_ سيبدو صعباً في البداية، لكنه سرعان ما يصبح سهلاً و خفيفاً، ان أنت مارسته بانتظام وتجهد روحي.

ثانياً ان احتفظت بالحنين إلى الله ملتهباً، فتنهد بحنين قوي من القلب، من أجل الخير المطلق الجدير بالطلب، و طلبه لذاته، و خدمته ومحبته فوق كل الأشياء. و بمقدار بحثنا عن هذا الخير المطلق في الله، داخل عمق و عينا، و بمقدار ما يغوص هذا البحث في مشاعر القلب، تكون أعمال و أفعال ارادتنا حارة، كما ذكرت، وهكذا نستطيع أن نكون بسرعة و يسر، العادة، للقيام بأي شيء من خلال محبة السيد، مدفوعين برغبة (قوية) الى اراداته ، طالما أنه الأجدى من كل ما نحب.

## الفصل الحادي عشر

بعض الأفكار التي يمكن أن تدفع ارادتنا نحو الرغبة في ارضاء الله في كل عمل ونشاط

وكي تحرك ارادتك بسهولة أكثر نحو هذه الرغبة الوحيدة، في كل أمر، أعني كي ترضي الله وتعمل لمجده فقط، ذكر نفسك على الدوام أنه قد أغدق عليك هبات كثيرة في الماضي، وأنه اعلن لك حبه. فقد خلقك من العدم على صورته و مثاله، وجعل كل خليقته في خدمتك. لقد نجاك من عبوديتك للشر، فهو لم يرسل لك أحد ملائكته، بل ابنه الوحيد، ليفتديك، لا بثمن فاسد من ذهب أو فضة، بل بدمه و موته المهين الأكثر ألمًا. وبعد كل هذا، فهو يحميك في كل ساعة ولحظة، من أعدائك. و يحارب معك، في حروبك، بنعمته الإلهية. و في أسراره الظاهرة، يعد لك جسد و دم ابنه الحبيب طعاماً و حماية.

و كل هذا علامة على احسان الله العظيم و محبته لك. انه احسان عظيم إلى حد أنه غير مدرك، اذ كيف أن رب القوات العظيم يهب احسانات كهذه، لحقارتنا و عدم استحقاقنا. فاحكم من هذا، أي شرف و تكريس ينبغي أن نقدم لعظمته اليت لا تحد، فقد عمل كل هذا من أجلنا. فإن كنا نعجز عن تقديم الشكر و الشرف و المجد و الطاعة إلى ملوك أرضيين لقاء احساناتهم، فكم بالأحرى و بالأكثر ينبغي علينا نحن غير المستحقين، أن نقدم إلى عظمة رب القوات الذي يحبنا و يهبنا احسانات لا تحصى.

وفوق كل ما قيل، لا تنسي أن عظمة الله جديرة في ذاتها، بكل شرف، وعبادة، وخدمة من كل القلب، و مقبولة لديه.

## الفصل الثاني عشر

### في الرغبات الكثيرة و الشهوات التي في الإنسان و الحرب التي بينها

اعلم انه في الحرب (الروحية) هذه، هناك ارادتان تتتصارعان فينا: الأولى تنتمي إلى القسم العقلي من النفس، لهذا تسمى الارادة العاقلة، وهي الأسمى. والثانية تنتمي إلى القسم الحسي، فتعرف باسم الارادة الحسية، وهي الأدنى، وكثيراً ما يطلق عليها اسم : البهيمية، الجسدية، ارادة الأهواء. الارادة السامية (العاقة) لا تطلب سوى الخير. أما الأدنى ، غير العاقلة، فتطلب الشر فقط. وكل منهما يحدث على قدم و ساق من تلقاء ذاته. لا أحد منهما هو رغبة خيرة في حد ذاته، فيعتبر خيراً. ولا رغبة شريرة، فيعتبر شراً. فالتقويم يعتمد على ميل الارادة الحرة التي فينا. فعندما تنزع ارادتنا نحو رغبة صالحة، تكون لخيرنا و مصلحتنا. لكن عندما نميل إلى رغبة شريرة، تكون ارادتنا ضدنا. كلتا الرغبتان يتبعان أحدهما الآخر. وعندما يكون هناك رغبة شريرة، للحال تبرز ازاءها رغبة صالحة. و ارادتنا حرة أن تتبع أياً تشاء منهما. تكمن كل حربنا الروحية غير المنظورة. وهدفها أن لا تنزع نحو الرغبة الأدنى ، الجسدية، وارادة الأهواء، إنما أن تتبع الارادة العاقلة و الأسمى فقط . ارادة الله هي أن تتبع ما هو ناموس أساسى لوجودنا : " اتق الله واحفظ وصاياه، فهذا هو الانسان كله". (جامعة 12). كل من هاتين الرغبتيين يجتذب ارادتنا إلى ذاته، رغبة في اخضاعها. فأطفيء السفل (الأدنى) متوجهًا نحو الأسمى، فيكون الظفر من نصيبك. أما إذا أهملت الأسمى و اخترت الأدنى، فإنك ستتجد نفسك مهزوماً. و الرسول بولس يعبر عن هذا بقوله : "إذاً أجد الناموس لي حينما أرغب أن أ فعل الحسنى، أن الشر حاضر عندي، فإني أسر بناموس الله بحسب الإنسان الباطن و لكنى أرى ناموساً آخر في أعضائي يحارب ناموس ذهنى فيستبعدنى إلى ناموس الخطيئة الكائن في أعضائى" (رو 7:21-23). لقد أعطى الجميع قاعدة : " اسلكوا بالروح، فلا تكمّلوا شهوة الجسد" (غلاطية 5:16). إن هذا لا يتحقق بدون جهاد ضد الجسد. إن جهداً شاقاً و تعباً مضنياً لابد أن يختبره \_ بدأ ذي بدء \_ أولئك الذين عزموا على تغيير سيرتهم الجسدية الدنيوية إلى أخرى بارة، فأعدوا ذاتهم بالكامل إلى محبة الله و خدمته بإخلاص، فقد سبق أن قيدوا أنفسهم بعادات شريرة، لإرضاء رغباتهم الجسدية و ارادة الشهوات.

ورغم رغبتهم في اتباع متطلبات الارادة العاقلة، التي تقف باءاء ارادتهم الحرة يعززها الله، إلا أن الرغبات الجسدية و الارادة الشهوانية تقف بإزائهم و ما تزال تشدهم و تجتذبهم. و إذ تعاكس الرغبات اللاحقة، تلك السابقة، فإنها

تجذبها إلى جهتها بنفس القوة، كما يجذب اللجام حيواناً يجر حمولة. نعمة الله وحدها هي التي تزودها بالقوة لتبقى ثابتة على القرار الذي اتخذته. و بالمقاومة الطويلة، وعدم اعطاء الأهواء فرصة للفوز، تخور قوة الرغبات الجسدية. إلا أن هذا لا ينهي الجهاد.

فلا يحلم أحد باكتساب استعداد مسيحي حقيقي، أو بفضيلة أو بعمل الهي، كما يجب، إلا إذا أرغم نفسه على نبذ الدوافع الشهوانية في ارادة الجسد، و الفوز عليهما، كبيرة كانت أم صغيرة، و التي سبق أن ألف اشبعها و ارضأها، طوعاً و بلهفة. ان السبب الرئيس في أن أناساً قليلين يبلغون الكمال المسيحي التام، هو تردد سواد الناس، - اشفاقاً منهم على ذواتهم \_ في الزام أنفسهم على نكران الذات، بالمطلق ، في كل شيء. فإذا حدث أن غلبو الميل الشهوانية الكبرى، دون أن يرغبو في الزام نفوسهم على الانتصار في الصغرى، التي تبدو قليلة الأهمية، عندها، فالميل الصغيرة هذه، والتي هي ثمرة الكبرى و المعبّر عنها، فإنهم بالانغماس فيها، إنما يغدون اللاحقة، فيجعلونها تستمر و تعيش و تفعل في القلب، رغم أنها في الواقع لا تظهر على نطاق واسع. وهكذا يظل القلب شهوانياً وغير نقى، وفوق كل شيء، غير حر من جهة التساهل و الاشفاقي على الذات. و من شأن هذا أن يعطّل كل تقدم يبغى ارضاء الله.

ثمة أناس، على سبيل المثال، يمتنعون عن الاستيلاء على مقتنيات الآخرين، إلا أنهم متمسكون بإفراط بما لهم، و يثقون كثيراً بما عندهم، و من الناحية الثانية بطبيؤون في الصدقة و الإحسان. وهناك آخرون لا يبحثون عن الكرامة بطرق شريرة، إلا أنهم لا يعتبرونها كلا شيء، بل يرحبون بها إذا بدت (الكرامات) و كأنها ضد ارادتهم. آخرون يمارسون أصواتاً طويلة حسب الفروض، إلا أنهم لا يمتنعون عن ارضاء شهوة الأكل حتى الشبع (حتى الامتلاء)، فيأكلون جيداً، الأمر الذي يجرّد صومهم من كل قيمة. آخرون يحيون حياة العفة و الطهارة، إلا أنهم يستمرون في اتصالاتهم و علاقيتهم بمن يحبون، فيستمتعون بها غير راغبين أن يفهموا أنهم بهذا يقيمون حائلاً أمام الكمال في الحياة الروحية و الاتحاد بالله.

سأضيف إلى هذا، الحقيقة التالية، وهي أن بعض الناس يهملون النواقص الطبيعية التي في شخصيتهم، و التي رغم اعتمادها على مشيئتهم الذاتية، إلا أن من شأنها أن تجعل المرء يشعر بالذنب إذا أدرك مقدار تداخلها مع الحياة الروحية، فلا يحرك ساكناً، ليس فقط من أجل ابادتها بالكلية. إلا أنه لا يحاول أيضاً أن يبقيها ضمن حدودها التي لا تؤدي، رغم انه يستطيع بلوغ ذلك بمعونة الله، و حسب انتباهه إلى ذاته، و حماسته. مثال على هذه النواقص: الترفع (ال فهو) ، حدة الطبع، الحساسية المفرطة و ما يليها من كلمات وحركات و أفعال تخلو من التفكير. الخشونة،

و الجفاء، العناد و المشاكسة، و التشبث بالرأي، و سواها... فهذه النواقص الطبيعية و الأخطاء، ينبغي اصلاحها و تصحيحها. في البعض، بتخفيف الافراط، و في البعض الآخر، بزيادة ما نقص و قل، كي يتحول الامران معًا إلى صفات صالحة خيرًا. فليس ثمة صفة طبيعية \_ بصرف النظر عن مقدار وحشيتها و فظاظتها، و عنادها، يمكنها أن تصمد أمام الارادة المتسلحة بنعمة الله، و التي تقاوم بكل يقظة و اجتهاد.

ويحدث أن يتمم البعض أعمالاً صالحة، إلا أنها تبقى ناقصة، عرجاء، ممزوجة بالشهوات التي تسود في العالم هذا (16: 21). و أمثال هؤلاء لا يحرزون أي تقدم في طريق الخلاص. بل يدورون و يدورون حول نقطة واحدة، و كثيرون ما ينكفؤن ليسقطوا من جديد في خطاياهم السالفة. و هذا يظهر أن محبتهم للحياة الحقيقية، في المسيح، لم تكن من البداية من كل القلب، فلم يمتلئوا كفاية من الشعور بالامتنان لله، الذي سبق أن أنقذهم من بطش الشيطان و قوته. فلم يكونوا كاملين في عزيمتهم و قرارهم، للعمل له فقط، بغية ارضائه. و نتيجة لذلك، يبقى أمثال هؤلاء غير مدربين في الخير، عمياناً، يخفقون في معاينة الخطر المحدق بهم، كونهم يتوهرون أن موقعهم راسخ و أمن، و إن الضرر لا يتهددهم.

لهذا يا أخي و حبيبي في الرب، أتوسل إليك أن تحب التعب المضنى، و الأحمال الثقيلة التي سترافق هذه الحرب \_ الروحية \_ لا محالة، إذا كنت ترغب في النصرة. و حكمة سيراخ تقول : " لا تمقت الأعمال المتعبة" (سيراخ 7: 15)، ففي هذا يكمن كل شيء. فكلما ازداد حبك للعمل المتعب، و لهذه القيادة التي لا شفقة فيها على النفس، ازدادت نصرتك على نفسك، و على ما هو في نفسك، في مقاومة للخير الأسمى، سرعة و كمالاً. بهذا ستتملىء من كل فضيلة و من كل استعداد حسن، فبأيادي سلام الله ليحل عليك.

### الفصل الثالث عشر

في كيف تحارب ضد الارادة الحسية البهيمية، وفي الضروري من التدريب كي تكتسب الارادة خبرة في الفضائل في كل وقت تقع ارادتك الحرة تحت وطأة الارادة الحسية البهيمية، من جهة، وتحت ارادة الله التي ينطق بها الضمير، من جهة ثانية، فكل من الارادتين يبغي ضم ارادتنا إليه. وينبغي، ان كنت جاداً في الفوز بالخير، أن تستخدم طرقاً

المناسبة، من جهتك، كي تساعد مشيئة الله على فوزك بالنصرة، وكي تصل إلى مبتغاك ، عليك بالأمور التالية:

-1 عندما تشعر بضغط الأدنى، أعني الارادة الحسية الشهوانية، عليك تواً أن تبذل كل جهد لقاومه، فلا تسمح لإرادتك بالنزوع إلى الحسيات ولو قليلاً. اسحقها ، وقطعها ارباً ارباً. أبعدها عن نفسك بجهد متين و مكثف.

-2 ولبلوغ مأربك بنجاح و بأفضل نتيجة، عجل إلى اضرام نار اشمئاز من كل القلب، تجاه مثل هذه الضغوطات، كما لو أنها تجاه أعدائك الراغبين في نهب نفسك لتدميرها. اغضب عليهم.

-3 في الوقت نفسه، لا تنسى أن تحكم إلى ربنا يسوع المسيح معيناً في كل جهد. أسأله طالباً عونه و حمايته كي تقوى ارادتك، إذ بدونه لا يمكننا الفلاح في شيء.

-4 و إذا ما أجريت هذه الأمور الداخلية الثلاثة بجد و اخلاص، فإنها لن تتحقق في منحك النصرة على الضغوطات الشريرة. إلا أن هذا يعني إبعاد الأعداء عنك فقط. أما إذا رغبت في أن توجه لها ضربة في الصميم، فعجل حالاً، و قم بأمر يعاكس إيحاء الضغط الشه沃اني و إن أمكن، بادر إلى القيام بالأمر نفسه على الدوام، وهذه الأخيرة ستحررك في النهاية بالكامل، من معاودة الهجمات التي تعرفها في الخبرة. سوف أوضح ذلك بمثال. افترض أن أحداً أساء إليك في شيء، كبيراً كان صغيراً، فأثار ذلك في نفسك حالة من الضيق و التأثر، مقرونة بفكر يبحث على الرد بالمثل. انتبه لنفسك، و تيقن أن هذه الحركات كانت من أجل حثك على فعل الشر. عندها اتخذ موقف المحارب ، و اعمل بما يلي :

-1 أوقف هذه الحركات، ولا تدعها تنفذ إلى عمق أكبر. لا تسمح لإرادتك أن تماشيهما كما لو كانت حركات صائبة و صحيحة. وهذا يعني أن تقاومهما.

-2 إلا أنها تحت النظر، مستعدة لهجوم جديد، لذا ما عليك إلا أن تعلن غضبك عليها، كما لو كان ضد أعدائك، فتقى نفسك منها، حتى تتمكن أن تقول بإخلاص: "ابغضت الكذب و كرهته، أما شريعتك فأحبابت" (مزמור

119:163) أو "بغضاً كاماً أبغضتهم، صاروا لي أعداء" (مزמור 139:22). هذه ستكون صفة لهم، فيتراجعون، دون أن يتلاشوا. بعد هذا:

3- عجل إلى دعاء الرب : "اللهم بادر إلى معونتي يارب اسرع الى اغاثتي.." (مزמור 70:1-7) و لا تكف عن الدعاء هكذا، حتى يزول كل أثر للحركات الشريرة، و تستعيد نفسك سلامها.

4- بعد استعادة السلام، اصنع احساناً لمن اساء اليك، مظهراً محبتك له بكلمة ودودة، أو معروف يملئه الظرف، و ما إلى ذلك. فهذا يعني أنك تتبع نصيحة داود: "حد عن الشر و اصنع الخير" (مزמור 34:14). ان أعمالاً كهذه، من شأنها أن تقودك مباشرة إلى اكتساب الفضيلة بإزاء الحركات الشهوانية التي أزعجتك و ضايقتك، و اعتياد هذه الفضيلة، من شأنه أن يضر الشهوات في الصميم و يمحقها. جاهد كي ترافق هذه الأعمال بعزيمة داخلية من شأنها أن تجعل الضغوطات الشهوانية مستحيلة في المستقبل. وعلى سبيل المثال، اعتبر نفسك، كما ذكرت آنفاً، مستحضاً لكل اهانة، و رحب بكل نوع من المذمة و التعبيير. رحب بها و كن مستعداً لقبولها بفرح، على أنها الدواء الناجع في أحوال أخرى، جاهد كي توطّد في نفسك مشاعر و استعدادات مماثلة. ان هذا يعني طرد الهوى من قلبك، و استبداله بفضيلة مضادة له. هذه هي غاية الحرب الروحية غير المنظورة، سوف أقدم لك بياناً عاماً يلائم كل الظروف، وحسب ارشاد الآباء القديسين: في نقوسنا ثلاثة قوى : العاقلة، الشهوانية، الغضبية. و بداعي مرضها و فسادها (1)، تولد أنواع مماثلة من الأفكار الخاطئة و الحركات الرديئة. القوى العاقلة تولد افكار نكران الجميل لله، مع تألف وشكوى و نسيان الله، و جهل للأمور الإلهية، و أحكام مريضة و كل أنواع أفكار التجديف. أما القوى الشهوانية فتولد أفكاراً محبة للذلة، و أفكار المجد الفارغ، و حب المال، و كل متفرعاتها الكبيرة التي تندرج في نطاق التساهل مع الذات. أما القوى الشهوانية فتولد أفكار الغضب، الكراهية، الحسد، الانتقام، الفاظنة، و خنوء الإرادة، وعلى العموم كل الأفكار الشريرة. عليك أن تهزم كل هذه الأفكار (*logismos*) و الضغوطات، بالطرق السابق ذكرها، فتجاهد في كل ظرف، كي توطّد في قلبك مشاعر حسنة و استعدادات تعاكس إيحاء الأفكار. ببدل الشك، إيمان بأنه لا ريبة فيه.

بدل التألف، شكر خالص الله على كل شيء، بدل النسيان، تذكر عميق و دائم الله الكلي القدرة و الحاضر في كل آن. بدل الجهل، تأمل جلي أو فحص داخلي لكل الحقائق المسيحية المنقذة للنفس. بدل الأحكام المريضة، ملكات و قدرات مدربة على التمييز بين الخير و الشر. بدل أفكار التجديف، تمجيد و تسبيح الله. و في السياق ذاته، ببدل محبة اللذة، كل أشكال التعفف و الصوم و تهذيب الذات. بدل المجد الفارغ، التواضع و الرغبة في الاحتياج

والتحفّي (obscurity). بدل محبة المال، الرضى بالقليل، و محبة الفقر (متى 5:3). و أيضاً، بدل الغضب، الوداعة . بدل الكراهة، المحبة. بدل الحسد، الفرح مع الآخرين. بدل الانتقام، المسامحة و المسالمة. بدل الرعونة، الرأفة، وبدل الارادة المريضة، الرغبة المدودة، باختصار، سألخّص كل هذا، مع القديس مكسيموس المعترف في الكلام التالي: زين قوتك العاقلة (تفكيرك) بيقظة دائمة بالله، بالصلة ومعرفة الحقائق الإلهية والقوة الشهوانية، بنكران تام للذات، مع الإلقاء عن كل تساهل مع النفس. أما القوة الغضبية، فبالمحبة. و إن فعلت هذا، فأنا أؤكد لك، إن نور ذهنك لن يخبو، و لن تجد الأفكار الشريرة سبيلاً إلى نفسك و قلبك، و إذا كنت جاداً في غرس الأفكار الصالحة، الاستعدادات الحسنة في قلبك، صباحاً و مساء وفي كل ساعات اليوم الأخرى، فلن تدنو منك الأعداء غير المنظورة ، لأنك ستكون كضابط كبير (جنرال) يعد جنده على الدوام، و يستكمل جهوزيتهم للمعركة، و الأعداء تعرف أن هجوماً على ضابط كهذا، هو أمر غير عملي.

ركّز انتباحك على النقطة الأخيرة، أعني الأعمال التي تعاكس تلك التي تملّيها الأفكار الشهوانية، و تهيئه المشاعر و الاستعدادات المضادة للأهواء. بهذه الطريقة فقط، يمكنك أن تستأصل الأهواء من نفسك، لتبلغ وضعًا أكثر اماناً. وما دامت جذور الأهواء فيك، فإنها ستنمو لتبلغ وضعًا أكثر اماناً، وما دامت جذور الأهواء فيك، فإنها ستنمو و تتکاثر، و هكذا تحجب وجه الفضائل، و كثيراً ما تخفيها و تقصيها . في حالات كهذه، نكون في خطر الواقع، في خطايانا السالفة من جديد، فنختلف كل ثمار أتعابنا.

لذا، فاعلم ان هذه الأخيرة يجب ممارستها، لا مرة واحدة فقط، بل مراراً، وعلى الدوام، إلى أن تسحق و تختلف العادة الشهوانية التي جهادك ضدها. فهذه العادة قد قويت على قلبك عبر تكرر بعض الأعمال التي ترضي الهوى الساكن في القلب. و معارضة هذا الهوى في القلب، لا تكفي، لإضعاف قوته و سحقها، إنما يجب أن تحتكم إلى أفعال معاكسة لتلك السابقة، تكون ضد الهوى، كي تسحقه و تحطمها، الاحتكام الدائم سيقصي العادة الشهوانية، ويقتل الهوى الذي يحرّضها، فيغرس في القلب فضيلة مضادة له، وعادة تقوم على أمور مماثلة. علاوة على ذلك ، \_ ولن أهدر الكثير من الكلام في هذا \_ فالأمر جلي ، إلا أن اكتساب عادات حميدة حسنة، يستوجب القيام بعدد أكبر من الأفعال الصحيحة الحسنة، يفوق عدد الأفعال الشريرة المطلوبة لإحلال عادات رديئة. فالعادات الرديئة تتتجذر بسهولة أكبر، بفعل مساندة الخطيئة الساكنة فيها، و أعني التساهل مع النفس، لذا فإن بدت لك أعمال بهذه قاسية و صعبة، من جهة معاكسة أهوائك، فإرادتك من أجل الخير ما تزال ضعيفة، بفعل مقاومة ارادتك المريضة الشهوانية، إلا أنه

يتوجب عليك ألا تهملها و تقلع عنها، بل أن تلزم ذاتك بكل الطرق، لمارستها على الدوام، مهما بدت لك ناقصة في البداية. وهذا من شأنه أن يدعم ثباتك و شجاعتك في القتال، فيمهد السبيل إلى الغلبة.

سأضيف شيئاً آخر: تيقّظ و اجمع انتباهك داخل ذاتك. حارب بشجاعة. حارب ليس فقط فعل المثيرات القوية و الكبيرة، بل الضعف و الصغيرة التي من أهوائك. فالأمور الصغيرة تمهد السبيل إلى الكبيرة، لا سيما عندما تصبح عادة. و الخبرة أثبتت، مرات كثيرة، أنه عندما يتلاعس الإنسان أمام الرغبات الشهوانية الصغيرة في القلب، \_ بعد أن يكون قد غالب الكبيرة \_ فإنه يتعرض لهجمات مفاجئة غير متوقعة، من العدو، تكون عنيفة للغاية، لدرجة أنه لا يستطيع الثبات في المعركة، فيكون سقوطه أشد ايلاماً من ذي قبل. إضافة إلى ذلك، أود أن أذكرك أنه عليك أن تقطع و تقتل كل صلة شهوانية بالأشياء غير الضرورية، لمجرد أن تلاحظ أنها تضعف من قوة ارادتك نحو الخير، و تشتبّط انتباهك و تشيع الاضطراب في الترتيب الحسن الذي أرسى دعائمه في حياتك، رغم أنها أشياء مسموح بها. و إليك المثال على ذلك : التجول (النزعات) الحفلات الليلية، المحادثات، المخالفات، والمعارف الجديدة (acquaintances)، وجبات الطعام، النوم، وأمور أخرى مماثلة، فإنك ستتجني نفعاً كبيراً من هذا، بترويض ذاتك على ضبط النفس في الأمور الأخرى أيضاً. ستتصبح أكثر قوة و خبرة في الجهاد ضد التجارب، فتتحاشى فخاخاً كثيرة ينصبها لك الشرير، فهو يعرف كيف يبسطها في هذه الدروب السليمة. و أؤكد لك بأن أعمالك و أفعالك ستثال حظوة عند رب.

لذا، يا عزيزي، إذا رغبت في أن تتبع نصيحتي و تأخذ على عاتقك مهاماً مقدسة كهذه، بكل يقظة و انتباه، فثق أنك في مدة قصيرة ستبلغ مرامك، فتصبح روحاً حقيقة و فعلًا، بدل أن تكون مخدوعاً فتكون روحاً في الاسم فقط. و أعلم أن معاكستك لنفسك، و ضبطها، هو ناموس لا يتبدل، و يتطلب عدم ارضاي الذات حتى في شؤون الحياة الروحية، لأن مثل هذا الارضاe \_ حتى ولو بدا جزءاً من الترتيب الروحي \_ سرعان ما يتلف عملك، فأنت تعمل، إلا أنك بدل أن تقطف ثمرة حقيقة، ستتجني زهرة عقيمة، ولن تكون راسخاً ثابتاً في أي شأن روحي. سيبدو لك أنك تجني أمراً روحاً، لكنه ليس في الواقع هكذا. فالأشياء الروحية بحقِّها، هي من نعمة الروح القدس التي تنسلب فقط على الذين صلبوا أنفسهم بالآلام و الحرمانات الطوعية، دونما شفقة على الذات، فاتّحدوا بربنا و مخلصنا المصلوب من أجلهم.

## الفصل الرابع عشر

### ماذا تفعل ان أظهر العدو أن الارادة السامية خاضعة بالكلية لإرادة الأدنى

إذا أحسست أحياناً بمثل هذه الانفاضة القوية من الخطيئة، لدرجة أن مقاومتها تبدو مستحيلة، والحماس الذي به تعاكسها، قد بدا واهناً. فاحذر يا أخي في أن تكف عن الجهاد. إنما انهض واثبت. فهذا من حيل العدو الذي يوهنك أن المقاومة لا تجدي، فيزعزع بذلك ثباتك، ويحثك على رمي سلاحك فترضخ له و تستسلم. أما أنت فدع ذهنك يرى حيلة العدو بوضوح. لا تعطيه ذريعة . لأنه طالما أن ارادتك لم تنزع نحو هذا المحرّض الشهوانى، فأنت ما تزال في عداد المنتصرين الذين يحاربون العدو و يسحقونه، حتى ولو كانت عاطفتك تميل إلى جهة الهوى. لا شيء، ولا أحد ، يمكنه أن يرغم ارادتك، أو ينزع الظفر من بين يديك فيقودك ضد ارادتك، مهما كان ذلك عنيداً و مريراً، و مهما كانت الحرب التي يشنها عليك أعداء خلاصك ، فالله قد زود ارادتنا الحرة بقوة (كهذه) مكينة، حتى انه لو قامت كل ملكات الإنسان و العالم و الشياطين ضدها، و هاجمتها، فإنها لا تقوى على إلزامها بشيء. فالإرادة حرة على الدوام في أن تقبل ما يقدمه هؤلاء و يطلبونه منها، أو أن ترفضه، إذا كانت لا ترغب به. من الناحية الثانية، ولهذا السبب عينه، تحمل ارادة الإنسان مسؤولية كل شيء، و ستقف كي تدان. تذكر هذا جيداً: لا عذر لك \_ مهما شعرت أنك ضعيف و مرهق \_ لدى نزوعك نحو الفكر الشهوانى . ضميرك سيسمعك الأمر نفسه. فكلما قويت الهجمات، كلما وجب عليك أن تُعد مقاومة أقوى. لا تهمل هذه العزيمة، بل ردّ على الدوام كلمات أحد قادة حربينا: "اسهروا، اثبتوا... كونوا رجالاً، تقووا..." (كور 16:13) و إذ تحافظ على صلابة ارادتك أمام نهوض الخطيئة، فتنزع إلى جهة الارادة السامية، عجل إلى استخدام أسلحتك الروحية، الواحد تلو الآخر، و أقواها الصلاة. اجعلها بمثابة نفسك قائلاً: "الرب نوري و خلاصي ممن أخاف. الرب حصن حياتي ممن أجزع. إن قام على جيش لا يرجع قلبي. إن قامت على حروب، فني ذلك أنا مطمئن" (مزמור 1:27-3). "أنا على قوسي لا أتكل، وسيفي لا يخلصني. بالله فخرنا طول النهار، و اسمه نحمد إلى الدهر" (مزמור 44:6-8). لا تخافوا ولا ترهبوا، قدسوا رب الجنود، فهو خوفكم و رهبتكم و يكون مقدساً..." (أشعيا 8:10، 9:12-14). و عندما تنتعش نفسك، افعل كما يفعل المحارب في الحرب الطبيعية عندما تهاجمه الأعداء: انه يتراجع بعض الشيء، و ذلك ليجد موقعاً أفضل يتمكن منه أن يرى بوضوح الشكل الأفضل لتسديد سهامه إلى قلب العدو. وأنت أيضاً اجمع أفكارك في الداخل، و استرجع شعورك بأنك عدم، وعجزك عن القيام بمفردك، بما يتطلبه الظرف الراهن. تصرّع إلى الله الذي كل شيء ممكن و مستطاع لديه، داعياً إياه إلى العون ضد هجوم الأهواء بدفء و ثقة و

دموع، قائلًا: "قم عوناً لنا، وافدنا من أجل رحمتك" (مزמור ٤٤: ٢٦) قاتل (يا يسوع) الذين يقاتلونني استل ترساً ومجناً وبادر إلى معونتي... ليخجل ويحزى الذين يطلبون نفسي، ليحز إلى الوراء المقاولون علي بالسوء" (مزמור ٣٥: ١-٤). "أيتها العذراء القديسة، اسبلي علي ظللك السريع المعونة" . يا ملاكي الحارس، احفظني بستر أجنحتك أمام سهام العدو، و بسيفك اسحقهم و أبعدهم عنِّي. واظب على هذه التضرعات، فيأتيك العون على عجل. وفي الوقت نفسه تيقظ في نفسك. أن العدو يدرك قوة مثل هذه التضرعات إلى الله، فيسرع إلى تشويشها واتلافها (افسادها)، بإثارة التألف غير المعقول، و العديم النفع، ضد الله الذي سمح للعدو بمثل هذه الهجمات، وجعلك عرضة لخطر السقوط. بهذه الطريقة يسعى العدو إلى منعك، أو الحيلولة دون ابتهالك إلى الله و ذلك ليجعلك غير جدير بمعونة الله، عندما تلاحظ مثل هذا الإيحاء غير الإلهي، بادر إلى استرجاع اليقين الصادق والحق أن الله لا يجرّب بالشروع، وهو نفسه لا يجرّب أحداً، إلا أن الإنسان يجرّب إذا انجذب و انخدع من شهوته (يعقوب ١: ١٣-١٤). بعدها افحص بتدقيق، أفعالك السالفة، و مشاعرك ، و أفكارك، فتجد أنها هي التي كانت السبب وراء تلك العاصفة الداخلية التي جعلتك في هذا الموضع الخطر. لقد افترى العدو ضد الله بستر نواصلك، أما أنت، فبالإيمان ينبغي أن تسلم ببر الله. وبالتعقل، ألق عنك الستر الذي غطاك العدو به. عليك أن تلقي الملامة على نفسك، بداعي عدم يقظتك وترáchيك. تب معترفاً بخطيئتك الداخلية أمام الله، وعد من جديد إلى التضرعات التي ذكرت، فمن شأنها أن تعيد إليك معونة الله. والله مستعد على الدوام، إلى اعانتك و مؤازرتك، لا سيما في مثل هذه الظروف.

بعد هذا، وعندما تهدا العاصفة الداخلية، ينبغي أن يستمرّ الجهاد بمقتضى القواعد العامة في الحرب الروحية (غير المنظورة)، والتي سبق ذكرها في موضع آخر.

## الفصل الخامس عشر

### ينبغي ان تستمر الحرب بلا انقطاع و بشجاعة

إن اردت يا أخي ان تفوز بنصرة سريعة و سهلة على اعدائك، بادر الى شن حرب دائمة و شجاعة ضد كل الاهواء، لا سيما ضد عشق الذات او التعلق الأحمق للمجنون بنفسك، والذي يتضخم بالتساهل مع النفس والاشفاق عليها، فهذا هي اساس ونبع كل الاهواء، و يستحيل ترويضها بدون آلام طوعية دائمة، و بدون ترحيب بالنواب و الحرمانات و الافتراضات والاضطهادات الآتية من العالم، و من أهل العالم. فالإشفاق على الذات، كان دائماً السبب وراء اخفاقنا في تحقيق الانتصارات الروحية، وراء صعوبتها، و ندرتها، و نقصانها، وزعزعتها. لذا ينبغي ان تكون حربنا الروحية ثابتة، و بدون توقف. و ينبغي ان تقترن بيقظة في النفس، مع شجاعة. و بلوغ هذه ممكناً بسهولة، ان انت طلبتها من الله كهبات. لذلك، تقدم الى المعركة بدون تردد. و اذا صادفتك افكار الكراهيّة والخبث المزعجة التي يعدها الاعداء ضدك، و اجناد الشياطين التي لا تحصى، فكر من الناحية الثانية، بقدرة الله التي هي أعظم منها بما لا يقاس، و أيضاً بمحبته له. كذلك فكر بصلوات القديسين، فهو لا يحاربون سراً عنا و معنا ضد اعدائنا، كما هو مكتوب : "للرب حرب مع عماليق من جيل الى جيل" (خروج 17:16). كم من نساء ضعيفات، و اطفال صغار تأهبا للجهاد حينما فكروا بهذه المعونة القوية والحاضرة دائماً، فتشدّدوا وغلبوا كل حكمة العالم، و كل حيل العدو وكل مكر الجحيم. لا تجزع ان كان طغيان الافكار يضايقك و يوحّي اليك بأن العدو قوي جداً، و ان هجماته لا حدود لها، و ان الحرب تطول بطول زمن حياتك، و انك لا تقدر ان تتجنب السقطات الدائمة من كل نوع. اعلم ان اعداءنا و كل حيلهم، هي في يدي رئيسنا الالهي ربنا يسوع المسيح الذي تحارب انت من اجل مجده و عظمته. هو نفسه يقودك الى المعركة. و بالتأكيد لن يسمح لأعدائك باستخدام العنف ضدك و غلبتك، الا اذا كنت الى جانبهم بمحض ارادتك. هو نفسه سيقاتل عنك و يدفع اعدائك بين يديك متى شاء، و كيفما شاء كما هو مكتوب: " لأنّ الربّ الـهـيـك يـسـير وـسـطـ المـحـلـة كـيـ يـنـقـذـك وـ يـدـفعـ اـعـدـاءـكـ، وـ يـؤـجـلـ ذـلـكـ إـلـى آخرـ يـوـمـ منـ حـيـاتـكـ. فـتـقـ اـنـ هـذـاـ لـخـيـرـكـ وـ مـنـفـعـكـ ماـ دـمـتـ لـمـ تـنـتـرـاجـعـ اوـ تـكـفـ عـنـ الجـهـادـ منـ كـلـ قـلـبـكـ. حتىـ وـ لـوـ جـرـحـتـ فـيـ المـعـرـكـةـ، لـاـ تـلـقـ سـلاـحـكـ وـ تـهـرـبـ. اـجـعـلـ فـيـ ذـهـنـكـ اـمـرـاـ وـاحـدـاـ هـوـ اـنـ تـجـاهـدـ كـلـ قـلـبـكـ.

بكل غيرة و شجاعة، فلا مفر من ذلك. لا يستطيع احد ان يفلت من هذه الحرب، سواء في الحياة ام في الموت. و من لا يجاهد كي يغلب اهواه و اعداءه، سيسقط اسيراً لا محالة، سواء هنا ام هناك، و يسلم للموت.

و من النافع ايضاً ان تجعل في ذهنك مقاصد الله التي من اجلها يُسر ان تكون في حالة الحرب. و مقاصده هي التالي: في الايام الغابرة عندما قاد الله اسرائيل الى ارض الميعاد، لم يأمرهم بإفناه كل الشعوب الساكنة فيها، انما ترك خمس قبائل اجنبية معادية لإسرائيل، و ذلك كي يبرهن الشعب المختار عن ثباته في اليمان به ، و حفظ وصاياه. ثانياً ، كي يعلم شعبه فن القتال (قضاة 2 : 21-23) ، (3: 2). بنفس الطريقة، فان الله لا يسحق كل اهواننا دفعة واحدة، بل يتركها فيما تحاربنا حتى موتنا، و ذلك كي نبرهن عن محبتنا له و طاعتنا لمشيئته، و لكي يدرّبنا على الحرب الروحية. و ثيودوريتس المغبوط، يعالج هذا الأمر بالتفصيل فيقول : الله يسمح بذلك للمقاصد التالية:

- 1 كي يقينا من السقوط في الكسل و التوانى، و يجعلنا يقطين و مجتهدين و صحة.
- 2 كي يذكّرنا ان العدو مستعد على الدوام ان يهاجمنا لئلا نجد انفسنا على غير توقيع محاطين بالعدو و مغلوبين من الاهواء.
- 3 كي نسعى الى الله على الدوام، راجين معونته.
- 4 كي لا نتكبر بل نفكّر في ذاتنا باتضاع.
- 5 كي نتعلم ان نمكت اهواننا و اعداءنا \_ الذين يهاجموننا بلا هواة\_ من كل القلب.
- 6 كي نبرهن عن تمسّكنا بمجد الله و محبته والایمان به الى النهاية.
- 7 كي يحثّنا على حفظ ادق لوصايا الله، فلا نهمل اصغرها.
- 8 كي نتعلم بالخبرة قيمة الفضيلة العظيمة، فلا نحيد عنها ونقع في الخطيئة.
- 9 كي تعطينا الحرب الدائمة امكانية الفوز باقليل اعظم.
- 10 كي نمجد الله و نخجل الشرير بصرنا الى النهاية.
- 11 كي نعتاد الحرب ونألفها في حياتنا، فلا نجزع ساعة الاحتضار، حينما نواجه اشد الهجمات قساوة.  
وما دمنا محاصرين على الدوام بأعداد كبيرة من الاعداء، كراهيتهم لنا شديدة المراة، فلا يمكن ان نتوقع منهم اية مسالمة او تأجيل او وقف للهجمات، بل ينبغي ان تكون على اهبة الاستعداد في كل آن، حتى انها متى حلّت بنا، نصدّها على الفور، بشجاعة. و من الافضل طبعاً، ان لا نفتح على انفسنا منافذ ينسّل منها الاعداء و الاهواء الى قلوبنا ونفوسنا. لكن طالما سبق ان وجدت سبيلاها اليها، فلا يسعنا ان نترافق، بل يجب ان نتسلّح ضدها كي نطردّها. انها عنيفة ولا تخجل، و لا تدعنا، الا اذا طردناها بالقوة.

## الفصل السادس عشر

### في كيف يستعد جندي المسيح للمعركة في الصباح

ما أن تستيقظ في الصباح، بادر إلى الصلاة لبرهة قائلاً: " ايهـا الـرب يسـوع المـسيـح اـرـحـمـيـ". بعـدهـا ليـكـ عـملـكـ الأولـ انـ تـغلـقـ علىـ نفسـكـ دـاخـلـ قـلـبـكـ، كـماـ لوـ انـكـ تـتـخـذـ مـوـقـعاـ لـلـقـتـالـ فيـ حـلـبـةـ. وـبـعـدـ انـ تـحـضـنـ نفسـكـ هـنـاكـ، اـجـعـلـهـاـ تعـيـ وـتـحـسـ، انـ عـدوـكـ، وـالـرـغـبـةـ الشـهـوـانـيـةـ التـيـ جـهـادـكـ ضـدـهاـ، فيـ تـلـكـ اللـحظـةـ، هيـ هـنـاكـ، عنـ يـسـارـكـ، مـتـحـفـزـ لـهـجـومـ فـورـيـ مـبـاغـتـ. لـذـاـ انـهـضـ فيـ وجـهـهاـ بـعـزـمـ ثـابـتـ، كـيـ تـهـزـمـهاـ اوـ تـمـوتـ، لـكـنـ لاـ تـسـتـسـلـمـ. وـتـيـقـنـ ايـضاـ انـ هـنـاكـ، عنـ يـمـينـكـ، يـقـفـ عـلـىـ نـحـوـ غـيرـ مـرـئـيـ، رـئـيـسـكـ، رـبـناـ يـسـوعـ المـسـيـحـ، مـعـ اـمـهـ الـقـدـيسـةـ، وـرـهـطـ منـ الـمـلـائـكـةـ الـقـدـيسـيـنـ وـرـئـيـسـهـمـ مـيـخـائـيلـ مـتـأـهـيـنـ لـعـونـتـكـ، لـذـاـ تـشـجـعـ وـابـتـهـجـ.

انـظـرـ، هـاـ اـمـيـرـ الـعـالـمـ السـفـلـيـ \_ الشـيـطـانـ \_ يـنـهـضـ ضـدـكـ معـ مـجـمـوعـةـ منـ الشـيـاطـيـنـ. وـقدـ شـرـعـ باـضـرـامـ نـارـ الغـواـيةـ الشـهـوـانـيـةـ. وـيـحـاـولـ انـ يـقـنـعـكـ بـوـعـودـ مـخـلـفـةـ كـيـ تـشـفـقـ عـلـىـ نفسـكـ، فـتـكـفـ عـنـ الجـهـادـ ضـدـ ذـلـكـ الـهـوـيـ وـتـرـضـخـ لـهـ، مـؤـكـداـ لـكـ انـ الرـضـوخـ وـالـاذـعـانـ، هوـ اـفـضـلـ، وـاقـلـ اـزـعـاجـاـ. اـمـاـ اـنـتـ فـحـازـرـ وـكـنـ يـقـظـاـ. وـفـيـ نـفـسـ الـوقـتـ، يـنـبـغـيـ انـ تـحـسـنـ الـاصـغـاءـ الىـ جـهـةـ الـيـمـينـ، حـيـثـ مـلـاـكـ الـحـارـسـ يـقـفـ مـنـذـراـ اـيـاـكـ يـلـهـمـكـ بـصـوـتـهـ، مـتـكـلـماـ بـالـنيـابةـ عنـ كـلـ مـنـ يـقـفـ عنـ يـمـينـكـ وـقـائـلاـ: " اـنـتـ الـآنـ فيـ مـوـاجـهـةـ معـ مـعـرـكـةـ هيـ ضـدـ اـهـوـائـكـ وـكـلـ اـعـدـائـكـ الـآخـرـينـ، فـلـاـ تـجـزـعـ وـلـاـ تـخـفـ. لـاـ تـجـعـلـ الـهـلـعـ سـبـبـاـ لـلـهـرـبـ منـ مـيـدانـ القـتـالـ. فـرـئـيـسـنـاـ، رـبـناـ يـسـوعـ المـسـيـحـ، قـرـيبـ مـنـكـ تـحـيـطـ بـهـ القـوـاتـ وـالـرـؤـسـاءـ وـكـلـ الـجـنـودـ غـيرـ المـتـجـسـدـ وـكـلـ طـغـمـةـ الـمـلـائـكـةـ الـقـدـيسـيـنـ، مـتـأـهـيـنـ جـمـيـعاـ لـلـقـتـالـ اـلـىـ جـانـبـكـ ضـدـ اـعـدـائـكـ، كـيـ لـاـ تـنـهـزـ كـمـاـ هـوـ الـوـعـدـ : " الـرـبـ سـيـحـارـبـ عـنـكـ" (خرـوجـ 14:14) فـاثـبـتـ اـذـنـ، وـأـلـزـمـ نفسـكـ بـعـدـ الـاستـسـلـامـ. جـاهـدـ بـكـلـ الـوـسـائـلـ الـمـكـنـةـ كـيـ تـصـمـدـ اـمـامـ الـاـمـتـحـانـ الذـيـ يـدـاهـمـكـ ، دـاعـيـاـ مـنـ اـعـمـاـقـ قـلـبـكـ: " لـاـ تـسـلـمـنـيـ اـلـىـ مـشـيـثـةـ اـعـدـائـيـ" (مزـمـورـ 27:12). تـضـرـعـ اـلـيـكـ رـبـكـ وـالـىـ العـذـرـاءـ الـقـدـيسـةـ وـكـلـ الـمـلـائـكـةـ وـالـقـدـيسـيـنـ. العـونـ سـيـأـتـيـ وـأـنـتـ سـتـنـتـصـرـ، لـأـنـهـ مـكـتـوبـ: " اـكـتـبـ اـلـيـكـ اـيـهـاـ الـاحـدـاثـ (الـجـنـودـ الشـجـعـانـ الـبـوـاسـلـ) فـقـدـ غـلـبـتـمـ الشـرـيرـ" (يوـ 2:3). وـقـدـ تـكـوـنـ ضـعـيفـاـ وـاسـيـرـاـ لـعـادـاتـ سـيـئةـ، بـيـنـماـ اـعـدـائـكـ اـقـوـيـاءـ وـكـثـيـرـونـ الاـنـ مـعـونـتـكـ اـقـوـيـ، وـتـأـتـيـ منـ ذـاكـ الذـيـ اـبـدـعـكـ وـافـتـدـاكـ. اللهـ حـامـيـكـ وـلـاـ شـيـءـ يـضـارـعـهـ فيـ القـتـالـ، فـقـدـ كـتـبـ: " الـرـبـ الـقـدـيرـ الـجـبارـ، الـرـبـ الـقـوـيـ فـيـ القـتـالـ" (مزـمـورـ 24:8). عـلـوةـ عـلـىـ هـذـاـ، فـرـغـبـتـهـ فـيـ اـنـقـاذـكـ تـفـوقـ رـغـبـةـ اـعـدـائـكـ فـيـ هـلـاـكـ. لـذـاـ جـاهـدـ دـوـنـمـاـ كـلـ، فـيـ مشـقـاتـ هـذـهـ الـحـربـ، فـالـنـصـرـةـ تـأـتـيـ بـهـذـهـ المشـقـاتـ، وـبـفـعـلـ

اخضاعك لذاتك بالقوة، و دونما هواة، للابتعد عن العادات الرديئة رغم الألم. و هكذا، يكون لك كنز عظيم، و تقتني ملكوت السماوات ، و تتحدى نفسك باهله الى الابد.

كل صباح، ابدأ جهادك ضد الاعداء باسم ربنا . و تسليح بعدم الثقة بالذات، و برجاء متين بالله، وبصلاته ، وعدم تساهل مع النفس، من اجل المشقات الضرورية والاعمال الروحية، وفوق كل شيء، تسلح بصلحة رب يسوع : " ايها رب يسوع المسيح ارحمني". اجعل هذه الصلاة في قلبك سيفاً ذا حدين. فهذا الاسم يزعج الشياطين والاهواء معاً، و يبعدها . لهذا السبب يقول القديس يوحنا السلمي : " اربط الاعداء باسم ربنا يسوع المسيح". سنتكلّم في فصل آخر عن هذه الصلاة. و اكرر، ايضاً: بهذه الاسلحة اضرب ذلك العدو، و ذلك الهوى، و ذلك الميل الشرير الذي يهاجمك، كما بيّنت في الفصل الثالث عشر. عارض هواك اولاً. بعد ذلك امته. وفي النهاية مارس الفضيلة المضادة له في جو من الصلاة.

و اذا عملت هكذا، يكون نشاطك مرضياً لله الواقع الى جانبك مع الكنيسة الظافرة في السماء يرقب (1) جهادك.

هذه الجهادات شاقة للغاية و متعبة، لكن لا تحزن ، ولا تتowan في عملك. انما اجعل هذا نصب عينيك. و اعمل كي ترضي الله، من جهة، \_ وكما قيل فالحرب لا بد منها اذا اردنا الحياة. و ما ان توقف عن الجهاد، فسرعان ما نسلم للموت.

لا يضللك العدو قائلاً: " جاري شهوتك، ولو لساعة. لكن تبصر في ما ستتصير اليه حالك لو ابتعدت حياتك عن الله، و سُلّمت ذاتك للعالم و ملذاته و كل المتع الجسدية؟ ستكون بعيداً عن الله، وهذا امر رهيب، ولو لدقائق واحدة، وهل ستكون هكذا لساعة فقط؟ أليس من المرجح ان تمر ساعة بعد اخرى و انت في حياة بعيدة عن الله، يليها يوم بعد يوم، و سنة بعد سنة؟ و ماذا بعد كل هذا؟ حتى و لو اشتق الله عليك، فمنحك فرصة كي تعود الى نفسك، لتنتحرر من فخ ابليس، و تنهض من كبوتك الرديئة، سيكون عليك ان تواجه المعركة التي هربت منها طمعاً في حياة سهلة، مع فارق واحد هو انها ستكون اكثر ضراوة، و اكثر قساوة، و اكثر الماً، الى جانب كونها اقل نجاحاً.

اما اذا ترك الله في ايدي اعدائك تخضع لمشورة نفسك، فماذا يكون؟ سوف لن اكرر الكلام ثانية، انما سأكتفي بالقول: تذكر، و من يجهل ذلك؟ ماذا سيكون بعد حياة ضائعة في متأهات الاهواء الرديئة، و بعد الاوقات التي استطيبتها في الحسيات، الا انها تفتقر الى الافراح الحقيقية؟ ستأتي ساعة الموت بغتة، وتكون النفس في حالة ألم وغم لا تستطيع الكلمة الله ان تصورها إلاّ بالقول: " حينئذ يصرخون للجبال اسقطي علينا.." (رؤ 6 : 16). ان هذه الصرخة تبدأ ساعة الموت، الا انها تدوم و تستمر بعده حتى نهاية العالم، الى حين الدینونة، و لكن عبثاً و دونما جدوى . لذا تعقل كي لا تلقي

ذاتك \_ بعلمك و معرفتك \_ في عذاب الجحيم الابدي. لا تهرب من الجهادات الوقتية و مشقات النسك الروحي. وإذا  
كنت فهيمًا لا بل نبيهاً، فخير لك ان تحتمل المشقات الوقتية، و اتعاب jihad الروحي، كي تهزم اعدائك، و تناول  
الاكليل، فتتحدد بالله هنا و ثمة في ملكوت السماء.

## الفصل السابع عشر

### بأي ترتيب ينبغي ان تحارب اهواك؟

من المفيد جداً يا أخي، ان تعرف جيداً بأي ترتيب ينبغي ان تحارب اهواك، و ذلك كي يكون عملك على خير ما يرام، بدلاً من التخبط عشوائياً كما يفعل البعض، دون ان يفلحوا، فكثيراً ما يلحقون الضرر بنفسهم، و الترتيب الذي به ينبغي ان تحارب اعداءك، فتجاهد ضد رغباتك الرديئة و اهواك، هو التالي: ادخل الى قلبك بيقظة. و افحص بتدقيق، لتعرف في اية افكار و اهواء و ميول شهوانية يشغل، على نحو خاص، و أي هوى هو الاكثر تسلطاً و تحكمـاً هناك. بعد هذا، تسلح اولاً ضد الهوى، و جاهد كي تغلبه و تهزمه. ركز كل انتباحك و عنايتك على هذا الهوى، الاّ عندما يحدث ان يبرز هوى آخر فيك. في مثل هذه الحالة، عليك ان تتعاطى مع الهوى الجديد بدون تأخير ، كي تبعده عنك، و تعود بعد ذلك الى اسلحتك تحملها في وجه الهوى الرئيس الذي يثبت وجوده و اقتداره دائمـاً . فكما في كل حرب ، هكذا في الحرب غير المنظورة، ينبغي ان نحارب ما يهاجمنا في اللحظة الراهنة.

## الفصل الثامن عشر

### في كيف تحارب ضغوطات الاهواء المفاجئة

ان كنت يا عزيزي لم تألف بعد ان تغلب الضغوطات المفاجئة و فعل الاهواء التي تثور عليك، مثلاً: الاهانات او الصدامات. و انا انصحك ان تعمل على النحو التالي: اجعل ذلك قانوناً لك كل صباح، و انت ما تزال في البيت، بأن تستعرض في ذهنك كل المناسبات التي تصادفك في بحر النهار، سواء كانت ممدودة ام مذمومة. تصور في ذهنك الضغوطات الشهوانية، و الشهوات و الاثارات التي تحركها ضدك. بعدها اعدد في نفسك، مسبقاً، كيفية اخمادها منذ بدايتها، دون ان تسمح لها بالنمو، و ان فعلت هكذا، فلن تأخذك أي من حركات الاهواء، على حين غرة، انما ستكون دائم الاستعداد لمقاومتها. فلا الغضب يزعجك، ولا الشهوة تجعلك تضطرب.

ان استعراض ما قد يحدث، لابد من ممارسته لاسيما لدى خروجك من البيت او زيارتك لأماكن تلتقي فيها اناساً كثيرين يجذبونك او يثيرونك. فإذا كنت مستعداً، تستطيع بسهولة ان تتحاشى الامرين معاً. و اذا ظهرت موجات الهوى، فإنها ستعبر فوق رأسك او تتحطم عليك، كما على صخر، بدل ان تجرفك كما ينجرف القارب الخفيف . هوزا النبي الالهي داود يقنعك بهذا، فقد سبق ان تكلم عن الغضب قائلاً : " اسرعت و لم اتوان في حفظ وصايك " (مزמור 119: 60). إلا ان هذا الاستعداد ليس في ذاته كل شيء. فإشارة الهوى ما تزال ممكنة ومفاجئة. في حالة بهذه اعمل على النحو التالي : ما ان تشعر بضغط شهوانى، سواء كان من شهوة او اثارة، عجل الى كبح جماحه بقوة الارادة، و انزل الى قلبك بيقظة ذهنك، محاولاً بشتى الطرق ان تحول دون انسال الهوى الى قلبك . انتبه كي تمنع قلبك من ان يتاثر بما هو مثير، او ان ينجذب لما هو جذاب. و ان حدث ان احد الامرين قد ولد في قلبك ، فعجل الى الحيلولة دون خروجه. و لا تعبّر عنه، سواء بنظره او بكلمة، او بإيماءة.

بالإضافة الى ذلك ، ألزم ذهنك وقلبك كي يرتفعا الى الله، فوق. وحالما تسترجع صفاء ذهنك، و شعورك بمحبة الله اللامتناهية، وحقه غير المنحاز. حاول ان تطرح الشهوانية خارجاً، و تستبدلها بخير يعاكسها. فإذا كان الامر يتعلق بلقاء احد، قد يكون من الصعب القيام بكل هذا بنجاح و بالكامل. لكن رغم ذلك، لا تهمل نيتك الحسنة، انما حاول ان تفعل ما بوسعك. و ان بدا جهدك عديم الجدوى والفائدة، فإنك ستبلغ الى مسعاك بعد انتهاء اللقاء الذي حرّك هواك. ولكن حذار ان تعلن الهوى التأثر فيك. وجهدك هذا، سوف يتحول دون نموه. وعندما تتحرر من تيار الخيالات الشريرة، بادر بالدخول الى قلبك، وواجهه كي تطرد الافعى التي وجدت طريقها الى قلبك.

ان خير وقاية فعالة ضد اثارة الاهواء الفجائية، هي في التخلص من الاسباب التي تولّدها. و هذه الاسباب هي فئتان: محبوبة و ممقوتة. اذا كنت يا عزيزي متعلقاً بشخص ما، و أسيراً لحبه، او على ارتباط بشيء ما، سواء كان كبيراً ام صغيراً، فمن الطبيعي \_ عندما تلتقيهم، او تراهم مهانين او متضورين، او ان احداً يريد ابعادهم عنك، و سرقتهم منك\_ ان تحزن و تثور وتضطرب، و تخاصم الذين يفعلون ذلك. فإذا اردت ان تتحرر من هذه المغارات المفاجئة، احرص ان تتغلب على هذا الانجذاب و ان تقلل من قلبك، فهو انجذاب خاطئ و تعلق مغلوط. فكلما استبد بك اكثر، فأنت بحاجة الى عناية اكثراً كي يكون لك ذهن متزن، و هكذا تكتسب موقفاً معتدلاً من الاشياء و من الناس. و كلما قوي الانجذاب او التعلق الشهواني، ازدادت حالات اثارتك المفاجئة كما بينتُ. بنفس الطريقة، ان كنت تكن البغض لأحد، او كان في قلبك نفور من امر ما، فمن الطبيعي ان تثور فيك مشاعر الحنق و الاشمئزاز عندما تصادفهم، لاسيما اذا سمعت احداً يمدحهم. لذا فإن كنت ترغب في أن تحتفظ بسلام قلبك في مثل هذه الحالات، فتحث نفسك على اخماد هذه المشاعر الرديئة، في هذه المناسبة. بعد ذلك اعمد الى ابادتها كلها. ويساعدك في ذلك، التفكير التالي: من جهة الناس، اعلم انهم خلائق الله مثلك، مخلوقين مثلك (كما انت)، على صورة الله ومثاله، بيد الله الحي القوية. وقد افتداهم واعاد تجديدهم، دم يسوع المسيح ربنا الذي لا يثمن، و انهم اخوتك ايضاً وكلكم اعضاء جسد المسيح)، و من غير اللائق ان تمقتهم حتى بالفكر، كما هو مكتوب : " لا تبغض اخاك في قلبك" (لاويين 19: 17). وعليك ان تتذكر هذا، حتى لو كنت تظن انهم يستحقون الكراهية و العداوة، فإن اظهرت لهم صداقة وحباً، فإنك بصنيعك هذا، تتشبه بالله الذي يحب مخلوقاته ولا يزدرى بها كما يقول الحكيم سليمان في تمجيد الله: " لأنك تحب كل الكائنات. ولم ترذل اي منها..." (حكمة سليمان 11 : 25). وبالرغم من خطايا الناس، فإنه يشرق شمسه على الاشرار و الصالحين، و يمطر على الابرار و الظالمين" (متى 5 : 45)

## الفصل التاسع عشر

### كيف تجاهد ضد الاهواء الجسدية

اعلم يا اخي ان الجهاد ضد الاهواء الجسدية، يختلف عنه ضد الاخرى غير الجسدية، فإن اردت ان تكون الامور على ما يرام، فاعلم ان هناك ما يجب ان تقوم به قبل ان تجرّب بهذه الاهواء، فما هو اثناء التجربة، يختلف عما هو بعدها، قبل التجربة، ينبغي ان يكون تركيز الانتباه على الاسباب التي منها تتولد التجربة في العادة، والتي من شأنها ان تثير الهوى وتحركه. والقاعدة هنا هي ان تستخدمن كل الوسائل كي تتحاشى كل المناسبات التي تعكر هدوء جسسك، لا سيما مقابلة الناس من الجنس الآخر. فإن اضطررت ان تتحدث الى احداهن، فلتكن المحادثة قصيرة ورصينة، مع شيء من عبوسة العفاف على محياك. لتكن كلماتك ودورة اخوية، محافظة، لا مندفعه. لا تثق بعذوك (جامعة 12 : 10) يقول الحكيم سيراخ. لا تثق بجسسك. فكماء ان الحديد ينبع الصدأ من ذاته، هكذا طبيعة الجسد الفاسدة تنتج اثارات شريرة للشهوة: " فكما ان الحديد يتآكله الصدأ، هكذا يكون خبثه وشره" (جامعة 12 : 10). و اكرر من جديد، لا تثق بنفسك من هذه الجهة. حتى ولو لم تشعر لفتره من الزمن بشوكه جسسك. لأن الخبيث المثلث اللعنة، كثيراً ما يتحقق في ساعة او لحظة، ما عجز عنه في سنوات. و دائمًا يعد للهجوم بصمت. فاعلم انه بمقدار ما يتظاهر الجسد انه يخطب ودك و يصادقك، فلا يدع اي سبب للتسلل، فبقدر اكبر تكون الاذية التي يسببها، و كثيراً ما يقود الى الموت. ينبغي ان يحترس الجميع من مخالطة الجنس الآخر، الأمر الذي يعتبر خيراً في الحياة العامة، إما لأنهم أقرباء أو لأنهم اتقياء و أهل فضيلة، أو لأنهم اسدوا لك خدمة، فتجد نفسك ملزماً على التعبير عن العرفان بالجميل، على قدر المستطاع. عليك ان تتنبه لهذا، فبدون الحذر والانتباه الى النفس، تمتزج هذه المخالطة عملياً، بالشهوة الحسية الرديئة، فتنسل الى النفس خلسة و حتى الاعماق، فيظلم الذهن، بحيث ان الانسان المصاب، كثيراً ما يبدأ بالتهاون مع اسباب الخطيئة الخطيرة، كالنظرة الشهوانية، والكلمات المعولمة من الطرفين، وحركات الغواية، واوضاع الجسد، وضغط الاصدئي. وفي النهاية يخضع للخطيئة ذاتها و لحبائل الشرير الأخرى، التي كثيراً ما يعجز عن انتشال نفسه منها بالكلية.

لذا يا اخي، اهرب من هذه النار لأنك بارود. لا تتجروا على التفكير، في زهوك وغرورك، انك بارود مبلل رطبته مياه اراده ثابتة وحسنة. لا لا، خير لك ان تفكك انك جاف كالجفاف، و انك ستتشغل لمجرد ملامسة اللهب، لا تثق بثبات عزيزتك، و في عزمك على الموت من الاسوء لله بالخطيئة. اذ رغم ادعائك بأن هذه العزيمة ستجعلك باروداً

مبلاً، الا ان المخالطة الدائمة، والجلسات الانفرادية الخاصة، من شأنها ان تجفّ شيئاً فشيئاً رطوبة ارادتك الحسنة، بنار جسدية. وانت لن تلاحظ كيف اشتعلت بالحب الجسدي حتى هذا الحد. و هكذا لا تعود تخجل من الناس، ولا تخشى الله، وتزدرى الشرف والكرامة، و الحياة، و كل عذابات الجحيم، بشوّفك الى ارتكاب الموبقات والخطايا. لذا تجنب بكل ما اؤتيت من وسائل، الامور التالية:

1- الاتصال بمن يمكن ان يكونوا تجربة لك، ان كنت ت يريد حقاً و باخلاص، أن تفر من أسر الخطيئة، بدفع ثمنها، و أعني موت النفس. الحكيم عند سليمان هو من يخاف اسباب الخطيئة و يتجنّبها. اما الجاهل فهو من لا يتحاشى اسباب الخطيئة، كونه يثق بنفسه كثيراً. "الحكيم يخشى الشر و يحيد عنه، اما الجاهل فيختلف و يثق بأفعاله" (امثال 14 : 16). ألم يقل الرسول هذا، عندما نصح اهل كورنثوس : "اهربوا من الزنى" (1كور 18 : ؟)

2- اهرب من الكسل و التراخي. تيقّظ و انتبه في كل شيء، مدققاً في افكارك عن كتب، ومدبراً نشاطك بحكمة و تعقل، حسبتما يملي عليك وضعك.

3- لا تحالف معلميك و مرشديك الروحيين، انما أطعهم برغبة، في كل شيء. نفذ اوامرهم بسرعة و استعداد، لاسيما تلك التي تقدر ان تعلّمك التواضع، و تقودك ضد مشيئتك و ميولك.

4- لا تسمح لنفسك، بوقاحة ، ان تدين قريبك. لا تحكم على احد، ولا تدن احداً، لاسيما في الخطايا الجسدية التي عنها كلامنا. و إن كان احد قد سقط فيها بوضوح، فأشفق عليه بعطف و محبة. لا تحنق عليه، ولا تسخر منه، بل اجعل منه درساً لك في التواضع. تيقّن انك انت ايضاً ضعيف بالكلية، و تستطيع الخطيئة ان تحررك بسهولة كما يتحرك الغبار على الطريق. قل لنفسك: " هو سقط اليوم، و غالباً سقطانا". اعلم انك ان كنت سريعاً الى ملامة الآخرين و احتقارهم، فإن الله سيرسل اليك عقاباً مؤلماً، بحيث تسقط في الخطيئة التي تلوم الآخرين عليها " لا تدينوا لئلا تدانوا". (متى 7 : 1) . سوف تناول العقوبة ذاتها، كي تتعلم منها مضره كبرياتك. اتّضع كي تشفي من شرّين: الكبراء ، و الزنى. و ان كان الله، لراحمه، قد حماك من السقوط، و حفظك بدون دنس، فكفّ عن لوم الآخرين، ان كنت تلومهم. و بدل اعتمادك و ثقتك بذاتك، خف بالحربي، ولا تثق بثباتك نفسه.

5- تيقّظ لنفسك منتبهاً الى ذاتك، فإن كنت قد حصلت على هبة من الله، او وجدت نفسك في حالة روحية جيدة، فلا تقبل من خلال مجده الفارغ، اوهماً باطلة، ظاناً انك شيء. لا تتخيل ان اعداءك لا يتجرسون على مهاجمتك، او

أنك تبغضهم و تحقرهم لدرجة أنك تنفر منهم اذا ما تجاسروا على الدنو منك. فإن فكرت هكذا، ستسقط كما يسقط ورق الخريف من الشجرة. هذا ما يجب ان تعمله قبل ان تداهمك تجربة الشهوة الجسدية.

وفي وقت الشدة، اعمل على النحو التالي: بادر الى اكتشاف السبب الذي حرك الهجوم، و أبعده للحال. قد يكون السبب إما خارجياً او داخلياً. أما الخارجية منها، فهي : نظرات غير رصينة، كلمات حلوة السمع، أغاني تبهج مسمعاك بمحتوها او نغمتها، ملبوسات ناعمة وجميلة، روائح تسد الأنف، سلوك ومحادثات حرة (غير رصينة)، ملامسة الادي، و الضغط عليها، رقصات... و سواها.اما الشفاء من هذه فيكون بـ : ثوب بسيط و متواضع، رغبة في عدم النظر او السمع او الشم او القول، او لبس أي شيء من شأنه ان يولّد هذا الضغط الشهوانى، لا سيما مخالطة الناس من الجنس الآخر، كما سبق و ذكرت.اما الاسباب الداخلية فهي : من جهة، راحة الجسد و هناء و استرخاؤه عندما يجد الجسد كفايته التامة من الشهوات و الملاذات. و من جهة ثانية، الافكار المعابة التي إما انها تتولد من تذكر امور منظورة، مسموعة ، او معروفة بالخبرة، او تلك التي تثيرها الارواح الشريرة.

اما الحياة في الراحة الجسدية والاسترخاء، فيمكن تقويتها بالأصوات و الاسهار و النوم بعد سجادات و مطانيات كثيرة لإرهاق الجسد، و بكل الميقات الطوعية المتنوعة، في الجسد، كما ارشدنا اباونا القديسون الحكماء و المقربون.اما الشفاء من الافكار، مهما كان مصدرها، فهو بالرياضات الروحية المختلفة، الملائمة للحالة الراهنة، و الضرورة تمليها عليك. مثل : القراءة من الكتب المقدسة و الكتب النافعة، لاسيما القديس افرايم السرياني، و يوحنا السلمي و الفيلوكالي و سواها من مثيلاتها، مع تأملات و صلوات.

وعندما تبدأ الافكار المعابة هجومها عليك، صلّ هكذا: ارفع ذهنك نحو الرب المصلوب عنا، و ادعه من اعمق قلبك : ”ربى يسوع“، ” يا يسوعي الحلو“، اسرع الى نجدي، و لا تدعني اسقط في ايدي اعدائي. وفي الوقت نفسه، عانق الصليب المحي الذي صُلب عليه ربك (ان كان قريباً منك). قبل جراحاته، و قل له بمحبة : ايها المجرور البهي في جماله، القدوس، الطاهر، اجرح قلبي الدنس، و لا تتركني اسيء اليك و احزنك بنجاستي.“

وعندما تتزايد عليك افكار الشهوات الجسدية المعابة، لا تجعل تأملاتك فيها مباشرة، رغم ان كثيرين ينصحون بذلك. لا تحاول ان تتصور في ذهنك نجاسة وخزي خطايا الشهوات الجسدية، ولا تأنيب الضمير الذي يعقبها، ولا فساد طبيعتك وفقدانك للطهارة و النقاوة، ولا اتساخ شرفك و اموراً أخرى مماثلة. اقول، لا تحاول التفكير بكل هذه، لأن مثل هذا التفكير ليس دائمًا وسيلة ناجعة بها تغلب التجارب الجسدية. فكثيراً ما يكون مثل هذا التفكير، مجالاً

للتقوية الهجوم او لسقوطك. فرغم ان ذهنك يمج الشهوة و يأبها، الا ان الفكر الواقف على موضوعاتها (objects of lust) يدعم القلب، و يحثه على النزوع اليها. فليس ما يدعو للعجب انه بينما يصب الذهن و ابداً من الادانات القاسية على هذه الامور، يكون القلب مبتهجاً و راضياً بها، وهذا يعني سقطة داخلية. لا، فالواجب يقضي بأن تشغل فكرك بما يجعل ذهنك ينعتق من الامور المخزية، اعني تلك التي لها تأثير رصين على القلب، مثل حياة و آلام ربنا يسوع الذي تجسد من اجلنا، و ساعة الموت التي لا مفر منها، او يوم الديوننة الرهيبة، و الوان اخرى من عذابات الجحيم.

و ان حدث ان استمر ضغط الافكار المعابة، رغم كل هذا، فهاجمتك الافكار بشدة و بطيش، لا تحف ، ولا تكف عن التفكير كما اوعزت. لا تحاول ان تهجم ضدها كي تبيّن لنفسك طبيعة هذه الافكار المخزية. ايak من ذلك. انما استمر في التأمل بما يغرس في قلبك المهابة و الرصانة، كما اسلفت، دون ان تمل هذه الافكار الرديئة، تماماً كما لو انها ليست فيك. و اعلم انه ليس من وسيلة ناجحة تطردتها بها، كإهمالها و عدم الاكتثار بها. و على قدر الامكان، اقطع تأملاتك بهذه الصلاة، او ما يشبهها: أنقذني من اعدائي يا خالقي و منقذى من اجل آلامك المجيدة و رحمتك التي لا حد لها. حذار ان تتوقف عين ذهنك عند هذه النجاسة الجسدية. فمجرد النظر اليها ينطوي على خطورة. لا تحاول هذه التجارب، و لا تتكلّم عنها كي ترى ما اذا كان قد حدث قبول لها فيك أم ان قلبك قد رغب عنها. ورغم ان شيئاً من هذا قد يبدو نافعاً و حسناً، الا انها في الواقع من حيل الشرير الذي حاول على هذا النحو ان يثبت من عزيمتك و يرميك في الضعف و اليأس، فيجعلك تتوقف عند هذه الافكار اطول مدة ممكنة، و ذلك كي يقودك الى فعل الخطيئة، و من هذا النوع او سواه. فبدل كل هذه التمحيصات المتعبة، بادر الى ابيك الروحي، و سُرّ له بتفاصيل مكنوناتك، و هكذا تكون بلا ازعاج في القلب و الفكر معاً، و غير مضطرب من اية اسئلة، انما راضياً بتدبیر ابيك. عليك فقط ان تبوح له بكل شيء ازعجك و يزعجك مضايقاً ذهنك و شعورك، في هذه التجربة. لا تحف شيئاً ولا تجعل لسانك يربط بالخزي، بل تواضع بإذلال نفسك، فلا نصرة لنا بدون تواضع عميق. و ما احوجنا اليه لاسيما في التجربة الجسدية. ففي هذه الحالة، كثيراً ما تتولد التجربة من الكبراء، او انها تكون لتأديبنا. لهذا يقول القديس يوحنا السلمي بأن من سقط في الزنى او في اية خطيئة جسدية اخرى فقد سبق ان سقط في الكبراء، و قد سُمح بسقطته في الخطيئة، كي يتضاع. فحيثما السقطة، هناك كبراء قبلها، فالكبراء يسبق السقوط. و ايضاً: "عقاب المتكبر هو السقوط"

(فصل 23)

و في النهاية، عندما تُغلب الافكار الرديئة، و تتوقف التجربة، ينبغي ان تفعل التالي: مهما اقتنعت بأنك قد تحررت من هجمات الجسد، و مهما تيقنت من نفسك، فاحرص ان يكون ذهنك و انتباهك بعيدين عن الاشياء و الناس الذين كانوا سبباً في نهوض التجربة، لا تشبع الميل الى رؤيتهم بحجّة انهم انساؤك او انهم مكرّسون وأهل فضل. حذر نفسك بأن هذا الفكر هو خطيبة ناجمة عن طبيعتنا الفاسدة، وهي فخ من فخاخ عدونا الماكر الشرير الذي يأخذ هنا شكل ملاك من نور، كي يلقي بنا في الظلمة التي تكلم عنها القديس بولس في ( 2 كور 11 : 14 ).

## الفصل العشرون

### في كيف تغلب الاهمال و التراخي

كي تتجنب السقوط في شر الاهمال الرديء \_ الذي يحول دون تقدمك نحو الكمال، فيسلمك الى ايدي اعدائك \_ عليك ان تهرب من كل انواع الفضول \_ (محاولة معرفة ما يجري هنا و هناك، التجول الباطل، الشرفة الفارغة، و حب الاستطلاع في ما هو حولك) \_ و من كل تعلق بما هو دنيوي، و كل الافعال الاعتباطية، او عمل ما تحب، فإن هذه لا تنسجم بالكلية مع وضعك. لا بل على العكس، ينبغي ان ترغم نفسك بمحض الارادة، وعلى عجل، ان تتبع كل ارشاد، او امر، من معلميك و ابائكم الروحيين، و ان تعمل كل شيء في حينه، و بالطريقة التي يرغبونها.

لا تؤخر عملاً ينبغي القيام به، فالتأخير الاول القصير، سيقود الى ثانٍ اكثر طولاً. و الثاني، الىثالث، ايضاً اطول، وهكذا دواليك. فيتأخر عملك، لأنك لم تتممه في اوانه. او انك تهمله، لأنه شيء ثقيل ولا قبل لك عليه. فمتى ذقت لذة التوانى مرة، فإنك ستبدأ بإيثارها على العمل. و بإرضائك هذه الرغبة، تنمو فيك شيئاً فشيئاً، عادة التراخي و الكسل، فتكف عن مجرد النظر اليها، للنظر الى مقدار رداءتها و سوءها. الا اذا سئمت هذا الكسل، و عدت مجدأ الى المباشرة بعملك. عندها سترى ، بخزي و خجل، مقدار اهمالك، و كم من اعمال واجبة اهملتها، طمعاً بما يروقك انت من الاعمال الفارغة وغير المجدية.

قلما يدرك التراخي في بدايته. فهو ينسى الى كل شيء، و لا يتوقف عند تسميم الارادة، فيبعدها عن كل جهاد، و عن كل اشكال العمل الروحي و الطاعة، انما يضرب الذهن بالعمى، فيحول بذلك دون رؤية الحماقات و اباطيل الجدل التي تساند استعداد الارادة. التراخي يعيق الذهن من ان يستحضر للضمير، التعقل الذي له القوة على تحريك الارادة الكسولة كي تنجز العمل الضروري بسرعة و اجتهاد، فلا تؤجله الى أجل آخر. لأنه لا يكفي ان تنجز العمل بسرعة، فكل شيء يجب انجازه في اوانه، كما تتطلب طبيعته، و بكل عناية و انتباه. وذلك كي يأتي كاملاً قدر الامكان. فاسمع ما هو مكتوب : ”ملعون هو من يعمل عمل الرب برحابة“ (ارميا 48 : 10). انت سبب هذه المصيبة، لأنك تقاعست فلم تفكّ بقيمة و أهمية العمل الملقى على عاتقك.

فالتفكير سيلزمك بأداء العمل في حينه، و بعزيمة تطرد كل الافكار المرتبطة بالصعوبات المتوقعة، و التي يوحى بها الكسل، كي يثنيك عن عملك.

اقتنع بأن رفع الذهن نحو الله مرة واحدة، و السجود له و تمجيده، لهي امور ذات قيمة، و تفوق كل كنوز العالم، و إننا كلما أبعدنا التوانى، و ألزمنا ذواتنا بما ينبغي عمله، باجتهاد وجد، فإن ملائكة السماء ستعد لنا اكليل النصرة المجيدة، اما اذا استمرينا في الكسل، فإن الله سيسترجع من الكسالى العطایا التي سبق فمنحها لهم لجهادهم السابق من اجل خدمته. و في النهاية سيحجب ملکوته عنهم، اذا استمروا على التراخي، كما قال في مثل المدعويين الى الوليمة : " لأنني اقول لكم انه ليس احد من اولئك الرجال المدعويين يذوق عشاءي" (لوقا 14 : 24). هذا هو جراء الامال. اما المجاهدون الذي يلزمون انفسهم بكل عمل حسن، دون اشفاق على النفس، فالرب سيضاعف من عطایاه لهم في هذه الحياة، و يُعد لهم حياة البهجة الابدية في ملکوته السماوي كما قال: " ان ملکوت السماوات يغصب، و الغاصبون يختطفونه" (متى 11 : 12).

ان اوعز اليك فكر شرير، يحاول ان يلقيك في التراخي، و اوحي لك ان العمل الضروري لبلوغ الفضيلة التي تحب، هو طويل جداً و شاق، و ان اعداءك اشداء اما انت ضعيف ووحيد، و ان عليك ان تقوم بالكثير كي تبلغ مبتغاك. فلا تسمع له، انما فكر بالأمر على التحو التالى: طبعاً لابد ان تعمل ، ولكن ليس كثيراً . فعليك القيام بأعمال، الا انها صغيرة جداً ولا تستغرق وقتاً طويلاً. ستتصادف اعداء لا كثيرين بل واحد فقط. و رغم انه قوي جداً بالنسبة اليك، الا انك اقوى منه بما لا قياس له، ما دمت تتكل على معونة الله التي تثق بها جداً. فإن كان موقفك هكذا، فالتراخي سينكفي ليحل محله \_ بفعل تأثير الافكار الصالحة و الأحساس الحسنة \_ حماس جدي في كل شيء، فتمسك بزمام كل ملكات نفسك و جسدك، اعمل الشيء ذاته في الصلاة. افترض ان اتمام خدمة مقدسة يستغرق ساعة من الصلاة باجتهاد، وهذه تبدو ثقيلة الحمل بالنسبة لكسلك. فحينما تباشر هذا العمل، لا تفك ان عليك ان تقف لساعة كاملة، بل تصور ان ذلك يستغرق ربع ساعة فقط. بهذه الطريقة ستعبر هذه المدة دون شعور. بعدها قل لنفسك: لنقف للصلاوة ربع ساعة اخرى، فهي ليست بالشيء الكثير اعمل الشيء نفسه بالنسبة للربع الثالثة و الرابعة، وهكذا تنهي عمل صلاتك دون ان تلاحظ شدة او صعوبة. و ان كنت اثناء ذلك تشعر بأنها امر شاق و عسير، حتى ان احساسك هذا تداخل مع الصلاة ذاتها، عندها توقف عن تلاوة الصلوات لبرهة، و عد بعد ذلك لتستأنف و تنهي ما قد اسقطت.

تصرّف بالطريقة ذاتها مع العمل اليدوي وواجبات الطاعة و كثيراً ما تكون واجباتك كثيرة، فتضطرب وتستعد للتوقف عن اتمامها حذار من التفكير بكثرة عددها. بدل ذلك ، اعدد ذاتك، و ابدأ بإنجاز العمل المهم بجد و نشاط، كما لو ان الاعمال الأخرى غير موجودة. هكذا تتم عملك بدون غم و ضيق. بعدها اعمل الشيء نفسه تجاه سائر واجباتك، و سوف

تنتهي منها بهدوء، ودونما ضجر او تشويش. اسلك هكذا في كل شيء، واعلم انك إن لم تصغ الى صوت العقل، وان لم تحاول التغلب على الشعور بالثاقل والمشقة التي يصورها لك العدو في الواجبات المطلوبة منك، فإنك ستسقط في النهاية اسيراً للترaxi，فتشعر كما لو انك تحمل جبلاً على كتفيك، ليس فقط عندما تواجه واجبات ملحة، بل عندما تكون هذه الواجبات بعيدة عنك ايضاً، فتكون مثقلًا و معذبًا بها كعبد لا امل له بالحرية، حتى في وقت الراحة، لن يكون لك راحة، وستشعر انك مرهق جداً حتى ولو كنت لا تعمل شيئاً.

اعلم يابني، ان آفة الكسل والترaxi، تتلف بسمومها، ليس فقط الجذور الصغيرة التي منها تنموا العادات الحسنة، بل و ايضاً تلك المتعددة، والتي هي بمثابة اساس لنظام حياة البر برمتها، و كما ان الدودة تنخر جذور الشجرة، هكذا الترaxi، فمن شأنه اذا استمر، ان يتلف عصب الحياة الروحية ذاته. به يبسط الشرير فخاخه وتجاربه ضد كل انسان، ويولي عنایة خاصة، ورصداً ماكرًا، بالغيارى على الحياة الروحية، عالماً ان الكسول المتواني، يسهل انقياده الى الملاذات، فيسقط كما هو مكتوب : "نفس الكسان تستهنى ولا شيء لها" (امثال 8 : 4)

لذا تيقظ دائمًا وصلّ واحرص على كل ما هو صالح، فهذا يليق بمحارب شجاع: "نفس المجتهد قسمن" (امثال 8 : 4). لا تجلس ويداك مضمومتان، تاركاً امر تخبيط ثوب العرس الى اللحظة التي فيها تخرج بثوب العيد مقابلة الختن الآتي، أي ربنا يسوع. ذكر نفسك كل يوم، ان "الآن" في متناولنا، اما "الغد" ، فبعيد الله، فمن وهبك الصباح، لم يعدك بالمساء. لا تصغ للشيطان عندما يهمس لك: اعطي "الآن" ، والغد أعطه الله. لا لا، عش كل حياتك على نحو يرضي الله. ضع في ذهنك ان هذه الساعة لك، اما التالية فلن تعطى لك، وان عليك ان تقدم حساباً صارماً عن كل لحظة، من هذه الساعة. تذكر ان الوقت الذي بين يديك، لا يئمن. وأنك إن أضعته سدى، فستأتي الساعة حيث تبحث عنه، فلا تجده. عَدِ الْيَوْمَ \_ الذي تعمل فيه الامور الحسنة، دون ان تكون جاهدت كي تغلب ميولك الرديئة ورغباتك \_ ضائعاً.

أنهي امثالتي في هذا الموضوع، وانا اردد وصية الرسول : "جادل الجهاد الحسن دائمًا" (1 تيمو 6 : 12). فساعة جهاد واحدة، كثيراً ما ربحت السماء. اما ساعة واحدة في الترaxi، فأضاعتھا. فاحرص جيداً ان اردت ان تبرهن الله عن ايمان ثابت بخلاصك، " لأن من يضع ثقته بالله، يسمن" (امثال 28 : 25).

## الفصل الحادي والعشرون

### في ضبط الحواس الخارجية وحسن استخدامها

على العطاش (1) الى البر، ان يفكّروا ملياً، ويعملوا دائماً، من اجل ضبط الحواس الخمس جيداً، و توجيهها حسناً: (النظر، السمع، الشم، الذوق، واللمس). فقلوبنا تنزع على الدوام الى طلب الراحة واللذة او التي ينبغي ان تجدها في النظام الداخلي للأشياء، وذلك بحمل صورة الله في اعماقها. فالإنسان خلق على صورة الله الذي هو مصدر كل راحة و تعزية. الا اننا عندما ابتعدنا عن الله، بسقوطنا، و آثرنا ذواتنا، فقدنا ثباتنا بأنفسنا، ووقعنا في عبودية الجسد، وخرجنا من ذواتنا، و شرعنا نبحث عن المسرات والملذات. صارت حواسنا دليلاً لنا ووسيطاً. بالحواس تخرج النفس لتدوّق الاشياء التي تعرفها (الحواس) وقد جربتها. صارت النفس تتبع بما يبهج الحواس، فشرع تبني دائرة المسرات والملذات، و تعتبر التمتع بها بمثابة الخير الاول. لقد انقلب نظام الموجودات. بدل الله في الداخل، شرع القلب يبحث عن الملذات في الخارج، وهو راضٍ بها. فالذين استمعوا الى صوت الله : "توبوا" ، ها هم يتوبون، و يوطّدون لأنفسهم ناموس اعادة تشوييد نظام الحياة الاصيل، و أعني التوجه من الخارج نحو الداخل، و من الداخل، الى الله، و ذلك كي يعيشوا فيه و به، و يكون هذا بالنسبة اليهم الخير الاول، فيحملون في داخلهم نبع كل تعزية، ورغم ان الخطوة الاولى في اعادة تشوييد هذا النظام، هي رغبة قوية وعزّم ثابت، إلا انهم لا يبلغون غايتها فوراً. فمن سبق ان عقد العزم، لابد له ان يواجهه دأباً طويلاً من الجهاد ضد عاداته السالفة، و ذلك لتحل محلها عادات اخرى تتفق و شرعة الحياة الجديدة. هنا تكمن اهمية ضبط الحواس الخارجية و استعمالها.

لكل حاسة سلسلة من المواضيع ترتبط بها، بعضها سارٌ وبعضها الآخر بخلاف ذلك . النفس تتبع بالامور السارة وتتألفها، معتادة عليها، و هكذا تكتسب قوة، بها تسعى اليها. بهذه الطريقة تدخل كل حاسة الى النفس، شهواتٍ عده، وميولاً عده، وارتباطات شهوانية. الاهواء تختبئ في النفس ملازمة الصمت، عندما لا يكون هناك ما يثيرها و يحركها. و كثيراً ما تثيرها الافكار المرتبطة بمواضيع هذه الشهوات. الا ان السبب الرئيس والاقوى الذي يثيرها، هو مثال مواضيع (مواضيع الشهوة) امام الحواس كي تجربها و تختبرها. في هذه الحالة، تنبئ الشهوة اليها بدون ضابط،

---

(1) الغياري

في الانسان الذي لم يصمم بعد على مقاومتها، "فتولد الخطيئة، و الخطيبة متى اكتملت تنتج موتاً" (يعقوب ١ : ١٥). و يتحقق كلام النبي في هذا الانسان: "فالموت طلع الى كوانا" (ارميا ٩ - ١٢)، أي الى الحواس التي هي كوي النفس للاتصال بالعالم الخارجي.

فالإنسان الذي يدع الشهوات تدخل اليه، فيجعلها تشن عليه حرباً، هو عرضة للسقوط. على الانسان ان يرسم لنفسه قانوناً لا يتخلى عنه، من اجل ضبط الحواس، و استعمالها، بطريقة لا تثير اية شهوات حسية، فلا يسمح بالدخول، الاً ما يُخدم الشهوات و يثير مشاعر مضادة لها.

و هكذا ترى يا اخي في أي من الاطمار يمكن للحواس ان تزجك، لذا انتبه لنفسك، و تعلم كيفية ترويضها. حاول بكل ما أوتيت من وسائل، ان تحول دون تحرك حواسك هنا و هناك كما يحلو لها. لا تحولها الى المذات الحسية، بل على العكس، وجه خطاهما الى ما هو خير و نافع و ضروري. و ان كانت حواسك تجمح حتى الساعة الى المذات الحسية، فحاول من الان فصاعداً و الى المنتهي، ان تکبح جماحها ، و تعود بها عن غيها . اضبطها جيداً.

و كما انها كانت بالأمس أسيرة للمباحث الضارة و الباطلة، عليها الان أن تتقبلّ مما هو نافع من كل مخلوق، و من كل شيء ، فتدفعه للنفس كي تتولد الأفكار الروحية فيها، والتي من شأنها أن تجمع النفس في ذاتها ، فتحلق بأجنحة التأمل الداخلي ، و ترفعها إلى معاينة الله و تمجيده كما يقول المبارك اوغسطين: "بمقدار ما هناك من مخلوقات في العالم تخاطب الأبرار، بمقدار ما هناك أفكار و تأملات مقدسة تحرك في هؤلاء محبة الله، على الرغم من ان هذه المخلوقات بكماء ولا تتكلم". و أنت أيضاً، يمكنك أن تفعل ذلك على النحو التالي: عندما يداني حواسك موضوع حسي تراه أو تسمعه أو تشمّه أو تتذوقه أو تلمسه، فافصل في ذهنك بين ما هو حسي و مادي منها، و بين ما هو من الروح الإلهي المبدع. و اعلم ان ما في هذه ، يستحيل أن يكون من ذاتها، فكل ما فيها هو من الله الذي يهبها الوجود، و الخواص الحسنة، و الجمال، و الهيئة الحكيمية، للتأثير على الآخرين. فالله هو سبب ما فيها من جمال و روعة. طبق مثل هذه الأفكار على كل الأمور المنظورة الأخرى، وافرح في داخلك بأن الله الواحد، هو أصل وعلة كل هذه الكمالات العظيمة العجيبة المتنوعة القائمة في مخلوقاته، فهو يحيي في ذاته كل هذه الكمالات. و ما تراه في خلائقه، ليس سوى انعكاس ضعيف، أو ظلال، لكمالات الله التي لا حدود لها. رب فكرك على هذا لدى رؤية كل مخلوق، كي تألف النظر إلى الأمور الحسية، دون أن يستقرّ انتباحك على مظاهرها الخارجي فقط، بل ينفذ إلى كنها الإلهي، إلى جمالها الخفي غير المنظور

، المعلن للذهن. و إن فعلت هذا، لن يعود هناك جانب خارجي للأشياء يجتذب حواسك و شعورك، ولا يبقى سوى الجوهر الداخلي يثير ذهنك ويفدّي تأمّلاته الروحية، و يحثّك على تمجيد الرب.

و في ما تنظر إلى العناصر الأربع (الاستقساط): النار، الهواء، الماء، التراب، فكر في ماهيتها و قوتها و فعلها، فتمتلئ بهجة روحية وتدعوك للخالق العظيم الذي أبدعها: "أيها الإله العظيم، الكثير القوة العجيب في أعماله، أنا أسرّ وأبتهج لأنك أنت وحدك أصل وعلة وجودك و فعل وقوّة كل مخلوق". وعندما تنظر إلى السماء فتعain الأجرام السماوية، الشمس و القمر و النجوم وهي تعكس النور و الضياء الذي منحه لها الله، ستقول بذهول: "أيها النور الأبدي من كل الأنوار، والذي منه جاء كل نور إلى الوجود، سواء كان مادياً أو غير مادي! أيها النور العجيب! يا فرحة الملائكة و بهجة المغبوطين. يا من فيه تغوص الشاروبيم في تأمل ودهش على الدوام. أيها النور الذي الأنوار المادية هي ظلام حالك أمامك. ابني أسبحك و أمجدك أيها النور الحقيقي الذي يضيء كل إنسان آتى إلى العالم. امنحنني أن أراك عقلياً، فيفرح قلبي كل الفرح."

وعندما تنظر إلى الأشجار والأعشاب والنباتات متأنلاً كيف تحيا و تغتندي و تنموا و تتكاثر، و ان وجودها ليس من ذاتها، بل من الروح المبدع الذي لا تراه، إلا انه وحده يحييها، فإنك ستصرخ: "ها هي الحياة الحقيقية التي فيه و منه و به تحيا و تنموا و تتواحد. أنت بهجة قلبي المحبة".

و عندما ترى الحيوانات العجماء، ترتفع بعقلك إلى الله الذي منحها الحواس و القوى كي تنتقل من مكان إلى آخر: "يا نبع الحركة لكل الموجودات، يا من حرّك كل شيء وهو لا يتغير. كم أبتهج و أفرح بك أيها الساكن غير المتغير." وعندما تنظر إلى ذاتك، و إلى الناس الآخرين. ترى إنك وحدك أعطيت هذه الرتبة السامية، فأنت وحدك بين المخلوقات الحية التي تدبّ على الأرض، و قد حبّاك الله عقلاً، و جعلك تخدم الوحدة بين الخالق المادية و غير المادية. تيقظ إذن لتمجيد و شكر الله خالقنا قائلاً: "أيها الثالوث الأبدية، الآب و الابن والروح القدس المبارك إلى الأبد. ابني أشكرك في كل آن، ليس فقط لأنك خلقتني على الأرض، وجعلتني ملكاً على كل المخلوقات و أكرمتني، فخلقتني على مثالك، ووهبتني العقل و النطق و الجسم الحي. إنما فوق كل شيء، لأنك منحتني إرادة حرة كي أمثالك بالفضائل، و تكون لي، أحويك في و أفرح بك إلى الأبد".

سأنتقل الآن إلى الحواس الخمس كلٍ على حدة:

## 1- النظر

عندما تنظر إلى جمال الخلائق وحسن تكوينها، أفصل في ذهنك ما تراه، عما هو جوهرها الروحي. وتأمل كيف أن كل هذا الجمال المنظور هو من صنع الروح المبدع غير المنظور والكلي الجمال، الذي هو علة كل جمال خارجي. وإذا تمثلت فرحاً، قل: ”أيتها الجداول الغنية المتدفقة من نبع غير مخلوق. أيها المطر المحيي الآتي من بحر كل البركات غير المحدودة. كم أبتهج في قلبي عندما أعاين جمال خالقي غير المنظور الذي هو أصل وعلة كل جمال مخلوق. يا لها من عذوبة روحية تلك التي تملاني عندما أفكر بجمال إلهي الذي يتعدّر على الكلمة وصفه، والفكر، وإدراكه، فهو مبدأ كل جمال.“

## 2- السمع

وإن سمعت صوتاً شجياً أو انسجام أصوات أو غناء، فارفع ذهنك إلى الله وقل: ”يا انسجام كل انسجام، ياربي، كم أفرح بكمالاتك التي لا حدود لها، وكل شيء يندمج بك في انسجام كلي فينعكس على طغمة الملائكة في السموات، وعلى الخليقة الكثيرة العدد، على الأرض. هذه هي السيمفونية الكاملة فوق حدود التخييل“. ربّي متى يحين الوقت لأنسخ بأذني قلبي صوتك الكلي العذوبة قائلاً: ”سلامي أعطيك. انه السلام من الأهواء ان صوتك عذب كما تنشد العروس في نشيد الإنشاراد“ (2 : 14).

## 3- الشم

وإن صادف أن تتنشق طيباً معطراً، أو رائحة الأزهار، فارفع ذهلك فوق هذا العبير المادي، إلى عبير الروح القدس السري، وقل: ”يا شذى أجمل زهرة. أيها العطر الذي لا يفرغ و الذي انسكب على كل خلائق الله كما يقول نشيد الانشاراد: ”أنا زهرة شارون و زنبق الأودية“ (2 : 1). ان اسمك طيب مهراق (1 : 3). يا نبع كل شذى ، يا من يفوح أريحه الإلهي على كل الموجودات فيغمر أسمى الملائكة و أنقاها، ليشمل أدنى الخلائق، مفعماً الكل بشذاه.“ هكذا حين اشتم اسحق رائحة يعقوب قال: ”ها رائحة ولدي كرائحة حقل باركه الرب“ (تك 27 : 27).

## 4- الذوق

عندما تأكل أو تشرب، فكر في الله الذي أعطى كل طعم مذاقة تبهجنا و تلذّ لنا. وإذا تبتهج بالرب فقط، بادر إلى القول: ”يا نفسي ابتهجي ، فشبّعك و مسرّتك و راحتك هي في الله. يمكنك أن تعرفيه و تلتقصي به، و تجدي كل بهجة فيه“

حسب قول المرنم: "ذوقوا و انظروا ما أطيب الرب" (مزמור 34 : 8). انها الأمر الذي عرفه سليمان فقال: " ثمerte حلوة لماذاقي" (نشيد 2 : 3).

## 5- اللمس

عندما تبادر إلى عمل ما، تذكر ان الله هو الذي وهبك القدرة والقوة على العمل، و انه علة كل حركة، و انك لا شيء سوى أداة حية بيده. ارتفع إليه بالعقل قائلاً: "أيها الإله القدس، رب الكل، ما الفرح الذي يملاني عندما أفكر اني بدونك لا أقوى على شيء، فأنت المحرّك الأول في كل شيء".

وعندما ترى في البعض صلاحاً أو حكمة أو صدقاً أو أية فضيلة أخرى، بادر إلى فصل المنظور عن غير المنظور، و قل لإلهك : " يا كنز الفضائل الذي لا يفرغ، كم تعظم فرحتي عندما أعاين و أدرك ان كل خير هو منك، و ان كل صلاحنا هو لا شيء، إذا ما قيس بكمالاتك الإلهية. أشكرك يا إلهي على كل هذا، و على كل شيء خير عملته لقريبي. أذكر عزتي و فاقتي أيها النعم علينا، فأنت تعرف مقدار تقصيرني في كل فضيلة" وعلى العموم، ففي كل مرة تشعر ان في خلائق الله ما يسرّك و يجذبك، لا تدع انتباهك يتوقف عند هذا الحد، انما اعبر بفكرك الى الله قائلاً: " يا إلهي، إن كانت خليقتك بهذا القدر من الجمال والفرح والبهجة، فكم بالحري أنت يا كلي الجمال و البهجة و الفرح و خالق الكل! فإن واظبت على هذا المنوال يا عزيزي، ستتمكن من معرفة الله بحواسك و ذلك برفع عقلك على الدوام مما هو مخلوق، إلى الخالق. عندئذ سيكون وجود وهيئه كل شيء مخلوق، كتاباً لا هوتياً. و مع انك تعيش في هذا العالم الحسي، إلا أنك ستشارك في معرفة العالم الآتي. فالعالم كله، و الطبيعة برمتها، هي أداة نتبين من خلالها المهندس و الفنان نفسه صانع الكل، الذي يعلن أفعاله و كمالاته غير المنظورة في المنظورات. ولا يميز ذلك، إلا نظر الخلاق العاقلة. ويقول سليمان الحكيم: " بعظمة الخلاق و جمالها نرى الله بقياس " (حكمة 13 : 5). و من جهة ثانية يؤكّد المبارك بولس: " ان أموره غير المنظورة تُرى منذ خلق العالم، مدركه بالمصنوعات قدرته السرمدية ولاهوته" (رو 1 : 20).

في عالم الله، كل خلائقه تقوم بحكمة. فمن جهة تنوع الخلائق، و من الأخرى ، فقد حبا الله الناس قوة العقل، به يتأمّلون الخلاق، فيستشفون حكمة لا متناهية وراء خلقهم و ترتيبهم. و من شأن ذلك أن ينمي المعرفة و التأمل في الكلمة الأقنوبي الذي به كان كل شيء (يو 1 : 3). فمن الأفعال، نأتي إلى رؤية فاعلها، و ليس لنا إلا أن نقضي بصواب ورصانة، فإن وجدنا إيماناً في ما قد خلق، فإننا سنرى في الخلاق، خالقه.

## الفصل الثاني والعشرون

في ان المواضيع الحسّية ذاتها، التي دار حولها كلامنا، يمكنها أن تكون وسائل وأدوات نضبط بها حواسنا جيداً  
إن تمكّنها بها من التأمل في تجسّد الله و في أسرار حياته و آلامه وموته

سبق أن بيّنت كيف أننا من الأمور الحسّية، نستطيع أن نرفع الذهن إلى التأمل في الله. و الآن نتعلم طريقة أخرى نرفع  
بها ذهناً من الحسّي إلى الإلهي، أي ، بالعبور من الحسّي ، للتأمل في تجسّد الله الكلمة، و في أسرار حياته المقدسة  
الظاهرة وآلامه و موته . فالأمور الحسّية التي في هذا العالم، يمكنها أن تكون إطاراً مثل هذا التأمل ، ان استطاع الذهن أن  
يعبر من خلالها إلى عظمة الله و مجده كونه علة وجودها، وعلة كل ما فيها من قوى (ملكات)، و كمالات ووظائف و  
مكانة بين كل الخلائق. بعد ذلك فكر في عظمة صلاح هذا الإله — التي لا حدود لها، علة كل ما هو مخلوق، — الذي  
رغب أن يتنازل إلى مثل هذه المسكنة و الحقارة، فيصبح إنساناً، و يتّالم و يموت من أجل الناس و يسمح لمن هم جبلاً  
يديه أن يحملوا السلاح ضده و يصلبوه. فعندما ترى أو تسمع أو تلمس أسلحة وحبالاً وسيطاً، واغصان الشوك، و  
مسامير و مطارق وسواها... فكر كيف ان هذه استخدمت مرّة أدوات لتعذيب الرب. عندما ترى بيوتاً فقيرة، أو أشكناز  
تحيا في واحد يشبهها، تذكر المغارة والمزود الذي ولد فيه ربّك كإنسان. عندما ترى المطر ينهمر، تذكر قطرات الدم و  
العرق التي تساقطت من الجسد الإلهي، من يسوع الحلو، فخضبت أرض بستان الجثمانية.

عندما تبصر البحر و القوارب تخمره، تذكر كيف مشى إلهك على المياه ووقف في السفينة يعلم الناس.  
عندما ترى الصخور، دعها تذكر بتلك التي تشقت لحظة موت الرب، دع الأرض التي تطاها، تذكر بالزلزال الذي  
حصل بعيد آلام المسيح. ينبغي أن تعيد الشمس إلى ذهنك ذكريات الظلمة التي غشيتها آذاك، ليذكرك الماء، بالماء الذي  
امتزج بالدم المنبعث من جنب الرب عمد ما طعنه الجندي بعد موته على الصليب. عندما تحتسي خمراً أو أي مشروب  
آخر، تذكر الخل و المراة التي دفعت للرب كي يشربها على الصليب. عندما تلبس ثيابك، تذكر الكلمة الذي لبس  
جسداً بشرياً كي ما تلبس ألوهيته. و عندما ترى نفسك مستوراً، فكر في المسيح ربّك الذي سمح أن يتعرّى للجلد و الصلب  
من أجلك. عن شدّك صوت شجيّ، فحوّل ذلك إلى المخلص الذي على شفتيه انسكب كل عذوبة ونعمه حسب قول المرّنم: ”  
انسكبت النعمة على شفتيك“ (مزמור 45 : 2). لحلوة كلماته كان الشعب يتبعه، و لا يملّ من الإصغاء إليه كما يقول  
القديس لوقا ” لأن الشعب كان متعلقاً به يسمع له“ (لوقا 19 : 48) . عندما تسمع همساً و صياح أناس، تذكر صرخات  
اليهود: ” خذه، خذه، اصلبه“ (يو 19 : 15)، و التي نفذت إلى مسامع الرب. عندما تعain وجهها جميلاً، تذكر من

هو أبهى جمالاً من بني البشر (مزמור 45 : 2)، ربنا يسوع المسيح الذي صلب حباً بك و احثُنْتُ و أهين من الناس، و كان رجل آلام و اختبر الحزن (أش 53 : 3) في كل مرة يرنّ جرس الساعة، تذكر الحزن المتفاقم الذي ملأ قلب ربنا يسوع عندما كان في بستان الجثمانية و كيف انه اضطرب لدى اقتراب ساعة آلامه و موته. تخيل انك تسمع ضربات المطارق التي سمعت عندما كان الرب يُسمَّر على الصليب.

و أقول بشكل عام، انه كلما صادفك أمر مؤلم في حياتك أو حياة سواك، ضع في ذهنك ان أتعابنا و آلامنا و شجوننا هي لا شيء بالنظر الى العذاب المبرح و الجراح المؤلمة في جسد ربّنا و نفسه و التي احتملها من أجل خلاصنا.

## الفصل الثالث و العشرون

### في كيف تُترجم الانطباعات الحسية إلى دروس مفيدة

عندما تنظر أموراً تسرّ العين، و ذات قيمة عند أهل الدنيا، فكّر انها لا شيء و مجرد غبار، إذا ما قورنت بجمال السموات و غناها و التي ستتصير من نصيبك بعد الموت، لا محالة، إن كنت قد رفضت كل أمور العالم. عندما تنظر إلى الشمس، فكّر ان نفسك هي أكثر بهاءً و جمالاً منها، إن هي امتلأت بنعمة الخالق. و إلا ، كانت أكثر ظلمة من الظلمة الخارجية، عندما تشيح بنظرك إلى السموات، ارفع عين نفسك إلى السماء الأسمى جاعلاً فكرك هناك. و اعلم انها المكان المعد لسكناك، إن كانت حياتك على الأرض، مقدّسة وبلا عيب. عندما تسمع زقرقة العصافير فوق الأشجار أيام الربيع، أو آية نغمة مطربة أخرى، فارفع ذهنك إلى أكثر الأنغام حلاوة، أعني التي في الفردوس، و فكّر في الـ (هليلويا) التي تُنشد في السماء على الدوام مع ترانيم الملائكة. صلّ إلى الله كي يعطيك أن ترئ بتسابيحة إلى الأبد مع الملائكة كما ورد في الرؤيا : " بعد هذا سمعت صوتاً عظيماً من جمع كثير في السماء قائلاً : " هليلويا . الخلاص و المجد والكرامة والقدرة للرب إلينا " (رؤ 19 : 1). عندما تشعر بالانجذاب الى جمال إنسان، تذكر ان هذه الهيئة الجذابة تخفي وراءها أفعى الجحيم المستعدة لقتلك، أو على الأقل تشخنك بالجراح، و قل لها : " أيتها الأفعى الملعونة التي تقف كاللص وتريد أن تبتلعني.... ان محاولاتك لا تجدي و باطلة، لأن الله سendi. بعدها التفت إلى الله وقل : " مبارك أنت يا إلهي لأنك فضحت لنا أعداءنا المتسّررين، و لم تدفعنا فريسة لأسنانهم " (مزמור 124 : 6). ثم توجه إلى جراح من صليب لأجلنا و اتحد ذهنك بها متأملاً بما عاناه ربنا في جسده الظاهر كي يعتقك من المأثم و يجعلك تمجّ شهوات الجسد، كذلك فإني أذكرك بسلاح قوي به تبعد غواية الجمال الحسي، عندما تسقط في مثل هذه الغواية، بادر إلى الغوص بذهنك، و فكّر ملياً في ما سيؤول إليه هذا المخلوق الجذاب، بعد الموت؟ انه جيفة مهترئة و رميم نتن يتع بالدواد.

عندما تسير في أي مكان، فكّر بكل خطوة تخطوها، إنها تدبيك من القبر. عندما ترى الطيور وهي تحلق في الفضاء أو تبصر الأنهر تجري سريعة، تأمل في حياتك التي تعبّر على نحو أسرع، نحو نهايتها عندما تهب رياح هوجاء، و تتحجب السماء وراء السحب الداكنة، عندما تسمع صوت الرعد، و تلمح و ميض البرق، تذكر يوم الدينونة الرهيب، و صلّ إلى الله جاثياً، كي يمدّك بالوقت و القوة كي تُعدّ نفسك آنذاك ، للمثول أمام وجه عظمته المرهوب. عندما تحل بك ضيقات متعددة، لا تنسى أن تروّض ذهنك على الإفادة من الأفكار الخشوعية الملزمة لهذه الضيقات . لكن قبل البدء بأي شيء، اعمل التالي: تأمل في ارادة الله الضابط الكل ، متيقناً أن هذه كانت لخيرك و خلاصك، فالله بحكمته و جوده و

محبته، قضى أن تعاني ما تعاني. تهَلَّ بالرب الذي أُعلن لك محبته في مثل هذه الحالات، فأباح لك سانحة بها تبرهن عن تسليم مشيئتك له برغبة قامة من كل القلب، في كل شيء يشاء أن يرسله لك قل في قلبك: "هذه مشيئه الله مغروسة فيي، بمحبته لي سبق أن رتب من قبل الأزمنة أنه ينبغي لي أن أحتل هذا الألم أو الغم أو فقدان أو الجور. ليكن اسم ربِي الجليل الرحمة مباركاً". عندما يراودك فكر صالح، أنسبه لله، وتأكد أنه منه، رافعاً الحمد له. وعندما تنشغل بقراءة الكلمة الله، اجعله ماثلاً أمامك وراء كل كلمة، معتبراً هذه الكلمات نفسها حياً ينبعث من فمه الإلهي. عندما ترى الشمس تغيب في المساء، والظلمة ترخي سدولها، فينكفِّ النور، كما هو الحال في الكسوف، تنهَّد مصلياً إلى الله أن لا يطرحك في الظلمة الخارجية. عندما ترى الصليب، فاذكر أنه رايتنا وقوتنا التي لا تهزم في الحرب الروحية، وأنك ابتعدت عنه، تقع في أيدي أعدائك، أما إذا بقيت في كنفه وظله، فتعرج إلى السماء وتدخلها بمجده ونصرة. عندما ترى أيقونة والدة الإله القديسة، ارفع إليها بقلبك واسكرها، فهي قد أبدت الاستعداد فسلمت نفسها إلى مشيئه الله كي تلد وترضع وتربى منقذ العالم، وتشفع فيها وتحميها وتعينها في الحرب الروحية. وعندما ترى أيقونات القديسين، فتذكر صلواتهم وشفاعتهم من أجلك أمام الله، ولا تنسي أنهم يحاربون إلى جانبك في الحروب الروحية غير المنظورة. فقد سبق لهم أن حاربوا أثناء حياتهم بشجاعة وبسالة وهزموا الأعداء، فكشفوا لنا فن الحرب. فإنك شعرت بمؤازرتهم في القتال، اعلم أنك ستثال الإكليل مثلهم، مع النصرة في المجد السماوي الأبدي. عندما ترى كنيسة، فبالإضافة إلى الأفكار الحسنة الكثيرة، تذكر أنك أنت نفسك هيكل الله كما كتب: "أنت هيكل الله الحي" (كور 6 : 16).

علينا أن نحافظ على هذا الهيكل كي يكون ظاهراً وبلا عيب. عندما تسمع أجراس الكنيسة، فاذكر تحية رئيس الملائكة إلى والدة الإله: "سلام لك أيتها المنعم عليها..." (لوقا 1 : 28)، متأملاً في الأفكار التالية: اشكر الله الذي أرسل هذه البشرى السارة التي هي بداية خلاصك. تهَلَّ مع والدة الإله من أجل العظمة التي ارتقت إليها بفعل عمق تواضعها. اشترك وإياها مع رئيس الملائكة جبرائيل في عبادة الكرمة الإلهية التي حبلت بها في بطنهما الطاهرة، وخير لك أن تردد السبح هذا على الدوام، في النهار، في الدوام، مقرضاً بما ذكرت، جاعلاً إياه أساساً لحياتك، تؤديه ثلاث مرات كل يوم على الأقل: في الصباح، ونصف النهار، وفي المساء. وباختصار، فأنا سوف أُسدي إليك النصيحة التالية: تيقظ على الدوام وكن مرهفاً من جهة علاقتك بحواسك، لا تسمح لما يأتيك عبرها، بإثارة أهوائك وتجذيبيتها. إنما استعملها على نحو لا تخرج فيه عن ارضاء الله على الدوام، وفي كل شيء. لا تكون منقاداً من ارادتك. ولكي يسهل عليك بلوغ هذا، وبالإضافة إلى رفع الأفكار من الحسي إلى ما هو روحي، رُوّض نفسك على ما ذكرت في الفصول الأولى، أي، لا تنجذب إلى أمر أو تنفر

منه على عجل، بل ادرس الخطوة المناسبة بإزاء كل حالة على حدة، وذلك بتعقل و بأسباب مستقيمة، و ذلك كله كي تنسجم انطباعات الحواس و مشيئة الله التي ندركها بوصايه. وأضيف، أنه لا يليق بك أن تمارس كل السبل الآنفة الذكر كي تستخدم الحواس في المقصاد الروحية دائمًا. يفترض أن تجمع ذهنك في القلب، و تبقى هناك بمعية الرب الذي يعينك في نصرتك على أعدائك و أهوائكم، وذلك إما بالمقاومة الداخلية المباشرة، أو بممارسة الفضائل المضادة لها. وقد عنيت بكلامي عن الطرق الآنفة الذكر، تلك التي تعرفها، والتي يمكنك استخدامها، عند الحاجة. ما من ريب في أن كل شيء ينفع في حربنا الروحية، وذلك كي تلبس أمرؤنا الحسيه رداءً روحياً.

## الفصل الرابع والعشرون

### دروس عامة في كيفية استخدام الحواس

بقي لي أن أعلن القواعد العريضة في استعمال الحوا الخارجية، و ذلك للحيلولة دون فساد قيمنا و نظامنا الروحي ، بفعل الانطباعات التي تنقلها (الحواس). لذا اسمع :

قبل كل شيء يا عزيزي ، أرصد بكل حرص هذين اللصين اللذين يسلبان بخفة وعجل ، وأعني : عينيك. لا تسمح لهما بالنظر بفضول إلى وجوه النساء ، سواء الجميلات أو غير الجميلات ، ولا حتى إلى الرجال ، لاسيما الصغار منهم عديمي اللحى. لا تدع عينيك تحدقان إلى الأجساد العارية ، ليس فقط أجساد الآخرين ، بل جسدك نفسه أيضاً. فالفضول المقرن بنظرات شهوانية. يولد في القلب هوى الزنى ، ويسهل فعل الشهوة التي تستحق الدينونة حسب قول ربنا : " ان من ينظر الى امرأة ليشهيدها فقد زنى بها في قلبه" ( متى 5 : 28). لقد كتب أحد الحكماء يقول : " تتولد الشهوة من النظر" سليمان الحكيم نفسه ينصحنا بأن لا ننخدع بغواية العين ، ولا ننجرح بلذة الجمال : " لا تشتهين جمالها بقلبك ، ولا تؤخذ بهدبها" (أمثال 6 : 25) وإليك أمثلة عن العواقب الوخيمة التي تترتب على النظارات الشريرة: أبناء الله انجذبوا (نسل شيث وانوش)، نحو بنات قابيين، حينما نظروا إليهن (تك 6). لقد رأى شكيم بن حمور الحوي، دينة ابنة يعقوب، فسقط معها (تك 34) جمال دليلة استبد بقلب شمشون (قضاة 16). داود سقط لما نظر الى بتشبع (2 ص 11). شيخان من قضاة الشعب أثيرا لما نظرا إلى جمال سوسنا (دانيال). تنبأ جيداً من النظر بلهفة إلى منظر الطعام والشراب. تذكر أمنا حواء التي نظرت إلى الشجرة المحرّمة في جنة عدن، فتجرأت و أكلت منها ، وهكذا جنت الموت على نفسها ، وعلى كل نسلها. لا تحدق بشهوة إلى الأثواب الجميلة ، أو إلى فضة أو ذهب ، أو إلى مغان الأزياء العالمية ، كي لا تنسل إلى نفسك عبر العين ، أهواه المجد الباطل و حب المال. بل جدّ في أثر داود الذي تمنى : " حول عيني عن مشاهدة الباطل" ( مزمور 119 : 37). وعلى العموم انتبه من النظر إلى الرقص ، أو الحفلات أو المهرجانات أو المجادلات أو الخصومات ، وكل كلام فارغ ، والأمور غير اللائقة والمعيبة التي يهواها العالم المجنون ، لكن الناموس يمْجِّها ، و ينهي عنها. اهرب و أنت تغمض عينيك عن هذا كله ، كي لا يمتليء قلبك بحركات الأهواء ، وخيالك بصور غير لائقة ، فتكون تقاتل نفسك بنفسك. ان عدم صمودك في الحرب ، يتأتى من ايثارك الأهواء في نفسك. ليكن ارتياح الكنائس مرغوباً عندك.وليكن نظرك ، في الايقونات والكتب المقدسة ، تأمل في القبور و المدافن وسوها من الأمور التي تتصفى على القلب تخشع و قداسة. لا تصحع إلى الأغاني و الموسيقى ، والأحاديث الماجنة التي تحرك الشهوة ، فهي تملا

النفس بالخيالات الشريرة و تقود إلى الزنى ، كونها تضرم نيران الشهوة الجسدية في القلب. لا تصع الى المزاح والضجيج الباطل، ولا إلى روايات البطولات التافهة، و ان سمعتها مرة، فلا تفرح، ولا تنزل الى دركاتها، فلا يليق بالسيحي، التلذذ بمثل هذه الأمور التي تبهج فاسدي القلب و الأخلاق، الذين تكلم عنهم الرسول قائلاً: "يصرفون مسامعهم عن الحق و ينزعون إلى الخرافات" (2:4). لا تصع الى النميمة و النقد و الافتراء التي يتناقلها البعض ضد أخوتهم. خليق بك أن تلجمها ان أمكن، أو، تتوارى ، كي لا تسمعها، فالقديس باسيليوس الكبير يعتبر أن النّمام و الواشي كلاهما يستوجبان الحرم الكنسي. لا تصع إلى الأحاديث التافهة التي يقضي فيها أهل العالم سواد وقتهم. لا تُسرّ بها، فالناموس يأمرنا بعدم قبول الخبر الكاذب (حز 23:1). سليمان يردد الأمر نفسه فيقول : "أبعد عني الباطل و الكذب" (أمثال 30:8) . و كما قال رب : "ان كل كلمة بطاله يتكلم بها الناس سوف يعطون عليها حساباً يوم الدين" (متى 12:36). حذار عموماً من الاستمتاع بأية كلمة أو حديث، فقد يلحق الضرر بنفسك، لا سيما التملق و مدح المرائين كما يقول النبي اشعيا : "مرشدوك يا شعبي مضلّون و طريق مسالك يبلغون" (اشعيا 3:12) . أما أنت، فأحباب سماع الكلمات الإلهية و القراءيم المقدسة و المزامير و كل ما هو صالح و مقدس و مفید للنفس و يزوّدها بالحكمة... لا سيما محبة توبیخ الذات، و قبول الاتهامات الموجهة ضدك. راقب حاسة الشم، و احفظ أنفك من متعة العطور التي قد تثير فيك أفكاراً و صوراً شهوانية. لا تستخدمنها و لا تعطر نفسك بها. لا تنشقها بلذة شهوانية و تراغٍ، فهذا يلائم النسوة الرديئات، لا أهل الحكمة. فالعطور تضعف شجاعة النفس، و تحرّك الأهواء الجسدية مع الشهوات، و ربما تودي بالمرء إلى السقطة. بهذا تنطبق عليك ويلات عاموص النبي ضد مستعملي العطور المثيرة: "ويل للذين يدهنون بأفضل الأدھان" (عا 6:1-6) . فيكون بدل العطر عفونة (اشعيا 3:24). احفظ حنجرتك و جوفك كي لا تستبد بها الأطعمة اللذيذة و المشروبات المسكرة. أما إذا أطلقت لها العنان، فإنك ستزحف تحت أهواء أخرى و أعمال شريرة، كالكذب و المداهنة و حتى السرقة. وإذا استبدت بك شهوة الموائد، يمكنها أن ترمي بك إلى حضيض المذلات الجسدية و الشهوات البهيمية التي تفعل بما دون البطن، "... الشاربون من كؤوس الخمر" (عا 6:4-6). تحفّظ من اللمس و الضغط بالأيدي، و من احتضان أجساد الآخرين لامرأة كانت أم لرجل، صغراً كانوا أم كباراً، بما في ذلك جسدك نفسه، إلا عند الضرورة. لا تلمس أجزاء محددة، فكلما تفاقمت اللمسات غير اللائقة، كلما نمت ثورة الشهوات التي من شأنها أن تودي إلى ارتكاب الفعل الرديء نفسه. كل الحواس تساند حركة الشهوة مداورةً، حتى ارتكاب الخطيئة. فالذي يبلغ به الأمر، أن يلمس ما لا يليق لمسه، يصعب عليه العدول عن ارتكاب الخطيئة.

و تجارب اللمس تصل أيضاً إلى ما نرتدي من ملابس و ثياب فوق الرأس و الجسد، و الأحذية أيضاً، احذر أن تلبس جسمك ثياباً ناعمة، ملوّنة، أو لّامعة، أو أن تضع على رأسك غطاء باهظ الثمن، أو أن تحتذي أحذية غالية، فهذه شؤون النساء الرديئات، ولا يليق بالرجال تعاطيهما. إنما ليكن لباسك محتشماً ووقوراً بقصد حماية الجسم من قر الشتاء و حر الصيف، كي لا تسمع الكلام إلى الغني الذي لبس البز و الارجون: "اذكر أنك استوفيت خيراتك في حياتك" (لوقا 16 : 25) . و أيضاً كي لا يجوز فيك وعيد حزقيال : "فتنزل جميع رؤساء البحر عن كراسיהם، و يخلعون جببهم ، و ينزعون ثيابهم المطرّزة" (حز 26 : 16). تحت هذه الائحة يندرج أيضاً: كثرة الاستحمام، البيوت الفخمة و المنيفة، و السجاد الفخم، و الرياش الفاخر مع الأسرة الوثيرة، و الاستلقاء عليها. حذار من هذا كله ما دمت تبدي نقاوة هي السبب في الصور و الحركات و الآثارات الشهوانية و أعمال الجسد، لئلا يصبك ما أصاب الذين توعدهم عاموس : " ويل ... المستلقون على أسرة من عاج..." (عاموس 6 : 1 – 4). ان ما سبق أن ذكرته هو تراب حكم على الحياة (المجرّب) أن تلعقه، و هو طعام تغتذى به أهواءنا الجسدية أيضاً. فعندما تحترق هذه الأمور، ولا تلتفت إليها، إنما تتسلّح بالشجاعة كي تحول دون انسالها إلى نفسك و قلبك عبر الحواس، فأنا أؤكد لك أنك ستتسحق بأس الشر و الأهواء، لأنك ستقطع عنها ما تفتات به لتنمو. أما أنت فتصبح بعد أمد قصير، من الظافرين الشجعان في الحرب الروحية. لقد جاء في سفر أيوب: "الليث هالك لعدم الفريسة" (أي 4 : 11) . الليث هو الشرير، عدونا الدائم، الذي سرعان ما يفر من حجب عنه طعامه، فبتر و استأصل كل الحركات الشهوانية المتولدة بفعل الحواس الخارجية. قال الرهب جوبيوس في كتابات البطريرك فوطيوس: الشيطان أشبه بأس النمل ( – ant ) : فهو يشرع في افساد الإنسان، بزجه في خطايا صغيرة صغر النمل، فعندما يعتاد الإنسان عليها، و يألفها، يعود ليلاقيه في الكبيرة منها. هكذا حال الشيطان، فهو في البداية يبدو ضعيفاً، و صغيراً كالنملة، لكنه سرعان ما يتحول فيظهر مارداً ضخماً ، و ليثاً شرساً.

## الفصل الخامس والعشرون

### في ضبط اللسان

إنها ضرورة قصوى أن نضبط لساننا و نلجمه ، فمحرك اللسان هو القلب، و ما يملأ القلب، هو الذي يخرج إلى الخارج بواسطة اللسان. و على العكس، فالمشاعر التي تخرج من القلب، عن طريق اللسان، من شأنها أن تتمتنا و تتجدّر في القلب. و هكذا، فالقلب هو عامل أساسي في استعدادنا الداخلي. الأحساس الطيبة الحسنة، هي على الدوام صامدة، أما تلك التي تبحث عن تجسيد، بالكلمات، فكثيراً ما تكون أنانية و ذاتية، فهي تبغي التعبير عمّا يُطْرِي محبتنا لذواتنا. كثيراً ما تتولد الثرثرة من المجد الفارغ، بحيث نتوهّم بمعرفة الكثير، و هكذا نسعى إلى زخرفة رأينا في موضوع النقاش كي يلقى استحساناً أكثر من رأي الآخرين... بهذا نحن نتكلّم بالخبرة شرّاً لا قدرة لنا على مقاومته، فنتشدق بسيل من الكلام و بلجاجة و تكرار، كي نعبر عن رأينا ذاته مقحمين أنفسنا في قلوب الآخرين كمعلمين. و كثيراً ما نحلم أن نجعل الناس تلامذة لنا في موضوع يفهونه أكثر من معلم. و هذا على أية حال، يشير إلى الأوضاع التي تكون فيها موضوعات الحديث، جديرة بكل انتباه. كثيراً ما تكون الثرثرة رديفاً للكلام الباطل، عندها لا يعود هناك من كلام يكفي للتعبير عن الشرور التي تتولد من هذه العادة الذميمة. و الثرثرة عموماً قادرة أن تشروع أبواب النفس فيفرغ القلب من الحرارة و النقوى. أما الأحاديث التافهة فلها نفس المفعول إنما بصورة أكثر فعلاً و تأثيراً. فمن شأن الثرثرة أن تشتّت انتباه المرء لنفسه، و أن تجعل القلب مجرداً من كل غطاء و حماية، و هكذا تشروع الميول الشهوانية و الأهواء، بالانسلاخ إلى النفس. و كثيراً ما يكون ذلك بنجاح، بحيث أن القلب بعد حديث تافه، لا يعود يرضي إلا بالنزوح إلى ارتكاب الأعمال الشهوانية . الأحاديث التافهة هي باب الاغتياب و الواقعية، و مروجة الإشاعات المغرضة المختلفة. و الآراء المزيفة، من شأنها أيضاً أن تغرس بذار المشاحنة و النزاع، فتخنق العمل الذهني الداخلي. إنها غطاء الجهل و علامة لانتفاء المعرفة الرصينة. بعد حديث كهذا، يرتفع ضباب عشق الذات، ليعم أرجاء النفس، فيخلّف بعد ذهابه، احساساً بالبلادة و الفشل. أليس في هذا دليلاً أن النفس قد سرقت قسرًا؟ و لكي أبين كيف يصعب على الثرثار النجاة من الأخطاء و الأذى، أسوق قولهً ليعقوب الرسول يرى فيه أن حفظ اللسان في الحدود اللاحقة به، هو من سمات الكاملين: " ان كان أحد لا يعثر في الكلام، فهو انسان كامل قادر أيضاً أن يلجم كل الجسم" (يعقوب 3 : 2). ما إن يبدأ اللسان بالكلام بدافع الشهوة، حتى ينطلق كالفرس الجامح غير الملجم فيعشى ليس فقط أعماله الصالحة إنما الضارة أيضاً. هذا ما جعل الرسول يدعو اللسان " شرًا لا يضيّط مملوء سماً مميتاً" (يعقوب 3 : 8) . و قبله بكثير قال سليمان : " كثرة الكلام لا

تخلو من معصية" (أمثال 10 : 19). ليكن كلامنا على العموم، على غرار الجامعة في أن الثرثار يبدي حماقة، والجاهل يكثر الكلام (جامعة 10 : 14). لا يطير حديثك لإنسان لا يسمعك بقلب سليم، و ذلك كي لا تضايقه فيبغضك كما جاء في الكتاب : "من يزيد الكلام مرنول" (سيراخ 20 : 8). حذار من الكلام بسلطان أو قسوة، فهذا لا يليقان، ومن شأنهما أن يجعل الناس تشك بك و بفكرك عن ذاتك، لا تتكلم عن نفسك أو شأنك أو أنسابك إلا عند الضرورة، وباختصار و بكلام قليل قدر الامكان. أما إذا رأيت من يتحدثون عن ذواتهم بإسهاب، فجاهد كي لا تحدو حذوه، حتى ولو بدت كلماتهم متمسكة و توحى بتقارب فكري. أما عن جارك و أحواله، فتكلم، لكن على قدر ما تستطيع من الاختصار، حتى ولو كان كلامك في مثل هذه الأمور لخيره و منفعته. أثناء الكلام لا تنسى نصيحة القديس ثلاسيوس وهي : هناك خمسة أوضاع للحديث إلى الآخرين، اعمد إلى ثلاثة بتميزه و دونها خوف. و ليكن استخدامك للرابع، قليلاً، لكن حذار من استعمال الخامس" (فيلوكاليا - المؤوية الأولى - 69). لقد فهم البعض أن الثلاثة الأولى هي : نعم، لا ، أو . وفهم الرابع على أنه يتعلق بالأمور غير المتيقنة. أما الخامس فهو عن الأمور التي لا تعرفها أبداً. ما معنى هذا الكلام؟ معناه أنك من جهة الأمور التي تتقين من صحتها أو خطئها أو وضوحاها، ليكن كلامك باقتناع على أن هذا صحيح، خطأ، أو واضح. أما من جهة الأمور المشكوك بصحتها ، فلازم الصمت، لكن عند الضرورة، صرّح أنها غير أكيدة، و ذلك كي يأتي حكمك صائباً . و ما تجهله، لا تنطق به أبداً و يقول آخر: لدينا خمس صيغ من الكلام: واحدة للنداء، عندما تخاطب إنساناً. و أخرى للاستفهام، عندما تطرح سؤالاً. و ثالثة لالتماس العطف، لدى التعبير عن أمنية أو رجاء. و أخرى لجزم، عندما نتكلم على نحو قاطع في أمر من الأمور. و أخرى للأمر، عندما نتكلم عن شأن ما بقوه و سلطان. من هذه الخمس استعمل الثلاث الأولى بدون تحفظ، و الرابع فنادراً. أما الأخير، فلا تعمد إلى استعماله أبداً.

ليكن كلامك عن الله بوقار، لا سيما عن حبه و خيريته. لكن انتبه في أن لا تخطئ فتسيئ إليه، و تسبب عثرة لدى السامعين البسطاء. لذا يليق بك سماع الآخرين في هذا الموضوع فتجعل كلماتهم في بيت كنز الخفي (القلب). أما عندما يكون الكلام في غير شأن الله، فاسمح لنبرات الصوت فقط أن تدخل مسمعك دون أن ينسل الفكر إلى ذهنك الذي ينبغي أن يكون موجهاً نحو الله بثبات. و إن كانت الضرورة تدعوك إلى الاستماع، كي تفهم ما يقال، أو كي تجيب برد مناسب. لا تنسى في سماعك و كلامك أن ترفع عيني ذهنك إلى الله. فكر في عظمته، و تذكر أنه لا يكف عن النظر إليك، سواء برضى أو بامتعاض، و ذلك حسب فكر قلبك و أفكارك و حركاتك. عندما تتهيأ للكلام، بادر إلى فحص أفكارك جيداً

لاسيما التي تروم التلفظ بها، وهكذا تجد أموراً كان من الأفضل التكتم عنها. فثمة أمور نظن أنه يحسن التعبير عنها، لكن من الأجدى أن ندفنها في قبر السكوت. أحياناً، ستردك هذا الأمر عندها بادر إلى التوقف عن الكلام.

الصمت قوة عظيمة في الحرب الروحية، إنه رجاء أكيد بنيل النصرة، يحبه ذاك الذي لا يثق بنفسه، بل يتتكل على الله. الصمت حارس للصلة المقدسة. انه عون كبير في التدريب على الفضائل. الصمت هو علامه الحكمة الروحية. و يقول القديس اسحاق السرياني : "حراسة اللسان لا ترفع الذهن إلى الله و حسب، إنما تعطي دفعاً داخلياً قوياً لإتمام الأعمال الخفية" (الفصل 31 من الطبعة الروسية) و في موضع آخر نراه يمدح الصمت قائلاً : " ان جعلت كل أعمال النسك في كفة، و جعلت الصمت في الأخرى، لرجحت كفة الأخيرة على الأولى". وأيضاً : "الصمت سر الدهر الآتي، أما الكلام فهو وسيلة هذا العالم".

إلا أن القديس برصنوفيوس يجعل الصمت في مرتبة تسمو على التعليم بكلمة الله، فيقول : " ان كنت كاملاً في كل ما يتعلق بالتعليم، فاعلم أن الصمت أجر، و انه أكثر مجدًا و فخرًا". يمكن للمرء أن يكون صامتاً عندما لا يملك ما يجيب به. كما و يمكن أن يصمت آخر لأنه عارف بالوقت (سيراخ 20 : 6). و يصف القديس اسحاق السرياني دواعي أخرى للصمت ، فيقول : " قد يصمت المرء من أجل مجد بشري، أو طمعاً في فضيلة السكوت، أو أنه يصمت، ليشترك مع الله في قلبه في الخفاء. وهذا الأخير لا يريد أن يشتت يقظة ذهنه أمام الله" وعلى العموم فحافظ الصمت ، عاقل و حكيم و مرهف الاحساس (سيراخ 20 : 1-5).

سأبين لك سبيلاً بسيطاً مستقيماً يوجد عليك بالصمت : واظب على هذا التدريب، و هو نفسه كفيل أن يلقنك ما ينبغي عمله، و يمنحك عوناً للمضي فيه بحرارة متزايدة. فكر جيداً، قدر المستطاع في الأضرار و النتائج الوخيمة المترتبة على الثرثرة و الكلام بدون تمييز. فكر في الثمار البهية التي تجنيها من الصمت بحكمة. و ما ان تذوق ثمرة الصمت الطيبة، لن تكون بعد ذلك بحاجة إلى المزيد من الدروس عنه.

## الفصل السادس والعشرون

### في كيفية تقويم الخيال والذاكرة

بعد أن تكلمنا عن الحواس الخارجية، سنتكلم عن كيفية ضبط الخيال و تقويم الذاكرة. فمعظم الفلاسفة يرون أن الخيال و الذاكرة هما انطباعات ناتجة عن الأمور الحسية التي رأيناها أو سمعناها أو ذقناها أو تنشقانها، أو لمسناها. فيقال بأن الخيال و الذاكرة هما حاسة داخلية واحدة، تصور و تذكر بكل ما خبرته الحواس الخمس الخارجية سابقاً. الحواس الخارجية هي أشبه بطابع بريدي، أما الخيال فهو مادته اللاصقة. لقد وهبنا الله الذاكرة و الخيال كي نستخدمها عند سكون الحواس الخارجية، و في غياب الموارد الحسية، إذ بعد أن تمر هذه الأمور على الحواس، فلتتصق بالخيال و الذاكرة \_ فلا نتمكن من تصور الأمور التي رأيناها أو سمعناها أو ذقناها أو استنشقناها أو لمسناها \_ نستطيع، إذا أردنا، أن نحرّكها في وعيينا، عبر الخيال و الذاكرة. بهذه الطريقة نفحص الأفكار كما لو كانت أمامنا حسيّاً. و إليك مثال على ذلك : ربما تكون قد زرت أزمير مرة، ثم غادرتها بعد حين. فإن أردت أن تراها مرة أخرى في وقت لا تكون فيه أمام عينيك الحسينيين، يمكنك أن تتصورها بحواسك الداخلية، أعني بالخيال و الذاكرة، فتخيلها كما هي، بكل ميزاتها المعروفة، بأبعادها ووضعها. هذا لا يعني أن روحك قد تركتك، انفصلت عنك وذهبت إلى أزمير كما يتوهם بعض الجهاز، إنما ببساطة ، ترى أزمير كما انطبع في مخيلتك.

وتخيل الأمور الحسية كثيراً ما يزعج المشتاقين على الدوام للبقاء في حضرة الله. فالتخيل و التذكر في الأمور الحسية، من شأنها أن يشتت الانتباه و يبعدهما عن الله، وهكذا تضطرب حالة الهدوء الداخلي. و نحن لا نعاني من جراء ذلك، في القيقة و حسب، إنما في الأحلام أيضاً، حيث ان فعلها يستمر لعدة أيام.

الخيال قوة تخلو من المنطق، و تعمل على نحو آلي تلقائي، خاضعة لناموس توارد الصور. نحن نعلم أن الحياة الروحية هي صورة الحرية النقيمة، و عليه، فنشاط الخيال، يأتي ليعرّق هذه الحياة. وأجد نفسي في هذا الفصل مرغماً على تقديم بعض النصح: اعلم أن الله هو فوق كل أمر حسي. انه فوق الأشكال والألوان و القياس و المكان. لا نقدر أن نتخيله، فهو بلا هيئة و شكل، رغم أنه في كل الوجود، لكنه في الوقت ذاته فوق الوجود، و بالتالي فوق كل تخيل. يقول القديسان كالبيستوس و أغناطيوس نقلأً عن القديس مكسيموس المعترف (فصل 65) : " يتذر علينا أن نتخيل الله في الذاكرة، فهو فوق العقل". نستخلص من هذا، أن ملكة الخيال في النفس عاجزة بحسب طبيعتها عن الدخول في نطاق الاتحاد بالله. اعلم أن لوسيفر (الشيطان) ، الأول بين الملائكة، كان منذ القديم فوق جنون الخيال و طيشه، حرّاً من كل هيئة و لون أو

احساس. . كان مخلوقاً لاهيولياً (1)، عقلاً لا شكل له و لا هيئه. إلا أنه لما أطلق العنان لخياله، امتلاً عقله بصور جعلته يرى نفسه مساوياً لله، فسقط من الشفافية الخالية من أية هيئه و صورة، إلى هو الخيال الكثيف، و الشهوات الرديئة، فتحوّل بذلك من ملاك غير متجسد، يخلو من الهواجس و الأهواء، إلى شيطان، يتجلّى بشكل حسي، عديد الأشكال. لقد تعرض للأهواء. و ما آلت إليه حاله، انسحب أثره على كل أتباعه. لقد كتب القديس غريغوريوس السينائي عنها يقول : ” كانت الشياطين في وقت ما عقولاً، إلا أنها لما سقطت من اللاهيولي و النقاوة، اكتسبت شكلاً ذا كثافة، و أصبح لها جسد بحسب مستوى و طبيعة الأمور التي تتميز بها أفعالها. منذ ذلك الحين، كالإنسان تماماً، فقدت البهاء الملائكي السماوي، و طردت من النعيم، كما نحن، و عرفت اللذة على الأرض، بعد أن تجسمت و اكتسبت طبيعة الأهواء الحسية (فيلوكاليا – 123). لهذا أطلق الآباء على أبليس اسم الوسوس أو الحياة (الأفعى) المتعددة الأشكال، التي تتغذى بتراب الأهواء و تربّي الخيالات و ما إلى ذلك من أسماء أخرى. أما الكتاب الإلهي فيصفه تنينياً له ذيل و رقبة و أنف و أعين و شفاه و جلد و لحم وأعضاء... (أيوب 40 ، 41) .

نفهم من كل هذا يا عزيزي، ان الخيالات و الهواجس المختلفة هي من صنع الشيطان و حيله. لذلك فهو يرحب بها كثيراً لأنها تنفعه في ضربنا و تدميرنا. لقد شبّه الآباء القديسون تلك الهواجس، بجسر تعبر عليه الشياطين القتلة، الى نفوسنا. وهناك من النفس، تحرك الخيالات و الهواجس ضدنا كما لو أنها خلية نمل، فتصير مأوى للافكار المزعجة الدنسة و كل صنوف ادناس الجسد و النفس. الله بحسب القديس و اللاهوتي الكبير مكسيموس المعترف، خلق الإنسان، ادم ، نقي العقل يخلو من تشوش الصورة و لا يتأثر بالحواس او الحسيات. لم تكن في الانسان قوة التخيّل الدنيء. لم يكن يعرف و لا يجد للحسيات شكلاً او حجماً او لوناً. كان يتأنّى بفعل قوة نفسه العليا (الذهن) (2) في روحانية و ظهارة غريبة عن ازعاجات المادة... إلا ان الشيطان قاتل البشر، لما سقط هو نفسه بتخيّلات مساواته لله، أغوى ادم بالطريقة نفسها (التخيّل)، فسقط من النقاوة اللاهيولية الخالية من الخيال، المضارعة لسيرة الملائكة، و نزل الى التعقيد الحسي و الشهوات الرديئة و الاوهام و التخيّلات، الى حالة البهائم التي لا عقل لها. دخوله في تعقيبات الحسيات، هو بهيمية لا عقل فيها و ليست هي طبيعة المقولات (الخلائق العاقلة). من يقدر أن يطلعنا عما حل بالإنسان من

(1) لا مادياً

(2) نوس

شرور و اهواه بعد سقوطه؟ لقد امتلاء قيمة الاخلاقية بالخداع ، و مفاهيمه الطبيعية، بتعاليم خاطئة. اما لا هوته فعم ارجاءه ترّهات كثيرة غير لائقة ولا معقوله. لم يقتصر ذلك على القدامي و حسب، بل شمل من بعدهم ، الذين ارادوا ان يتفحّصوا الله و يجادلوا شؤون اسراره الالهية بتخيالاتهم ، دون ان يدركون ان هذا شأن النفس العليا (الذهن)، فالله في جوهره بسيط. الا انهم تجرأوا على هذا الفحص بعقول غير نقية... فخلصوا الى الاكاذيب، بدل الحق. و من المؤسف جداً ان قلوبهم و نفوسهم قبلتها و تمسكت بها بحجة انها الحق، فتاهوا رغم كونهم لا هوتبيين. لقد جاز في هؤلاء قول الرسول : " اسلمهم الله الى ذهن مرفوض" ( رو 1 : 28). طالع هذا في كتابات القديس اسحق السرياني ، لا سيما رسالته الى القديس سمعان (فصل 55).

لذلك يا اخي، ان اردت ان تتحرر من كل هذه الاهواط و تقصي الاهواء عنك، ان كنت تفتتش عن الهرب من فخاخ الشيطان، ان كنت في توق الى الاتحاد بالله و تطمع في نيل النور الالهي ، بادر على الفور الى الحرب ضد خيالك. قاتله بما اوتتكم من قوة و عزم كي تنزع ذهنك من كل الامور الخبيثة و ذكريات الحسيات الجيدة منها و الرديئة، لأن هذه من شأنها ان تعتم نور ذهنك و تشوّش طهارتة و تجعله كثيفاً حتى في الامور اللاهوتية، فيعود الذهن الى اهواهه. في الواقع ليس هناك من هو جسدياً كان ام نفسياً \_ يقدر ان يدنو من الذهن بدون تصوير الحسيات. لهذا جاهد كي تحفظ ذهنك خالياً من كل شكل و صورة ولوّن، كما خرج من يدي الله. و كي تبلغ ذلك ، يعوزك ارجاع ذهنك الى ذاته. احصره في قلبك الضيق و في الانسان الداخلي كله. درّب نفسك على البقاء في الداخل ، سواء بالصلة الداخلية (ايها رب يسوع المسيح ابن الله ارحمني) ، او بفحص نفسك بكل عنایته و انتباه. و فوق كل هذا تأمل في الله، من هناك ، و لتكن راحتكم فيه.

عندما تريد الافعى خلع جلدها القديم، فإنها تجعل نفسها في مجال ضيق، كما يطلعننا الطبيعيون (naturalists) ، وهكذا تتحرر من جلدها. الذهن ايضاً اذا ما جُعل في طريق القلب الضيق و اقترن بصلة رب يسوع، من القلب، يستطيع ان يخلع ثوب تخيل الحسيات المقوّة، و ينعتق من صور المحسوسات، فيتنقى و يصبح جميلاً واهلاً للاتحاد بالله. و كما ان القناة الضيقة يزداد تيارها زخماً و ارتفاعاً ، هكذا ضبط الذهن بالرياضيات الروحية الخفية و يقظة الذات، تدفع عن الذهن بقوة نحو العلاء، و اليك تبيّان ذلك: اشعة الشمس المبثوثة في الفضاء و غير المتحدة بعضها، هي اقل دفئاً و نوراً منها لو اجتمعت عبر عدسات محددة ، فيكون نورها باهراً و حرارتها محرقة، هكذا عندما ينجمع الذهن (النوس) الى

ذاته في مركز القلب، فإنه يضيء ويسطع بالرياضات الخفية، و لا تبقى فيه ظلمة الاهواء، لأنه يبيدسائر التصورات الحسية، ويبدد حركات الاهواء.

هذا هو النهج الاول والرئيس لضبط الخيال والذاكرة. فممارسها يا عزيزي على الدوام، اذ بها تقوم الخيال والذاكرة اللذين هما من قوى النفس، وتبدل كل اثر او صورة او انطباع لصق بك عبر الحواس والحسيات التي تحرك الاهواء ضده، وتغذيها بآن. لكن نظراً الى فوائد هذا المنهج وفاعليته، فقد زادت صعوباته، وقلّ عدد من رغب في استخدامه. الذين يؤمنون بفاعليته يندرؤون، وقد مجّه الكثيرون، لاسيما المتعلمون والحكماء، ليس العلمانيين فقط، بل الاكليريكيين ايضاً، الذين رفضوا تصديق تعليم الروح في الاسفار الالهية وفي كتابات الاباء القديسين. ورب قال : "... اخفى هذا عن الحكماء والفهماء واعلنها للأطفال.." (لوقا 10: 21)، أما الذين لم يثقوا بفاعلية هذا العمل الداخلي، فأحجموا عن ممارسته، فأشعيا يتوعّدهم بقوله : "ان لم تؤمنوا ، فلا تأمنوا" (أشعيا 7: 9). وحينما تشعر ان التعب قد نال من ذهنك، و ما عاد قادرًا على متابعة صلاة القلب (الذهن والقلب)، فامد الى الطريقة الثانية واستخدمها: دع ذهنك يتمتع بحرية في التأمل الروحاني، سواء من الاسفار المقدسة، او من ايحاءات خلائق الله، لأن مثل هذا التأمل غير بعيد عن طبيعة الذهن الشفاف غير الهيولي. بهذا المنهج انت لا تحبس الذهن، انما تسد ظمأه بلا تشوش، و ضمن اطاره وحدوده. التأملات هذه، تحت الذهن على الرجوع الى القلب، للاتحاد بالله، عبر تذكر قداسته. لهذا السبب يقول القديس مكسيموس المعترف: "الذهن بمفرده لا يقوى على التحرر من الاهواء، بل يجب ان يتفرّغ الى تأملات مختلفة". حذار ان تنحصر في الطرف المنظور من خلائق الله، سواء كانت هذه الخلائق جامدة ام حية، او عندما ترزع تحت نير الاهواء بحسب تعليم القديس مكسيموس، حيث يكون الذهن غير متحرر بعد من النظرة الحسية الشهوانية، فبدل ان ينخطى المحسوسات، ليدخل الى الافكار الروحية الحلوة، ينجذب تحت تأثير الجمال الخارجي والتلذذ به، فيخرج بتصورات زائفة و يعلق بالشهوات، الامر الذي اودى الى سقوط كثيرين من المفكرين والطبعيين. بالمنهج الثالث يمكن ان تفسّح لذهنك بقسط من الراحة، و مفاد ذلك ان تتأمل في اسرار حياة و الآم رب: مولده في مغارة، ختانته، تقديمته الى الهيكل، مععموديته في الاردن، صومه الأربعيني في القفر، تعاليمه في الانجيل، عجائب العديدة، تجليه على طور ثابور، غسله لأرجل تلاميذه، تسليم الاسرار في العشاء الاخير، خيانة يهوذا ، الآم رب، صلبه، موته، دفنه، قيامته و صعوده الى السماء. تأمل اوجاع الشهداء و مآثر القديسين في نسائهم الشديد و الطويل الامد. و كي ينسحق قلبك و تحرّك فيه مشاعر الندامة، تأمل في ساعة الموت الرهيبة، و الدينونة المخفية، و العذابات الابدية المتنوعة، و في بحار

من النيران الدائمة، و الهاوية القاتمة، و ظلمة الجحيم، و الدود الذي لا ينام، و العيش مع الشياطين. تأمل في السلام الكامل و الفرج الذي يتعدّر وصفه الذي صار اليه الابرار في السماوات، و المجد الابدي، فكّر بالنعيم الدائم و اصوات المعتقدين. فكّر بالاتحاد الكامل مع الله و الشركة مع الملائكة و القديسين. و ان كنت تستحضر هذه الافكار يا عزيزي، و تمرّرها على صفحات خيالك، فانك ستتنعّق من الافكار الرديئة، و الذكريات الدنسة، فمساعيك ستزكيك يوم الدين، كما يقول القديس باسيليوس في البتولية: ” كل انسان، في حياته بالجسد، هو اشبه برسام يرسم لوحة في الخفاء، فعندما ينجزها، يخرج بها ليراهما الناظرون ، فينال التقریظ، ان وفق في اختيار موضوعه، فرسمه بإتقان، او ، يلام على رداءة ما قد انجز. هكذا هو كل انسان بعد الموت، فإنه يخرج الى دینونة الله، فيمدحه الله و الملائكة و القديسون، ان هو زین ذهنه و خياله بالصور الروحية و القمامات الالهية و الافكار الحسنة. او انه يخزى ان كان قد ملأ ذهنه بصور الشهوات الدنسة.

لقد اذهل القديس غريغوريوس التسالونيكي من الطريقة التي بها تؤثّر المحسوسات على النفس، بواسطة الخيال. فهـي اما ان تنير الذهن فتدعيـ بهـ الى حـيـاة النـعـيم الدـائـمـ، او تـحلـ ظـلـمـةـ العـقـلـ، فـتـقـوـدـهـ الىـ الـهـلاـكـ وـ الـجـحـيمـ (الفيلوكاليـاـ اليونانية – 969). و لـسـتـ اـقـصـدـ اـنـ تـنـهـمـكـ عـلـىـ الدـوـامـ بـهـذـهـ الـافـكـارـ وـ حـسـبـ، اـنـماـ بـمـقـدـورـكـ اـسـتـخـدـامـهـ حـيـنـاـ، حـتـىـ يـسـتـرـيـحـ الـذـهـنـ الـذـيـ اـرـهـقـ نـتـيـجـةـ لـلـتـضـيـيقـ عـلـيـهـ فـيـ القـلـبـ. بـعـدـ هـذـهـ الـرـاحـةـ، عـدـ بـهـ اـلـىـ القـلـبـ مـنـ جـدـيدـ، وـ اـرـغـمـهـ عـلـىـ المـكـوـثـ هـنـاكـ بـدـوـنـ خـيـالـاتـ الصـورـ الدـنـيـةـ، وـ اـذـكـرـ اللهـ فـيـهـ عـلـىـ الدـوـامـ وـ كـمـاـ اـنـ حـيـوانـاتـ الـبـحـرـ (الـمـحـارـ) لـاـ تـسـتـقـرـ اـلـاـ فـيـ اـصـادـفـهـ، هـكـذاـ الـذـهـنـ، فـانـهـ لـاـ يـجـدـ سـلـامـهـ الطـبـيعـيـ، إـلـاـ فـيـ مـخـدـعـ الـقـلـبـ الدـاخـليـ، فـيـخـلـدـ الـيـهـ كـمـنـ يـقـيمـ فـيـ قـلـعـةـ مـحـصـنـةـ فـيـ القـلـبـ يـرـقـبـ حـرـبـهـ بـنـجـاحـ ضـدـ الـافـكـارـ وـ الـاعـدـاءـ وـ الـاهـوـاءـ الـمـعـشـشـةـ هـنـاكـ، وـ كـثـيـرـونـ يـجـهـلـونـ ذـلـكـ. اـنـ اـخـتـفـاءـ الـاهـوـاءـ دـاـخـلـ قـلـوبـنـاـ، مـقـاتـلـتـنـاـ مـنـهـاـ، لـيـسـتـ هـيـ نـظـرـتـيـ اـنـاـ. اـنـماـ اـسـتـمـعـ لـاـ يـقـولـهـ الـربـ : ” لـأـنـ مـنـ القـلـبـ تـخـرـجـ اـفـكـارـ شـرـيرـةـ، قـتـلـ ، زـنـىـ، فـسـقـ، سـرـقـةـ، شـهـادـةـ...“ مـتـىـ 15 : 19 – 20). كذلك ليس من ابتكاري القول بأن اعداءنا يربضون بجوار القلب. الآباء القديسون يعلمون ذلك. وقد كان القديس ذيانوخوس فوتيقاً اكثرهم تحديداً حينما اعلن بأن النعمة الالهية تحرّك الانسان من خارج نحو الخير، بينما يكون الشيطان رابضاً في اعمق النفس و القلب. لكن بعد العمودية تبدأ الشياطين بالطواف حول الانسان من خارج، لأن النعمة الالهية هي التي تكون في الداخل (فيلوكاليـاـ – 76). و يذهب القديس الى أبعد من ذلك، فيقول بأن الشياطين يسمح لها حتى بعد العمودية ان تخترق اعمق اجسادنا لتبلغ الى سطح القلب، و ذلك اختباراً لرادتنا. لهذا الغرض تلوّث الشياطين الذهن بملذات الشهوات الجسدية.

القديس غريغوريوس اللاهوتي يعلّمنا الامر نفسه، فيفسّر لنا ما قاله رب عن الروح القدس الذي يبارك الانسان ليعود اليه من جديد، ف تكون نهاية الانسان شرًّا من اوائله (متى 12 : 43 - 45). و يقول القديس غريغوريوس بأن هذا يصيّب المعتمد ايضاً ان لم ينشغل بالبقاء داخل قلبه. و اليك كلمات القديس : "الروح القدس المطرود من المعتمد... يطلب الراحة هنا و هناك... فلا يجد، فيقفل عائداً الى البيت الذي سبق ان غادره. فان وجد ان المعتمد متمسك باليسوع، بحب و لهفة، و ان المسيح مستقر حيث كان الشيطان، فإنه سيتحقق في الدخول.... اما اذا عاد ورأى المكان خاويًا ولا مكان لله فيه، فإنه ينسّل على عجل، بحسب يفوق المرة الاولى، و هكذا تكون خاتمة ذلك الانسان ، أسوأ من اوائله".

لقد توحّيت اطالة الكلام كي احتّ على المداومة على جمع الذهن في القلب مع تذكرة ربنا و فاديننا، و الصلاة اليه. فأنت عندما تكون هناك مع رب، فإن العدو لا يتجرأ على الدنو، فتبقي انت منتصراً في الضيق الذي ترميك به الافكار و الافكار الشهوانية التي تداهم القلب. و اقول لك ، قبل أي شيء. ان تتيقظ ، فلا تدع خيالك و ذاكرتك تسترجع صوراً كنت رأيتها، او اموراً، كنت سمعتها، او استنشقتها، او ذقتها، او لستها، لا سيما اذا كانت من النوع المخزي غير اللائق. من السهل تحاشي القتال، بالحرص و اليقظة، إلا انه يصبح صعباً بعد استعمال الحواس. و من يجاهد، يعرف ذلك حق المعرفة. ان اعتراضك على تجربة حسية، امر ممكّن. اما اذا كنت وافت عليها، ولو مرة، فمن العسير ضبط الخيال و الذاكرة بعد ذلك. فان كنت تنظر الى وجه ما، او لا تنظر اليه، او كنت تنظر اليه بشهوة، او بدون شهوة، فهذا امر ممكّن، ولا يحتاج الى عنااء كبير. لكن بعد النظر بشهوة، لا يعود من السهل تبديد تلك الصورة التي لصقت بالذهن، و المجهود لابد ان يكون كبيراً، و الجهاد الداخلي، غير سهل. فالعدو قادر اذ ذاك، ان يلعب بالنفس كما بكرة، فيجول بك بين الذكريات، و يرميك بالأهواء المحتاجة وراءها، ف تكون في ضيق مستديم. لهذا اقول لك: تيقّظ على الدوام، و فوق كل شيء، ارصد خيالك و ذاكرتك.

## الفصل السابع والعشرون

يتوجّب على جندي المسيح الذي يرحب بحق أن يهزم أعداءه، أن يتحاشى كل عوامل الاضطراب في القلب المسيحي الذي يفقد سلامه ، لا يهدأ ، ولا يستريح ، بل يجد حسب وسعه، لاسترجاعه، وعليه أن لا يتبع لأي عارض في الحياة، أن ينال من سلامه، سواء كان مرضًا أم جرحًا أم رقاد أحد الأقارب، أو الحروب، أو الحريق، الافراح الفجائية، المخاوف والضيقات، تذكر الخطايا القديمة، و هفوات الحياة. وباختصار، كل ما من شأنه أن يثير القلب و يزعجه. وفي حال حدوث أمور كهذه، علينا أن لا نستسلم لأحساس القلق والاثارة. فالرطوخ مثل هذه المشاعر قد يفقد الإنسان عزمه وقدرته على فهم الأمور بجلاء، و رؤية اسلوب العمل الصحيح، مما يتاح للعدو أن يثيرنا أكثر، على نحو يجعل الواحد منا يُقدم على أمر خطير يتذرع شفاؤه.

هذا لا يعني أن تكون بلا غم، فهذا ليس في متناولنا، لكن ما يعني هو أن لا تجعل للكآبة سبيلاً إلى قلبك، بل أجعلها خارج قلبك ثم بادر بعد ذلك إلى تهدئتها و كبح جماحها كي لا تحول دون قيامك بالعمل اللائق والمعقول. إن هذا هو في متناولنا، بنعمة الله، عندما تكون مثلنا و مشاعرنا الدينية والمنافية راسخة فيينا.

لكل تجربة طابع خاص، و تستدعي علاجاً محدداً. و اذ ان كلامي على التجارب يأتي عاماً، فأنا اراعي الامور المشتركة في ما بينها \_ كإغاظة النفس و اثارتها \_ راسماً للذهن نهجاً علاجياً عاماً ازاءها. انه الايمان بعناية الله التي تنظم شؤون حياتنا بكل تفاصيلها و دقائقها ، و ما فيها من عوارض، لمنفعة كل واحد منا. من هذا علينا التسليم لارادة الله، برضى، قائلين من صميم القلب: لتكن مشيئة رب، كما يشاء رب، فمشيئته تعمل لخيرنا و منفعتنا. لا يتساوي الناس في مشاعرهم من قبيل الخير القائم في التجربة. فهذا يرى فيها لطف الله الذي يقود خطاه إلى التوبة. و آخر : التجربة ارسلت لي من الله بداعي خطائي، كي اتطهر، و سوف أتلقي قصاصه لي بصبر. و ثالث يرى بأن الله يجرّبه كي يمتحن قامة ولائه له. و آخر يظن\_ وهو يرى الامر من الخارج \_ ان التجربة نزلت به كيما تتجلّى اعمال الله فيه. إلا ان حكماً كهذا، لا يأتي إلا بعد عبود التجربة، فتكون معونة الله جلية في الذي جرب. علينا الأخذ بالمشاعر الاولى الثلاثة، فكل منها فضيلة لها وزنها في احمد الغم و احلال السلام في القلب عندما تلجمه. و ها امامك وسائل عامة تحل السلام في القلب عندما تحاول التجارب ان تشوشـه.

ثبت ايمانك بعناية الله بك، ساعياً بكل ما في وسعك، كي تفكـر على هذا النحو.

جدد في داخلك مشاعر التسليم السابق ذكرها، مع التكريس لمشيئة الله

اجعل في قلبك الافكار الآنفة الذكر، و أنعم فيها، كي تدرك ان تجربتك كانت لتحثّك على التوبة على نحو عام او خاص، او هي لتحثّك على التوبة عن افعال سالفة صارت طي النسيان. فعندما يشرع القلب بمثل هذا الاحساس، يتضاءل الضيق تواً، فتتولد فيك احساس اخرى، لأن تكون التجربة عقاباً على خطايا، او لاختبار الامانة في خدمة الله. و من شأن هذه المشاعر ان ترد لك سلامك و تعزيتك على عجل، فلا تقدر الا ان تقول : " ليكن اسم الله مباركاً الى الابد". ان مثل هذه المشاعر في قلب جزع، لهي كالزيت فوق صفحة الامواج، يسكنها ، فيصير هدوء عظيم. و ان اضطرب قلبك على قدر ما، جاهد كي تسترجع سلامه، فبالمداومة و الجهادات الروحية الكثيرة، تنغرس مثل هذه المشاعر في القلب، حتى يبلغ الشبع، عندها يستحيل على اية تجربة ان تناول منك، فاستعدادك يصدها بنجاح. و لست اقصد ان احساس الحزن لن تداهمك بعد الان، إلا انها متى اتت، ستنكفئ تواً، كامواج البحر امام صخرة شامخة.

## الفصل الثامن والعشرون

### ماذا نعمل عندما ننجرح في المعركة؟

ان جُرحتَ بداعي رضوخك لخطيئة ما ، سواء عن ضعف ، او من طبيعة قيمك الخاطئة (أن تتلفظ بكلمة غير لائقة ، او تفقد هدوئك ، او خامرك فكر شيرير ، او هو اضطرم فيك...) ، فلا تفقد قلبك ، فتجعله اسيراً لضوابط لا معنى لها . في الاول و قبل كل شيء ، لا تزهو بنفسك فتقول : كيف أصابني ذلك ؟ هذا كلام زهو و كبراءة . انما بادر الى التواضع و ارفع عينيك الى الله و انت تردد بكل رهافة : ماذَا يرتجي من خاطئ ضعيف مثلِي يارب غير هذا؟" بعد ذلك ارفع الشكر له ، فالامر لم يكن اكثراً مما كان ، و قل " لولا رحمتك التي لا تحد يارب ، لما توقفت حيث توقفت ، بل كنت سأصير الى ما هو أسوأ".

وفي أي حال ، لا تدمج شعورك هذا بالتساهل مع نفسك ، كي لا تسقط في طيش الفكر ، فتدعي بأنك كما انت ، وهذا يبرر خطيئتك كلا . فرغم ضعف طبيعتك ، و امكانية سقوطك ، فأنت مجرم بما ارتكبت ، لاسيما و انك تتمتع بمشيئة حرة (1). فما تقترفه ، سبق ان عرض على ارادتك . فكل خير هو لك ، و الشر يعمل ضدك . لا يبرئ ساحتك مجرد الاحساس انك ردئ ، على اساس ما فعلت . بل بادر الى دينونة نفسك ، و لا تفتئش حولك عنمن تعاته ، فالناس و الظروف التي حولك ، لا يحملون تبعية اثمك . اللوم كله موجه الى ارادتك . فبادر الى ملامحة نفسك .

لا تحذو حذو من يصرّح فيقول : اجل ، لقد اقترفت ما اقترفت ، فأين المشكلة؟ كلا ، فأنت منذ ان تتبّعه لخطيئتك ، بادر الى لوم نفسك على اساس دينونة الله المحتومة . عجل الى اضرام مشاعر الندم و الانسحاق ، و ليس بداعي انجرافك نحو الخطيئة و حسب ، بل لأنك بخطيئتك ، جرحت الله الذي لطف بحالك ، و حثك داعياً ايّاك الى التوبة و ترك الذنوب السالفة و مساهمتك في اسراره ، و قيادتك و رغaitك في الدرب القويّم كي تنمو . فخير للندامة ان تكون عميقه ، و تخلو من الشك بالغفران الذي أعد لك بالتمام من قبل ، و الخطايا التي زالت على خشبة الصليب . التوبة هي واجب كل من يطمع بعمل المسيح الخلاصي . لذا اسجد بكليلتك و اصرخ : " ارحمني يا الله كعظيم رحمتك...." ( مزمور 50 ) . لا تتوقف حتى تبلغ الندامة و تشعر بنيل الغفران ، فالملامحة و الغفران متلازمان ، ان هذه النعمة تحل في نهاية المطاف

---

Self - authority (1)

على كل تائب، و تقترن بالعزيمة و التعهد بأن لا يتسامل المرء مع نفسه مستقبلاً، بل يرصد حركاتها بدقةٍ، فيتّقي

## السقطات

الصغيرة و الكبيرة، مواظباً على الصلاة من أجل النعمة لكل اعمالنا. لقد ثبت ان عدم الاعتماد على النفس، هو الذي يدفع القلب الى طلب المعونة من الله : " قلباً نقياً اخلق في يا الله..." (مزמור 50). عليك بملامة النفس و الانسحاق و الصلاة المفعمة بترجبي الغفران، مع عزيمة توحى اليك بمراقبة النفس، لاحقاً، و الصلاة من أجل النعمة، لتنبيتها فيينا، في مسعانا، و في كل آن، عندما ترتكب خطيئة \_ من أي نوع\_ بالعين او الاذن او اللسان او الشعور. لا تدع الخطيئة تساكنك و لو لدقائق، انما بادر الى البوج بها. لا تتوانى عن تطهير قلبك بالتوبة النقية امام الله. و ان حدث و سقطت بعد ذلك، فبادر الى عمل الامر نفسه. بعد كل اثم، بادر الى طلب النقاؤة في حضرة الرب. سر الامر لأبيك الروحي في مساء اليوم نفسه، ان امكن. و إلا عجل الى ذلك في اقرب فرصة، فالاعتراف امام الاب الروحي، مفید جداً في الحرب الروحية. لا شيء يردد العدو على اعقابه، و يلحق به الهزيمة، غير هذا. فهو يتوق الى اعاقتك بكل الوسائل المتاحة، الخارجية منها و الداخلية. اما داخلياً فبالأفكار و الاحاسيس. و خارجياً، ف بتوفير الدواعي للقاءات و الامور الباطلة، لكن مهما كان الثمن، انتبه كي تكتشف الاعيبيه. سأسوق لك امراً: لا تنسى ان العدو يتلهّف جداً الى اقناعك بتأجيل النقاؤة الداخلية تواً. فهو يوجس لك بأن الخطيئة امر معروف، لكن تريث بعض الشيء، للحظة ، لا ليوم او ساعة، فأنت عندما تقبل ايحاءه هذا، فانه يبادر الى اعداد خطيئة اخرى يرميك بها. بعد خطيئة اللسان، خطيئة العين و خطايا الحواس الاخرى. و هكذا، فأنت في النهاية تتلوانى عن عمل النقاؤة من جهة الخطيئة الثانية، و يكون ذلك رغمماً عنتك. ما عليك الا ان تبادر الى تنقية الخطيئة الاولى. فالإهمال يؤول الى الواقع في خطايا اخرى، و من شأنه ان يجعل خطاياك تدوم يوماً بكماله، و عند حلول المساء تهمل اعمال التوبة و التنقية. فالنفس قد فقدت قدرتها و شوتها الى ذلك، بعد تشويش كثير، و ظلام كثير، بحيث ان النفس تكون بمثابة عين ذُرَّ فيها تراب او ماء موحل، فهي تعجز عن رؤية أي شيء، فيؤول ذلك الى اهمال التوبة، و تترك النفس في رجاستها. من جراء هذا، تكون صلاة المساء منقوصة و الاحلام رديئة. لذا، لا تتوانى في شؤون النقاؤة الداخلية و لو الى حين، بل بادر الى التوبة تواً عندما تتنبه لخطيئتك. لقد اعتاد الشيطان ان يهمس لنا التكتم و عدم الافصاح عما يصيّبنا، بالاعتراف امام الاب الروحي ، فلا تصغ اليه، بل قاومه بشدة، و بادر الى ابيك تبوح له بكل مكنوناتك، فكما ان للاعتراف منافع حميدة كثيرة، هكذا، للتكلّم مساوى و اذى ، كثيرة، تتوارد منه.

## الفصل التاسع والعشرون

في نظام الحرب الذي ينتهجه العدو ضدنا في الحرب الروحية، وكيف أنه يضل الناس بحيل داخلية مختلفة أعلم يا عزيزي، ان دأب الشيطان و هاجسه، هي افساد كل واحد منا. إلا أن طريقته الى ذلك، ليست واحدة مع الجميع. ولتبیان ذلك، سأقدم لك خمس حالات داخلية مفرونة بحيل العدو : فهو يستعبد البعض للخطيئة دون ان يكون لديهم اية فكرة عن الانعتاق منها. اما البعض الآخر، فرغم تفكيرهم بالانعتاق و رغم شوقيهم اليه، يتقاусون فلا يبلغون ما يريدون. ثمة اناس ذاقوا العتق و تحرروا من فخاخ العدو و بلغوا الفضائل، لكنهم سرعان ما سقطوا مجدداً بداعي فساد اخلاقي كبير. ثمة اناس آخرون يزعمون ، رغم كل ما ذكر، انهما مازالوا جادين في معراج الكمال. و آخرون يزيفون امام الفضيلة، إما بداعي التوانى، او لأنهم يعكفون على الفضيلة في احوال تتسبب بأذية نفوسهم. فالعدو يبسط الاعيبه امام كل واحد، وفق استعداده و حالته.

## الفصل الثلاثون

### في كيف يثبت الشيطان الخطأ في عبودية الخطيئة

عندما يحتجز الشيطان انساناً في عبودية الاثم، فإنه يروم جاهداً ان يزيد من ظلمته قدر ما يستطيع، فيضربه بالعمى الروحي، مبدداً فيه كل فكر حسن، كي يفقده القدرة على رؤية الضرر الذي لحق به. ولا يكتفي بتبييد افكار التوبة منه، وحسب، انما يستبدلها بأخرى شريرة و فاسدة، ليجعل الانسان من خلالها، يقدم على الخطيئة التي اضحت بالنسبة اليه امراً عادياً، فيحثه على ارتكابها مع أخرى تفوقها، قدر المستطاع. و هكذا يدخل هذا المسكين في عمق اكبر من ذي قبل. و من شأن هذا العمى ان يغذى فيه سرعة الاستجابة للخطيئة، و هكذا يستمر على غيبة و خطئته، فيقوده تباعاً الى ظلمة اعمق، فخطايا اعمق. و يدور المسكين في دوامة اليأس هذه، حتى الموت. الا اذا تلطّف الله بنعمة ترفعه مما هو فيه. فان حدث ان وجد انسانٌ نفسه في مثل هذه الحالة المأساوية، عليه، كي يتحرر، ان يقبل اية فكرة حسنة بمجرد عرضها عليه، فيلبي تواً أية دعوة ترفعه من الظلمة الى النور ، و من الاثم الى الفضيلة، فيتيقظ برغبة و لهفة و دونما تقاус، بغية تحقيق الدعوة بغيره صارخاً الى واهب الخيرات الجواب، من عمق القلب و قائلاً: " ايها الارب الهي اعني، و لا تدعني اتيه في عتمة الخطيئة اكثر". عليه بالثابرة دونما كلل، رافعاً الى العلاء هذه الكلمات او ما يماثلها. اثناء ذلك ، فليعدم الى طلب العون من الارض، بالاحتكام الى من عندهم خبرة النصح و الارشاد، لما فيه انفع السبل الى انعتاقه من العبودية المطبقة عليه. و في حال تعذر وجود مثل هؤلاء الخبراء (المرشدون)، عليه اقتناص الفرص، فلا يكف عن الابتهاج الى الرب المصلوب عنا و يستشفع امه القدسية العذراء.

ينبغي للرازح تحت الخطايا، ان يدرك ان النصرة على الاعداء، تكون في عدم الابطاء، و في الاستعداد النشيط للإفادة من ظرف مؤات.

## الفصل الحادي و الثالثون

في كيف يستبقى الشيطان اولئك الذين تحققوا من فداحة حالهم فرغعوا بالانعتاق، إلا انهم لا يتحركون.

و ما هي الاسباب التي تحول دون تحقيق نوايانا الحسنة، اجملالا؟

هناك من ايقنوا ان درب حياتهم الرديئة، مأساوي وخطير، الا انهم رغم هذا الارراك فالشيطان قد افلح ووفق الى احتجازهم وضبطهم تحت سلطانه، بعد ان عمد الى هذا الایحاء البسيط و الفتاك: ”فيما بعد، فيما بعد. غداً ، غداً.“  
الانسان البائس ينخدع بهذا الایحاء الداعي للتأجيل، و المتلبيس في العادة بميل حسن في الظاهر، فيبني في نفسه قائلًا：“  
اجل ، غداً هو خير من اليوم. فانا ينبغي ان انتهي من بعض الامور، لأصير بعدها بلا غم و قلق، فأضع ذاتي في خدمة النعمة الالهية، و اسلك درب السيرة الروحية بلا اعوجاج. اليوم سأقوم بكذا و كذا ، و غداً أتوب.

بمثل هذه الحيلة يعلق الكثيرون يا عزيزي، فيمسك العالم برقبابهم. و من شأن هذه الالاعيب، ان ترمي بنا في التوانى و عدم الرؤية، فيصبح اذ ذاك، مجد الله و خلاصنا، في خطر الضياع. مشكلتنا اننا لا نعمد الى السلاح الفتاك و السيف نستخدمه، و أعني : ان نقول لذواتنا بحرارة: ”سابasher حياتي الروحية منذ اللحظة هذه... سأتوب الان، لا غداً .“  
الآن” بين يدي، اما ”الغد“ و ما يليه، فعند الله. ولو ان الله وعدني بالغد، و ما يليه، فكيف لي ان اتيقّن من ابني ساحظى عداً بداع حميد يقوم سبيلي و يصلح سيرتي؟“ أليس التأجيل ضرباً من الجنون؟ ستكون حالي كحالة المريض الذي دفع اليه الدواء الناجع، لكنه قال: ”ترثثوا ، دعوني في مرضي فترة اطول“ ان من يؤجل عمل خلاصه، هو كهذا المريض تماماً. لذا فان عزمت على الانعتاق من ايحاءات العدو الماكر، ارفع في وجهه سلاحك الموثوق، مبادراً الى طاعة افكارك الحسنة على الفور، و دونما ابطاء. اغتنم الفرصة التي دفعها الله اليك ليدعوك الى التوبة. لا تتساهل مع نفسك فتقول: ”لقد عقدت العزم ان اتوب، و لن اتواني، لكن ليس الان“ كلا، لا تفعل هذا ، فمثل هذا العزم قد ثبت اعوجاجه. لقد اعتمده كثيرون، مازالوا حتى الساعة بدون توبة حتى اشرف حياتهم على نهايتها، فغابوا غير توابين . ان امراً كهذا، يُعزي لأسباب عدة:

السبب الاول هو كون عزيمتنا الشخصية، لا ترتكز على الله بالكلية، و لا تقوم على نكران الذات. فنحن لم نقلع بعد عن تبجيل انفسنا، فتكون نتيجة ذلك، ان ترتفع بركة الله عنا، في هذه الحال يكون السقوط امراً لا مفر منه، فالذي يقطع عهداً و يقول : ”غداً أقلع عن الخطيئة و لا اعود اليها“ كثيراً ما يبلغ الى نتائج معاكسة. فبدل النهوض، يتداعى الى

الحضيض، و على نحو ارداً من ذي قبل، فتنتالي سقطاته الواحدة تلو الاخرى. و الله يجيز مثل هذا احياناً و يسمح به، و ذلك كي يدرك المرء المتعز بنفسه، حقيقة ضعفه، فينهض بحثاً عن معونة الله ولا يعود يحتكم الى ذاته، مهملاً كل ثقة بها، و جاعلاً كل رجائه بالله.

السبب الثاني هو اننا اثناء عقد النية نكون في تطلع نحو الفضيلة و بهائها و التي سبق لرادتنا ان انجذبت نحوها، فمن البديهي اذ ذاك ان تغيب عنا جوانب الفضيلة الصغيرة. و اليوم ، نحن لا ننتبه الى الجانب الصعب منها، فجمالها يجذبنا، لكن بعد ان ننخرط بأعمالنا اليومية، و همومنا العديدة، فان الجاذبية تخبو رغم حضور النية، فتضعف الرغبة تباعاً. و بضعفها، تضعف الارادة، و يسوء حالها، فتحتول الى الاهتمامات الاخرى. في نفس الوقت يكون بصرنا مأخوذاً بجانب الفضيلة الصعب، فدر بها شاق بطبيعة الحال، و أصعب ما فيه هو الخطوة الاولى. افترض ان انساناً عقد النية بالأمس على المضي في حياة الفضيلة، إلا انه بدل الشروع في مسعاه ، اكتفى بعزم جديد فهو لا يرغب في انجاز الامر الاول، فالرغبة ضعفت، و الارادة استكانت ووهنت، و ما عاد يرى غير العراقيل تنبع من نفسه، او من نهج سيرته اليومية، او لعلاقاته بالآخرين، و هكذا يأتي الى القول : " أترى ثحتي الغد فاستجمع عزيمتي. و يطول انتظاره و تريثه يوماً بعد يوم، و قد يدوم العمر كله، فلا تتعجب. فرغم انه شرع بالعمل بفعل رغبة دعته الى اصلاح السيرة، إلا انه لم يقم بأمر واحد ليطيع الرغبة هذه . كذلك فإنه لم يجعل في نفسه امراً واحداً ذا هاجس مماثل، فبات في حالة من الضعف، بحيث ان ارادته تخور امام كل عائق و عرقلة.

لا مفر من العراقيل . لكن لا بد للإنسان ان يزيلها اذا كانت فيه الرغبة. لا بد من تجاوز الصعب. و كلما هم المرء بتذليلها، كلما شعر مع الوقت، انها تتناقص. بالمداومة على ذلك، يسير المرء في الخط الصحيح.

اما السبب الثالث، فهو ان اليقظة المغبوطة من سبات الخطيئة، لم تتحقق بعد، عندها لن تتوالى مثل هذه اليقظات مرة اخري، و ان حدث و تحققت، بعد سبات طويل، يكون وقعها و فعلها في الارادة اضعف من ذي قبل، فالارادة لن تنزع اليها كما كانت قبل. العزيمة ستفتر و تحتاج الى من يمدّها بالزخم و الحيوية. فالذى لا يطيع اليوم ، بل يؤجل الطاعة الى الغد، يكون من السهل عليه ان يؤجل المرأة بعد الاخرى... فكلما ضعفت الطاعة، كان التأجيل اسهل، الى ان يجيء اليوم حيث تفقد الطاعة تأثيرها فيسلّم الانسان الى السقوط، و يتحجر قلبه، و يدب اليه النفور من التداء الحسن، فيصير تأجيله سبيلاً الى هلاك ابدي للنفس.

و أضيف ان الضرر الناتج عن التأجيل، ليس فقط من جهة ما يحثنا على تغيير السيرة من السيء الى الحسن، انما يمتد الى نطاق الحياة الصالحة نفسها، لأن تناح للإنسان سانحة يقوم فيها بعمل حسن، إلا انه يرجئ ذلك حتى الغد، او أي وقت آخر . في مثل هذه الحالة، يمكننا ان نعمد الى ترداد ما ذكر آنفاً.

اعلم انه ان بدّد الانسان فرصة لعمل حسن، لن يحرم نفسه من ثمرته و حسب، انما يسيء الي الله. فلو ان الله بعث له بمحاجة، لكنه قال له : " اذهب... فيما بعد" ، فرغم ان في القول توجّهاً نحو انسان، إلا انه موجه نحو الله الذي ارسل المحتاج. و الله سيرسل للمحتاج من يحسن اليه و يسد عوزه، اما هذا الذي رفض، فسيقدم حساباً عما فعل.

## الفصل الثاني و الثالثون

### في حيل العدو التي يستخدمها ضد الدين شرعوا في السير في الطريق الصحيح

لو ان المرء غلب العرقين السابقتين فرغب بالانعتاق نم عبودية الخطيئة، و طفق يعمل دونما إبطاء، فالشرير رغم كل هذا، لا يتخلّى عنه. إنما يعمد الى تعديل خططه فيجعل المرء يتأخّر و يتعرّض عند التجارب، بغية تحطيمه .

ان الآباء الإلهيين يصفون مَن كانت حالته هكذا، و كأنَّه مطوق بالنيران من كلِّ جهة: من علوٍ، من أسفل، من اليسار و اليمين. من الأمام و الخلف. بالإضافة إلى كلِّ هذا، تنزل عليه السهام من كلِّ صوب. فالآتية من علوٍ، هي أمور تتحثّه على التنقيص من الأعباء الروحية، لا بل تركها أيضاً، و ذلك بفعل الشفقة على الذات و التراخي و الطياشة، أمّا التي من اليمين، فهي التجارب النازلة على المرء من باب أعماله و نشاطاته القويمة، فيعمد العدو إلى العبث بها و استغلالها، ليقودنا إلى الهاوية. و التي من الشمال، فهي التجارب الواضح شرّها، و التي يرمي بها العدو ليشدّنا نحو الخزي و الخطيئة. و التي من الأمام، لأنَّ يبادر إلى إزعاجنا بأفكار المستقبل، و التي من الخلف، فهي أن يعمد إلى ذكريات الأمس من أفعال و أحداث، ليوقع بنا. ان هذه الأمور و التجارب، كلُّها تهاجم النفس من الداخل، و من الخارج معاً . فمن الداخل، عن طريق صور الخيالات و التخيّلات المرسومة (المطبوعة) في الذهن عبر الأحاسيس، أو عبر إيحاءات خبيثة يرسمها العدو في القلب، و تكون في العادة مقرونة بالشهوات، أمّا من الخارج، فعبر الانطباعات التي تشكّلت بالحواس. علاوة على ذلك، يخالف أعداؤنا مع خصالنا السيئة القديمة، و طبعتنا المفسدة بسقطة آدم، و لهم غيرها أيضاً ولا يكلّون أو يتعبون بعد هزيمة أولى، بل يعمدون إلى وسيلة أخرى ليضلّلوا خادم المسيح الذي ابتعد عنهم.

عندما يعقد الإنسان العزم على ترك السبل الموعّدة ، و يتركها فعلاً، فإنَّ أول عمل يباشر الشيطان به، هو أن يبيّن للإنسان ضعفاً جديداً، (و الضعفات كثيرة)، غير الضعف السابق، فينزل عبره إلى الإنسان، لإيهامه بأنه يعمل لصالحه و خيره، و يحثّه على عدم المضي إلى المرشدين من أجل النصح و الإرشاد. لا تصدق ما يقوله إليك، فالشيطان لا يدري مَمْن يسلُك في الداخل و الخارج حسب إرشاد الآباء و تدبيرهم، حسب كهنة الرعية بالنسبة للعلمانيين، و حسب الشيوخ المجرّبين، بالنسبة لأهل الأديار، في مثل هذه الحالة ترى عينُ الأب الروحي توافق كلِّ الإيحاءات و المشورات إن كانت من العدو أم من الله، فينبئه ابنه. و لكن إن حجب المرء نفسه عن مرشديه، فسرعان ما يعمد الشيطان إلى بلبلة فكرة

و تشوبيشه و تضليله (1). ثمة أمور عدّة تبدو صالحة و حسنة، لكن داخلها شرير، فيعمد العدو إليها و يوعز للمبتدئ بها، كي يُسقطه في حبائله فيتعرّض لأخطار جسام قد تحطّمه و تودي به إلى التهلكة.

أما الطريقة الثاني التي يعمد إليها العدو، فهي أن لا يكتفي بإبعاد المبتدئ عن كل مشورة و حسب، بل يتركه في الميدان بلا معونة أيضاً. فالذي احتقر كل نصّح و ارشاد في حياته، و عاش كما يحلو له، فإنه يبلغ مرحلة يستغنى بعدها عن كل معونة خارجية، بما فيها الإلهية، من جهة تدبّر أمور سيرته، على نحو صحيح. هنا يبادر الشيطان إلى خطّته، فيحتجب عن المبتدئ، و يكفّ عن مهاجمته، فيشعر هذا المخدوع انه قد تحرّر من الأهواء، و ان ما فيه هو ثمرة لجهوده ، فيستمرّ كما هو. مثل هذا، عندما يصلّي طلباً للمعونـة، فإنه يتمتم بأسنانه كما لو كانت صلاتـه كلمات أو معادلة لا معنى لها. و المعونة لا تأتي، لأنـه لا يطلبـها. و هكذا يُترك المبتدئ لمشورة نفسه و هواه، فيسقط فريسة سهلة للعدو.

من نتائج الاعتداد بالنفس، أن يأتي بعض الناس إلى ممارسة فروض لم يحن وقتها، أو هي فوق طاقتهم. و من شأن الاعتداد بالنفس و الثقة بها، أن تمدهم بقوّة إضافية يجعلـهم ينجزـون أعمالـهم، إلى حين ، تثور بعدها قواهم، فيعجزـون عن إتمام الأمور الوسط (الطبيعـية)، ما يلبـثون أن يهـملـوها أيضاً.

و ثمة آخرون تتقدّمـ إرادـتهم الشخصية ، فيتوهـمون نـتيـجة لـغـرـورـهم، انـهـمـ قادرـونـ علىـ كلـ شيءـ. و فيـ حالـتهمـ غيرـ الطبيعـيةـ هذهـ، يـقـدـمـونـ علىـ خطـواتـ غـيرـ لـائـقـةـ: أمـثالـ هـؤـلـاءـ المـخدـوعـينـ طـرـحـواـ أـنـفـسـهـمـ فيـ آـبـارـ جـافـةـ، وـ آـخـرـونـ قـفـزـواـ منـ فـوقـ صـخـورـ شـاهـقـةـ عـلـيـهـاـ كـانـتـ منـاسـكـهـمـ، وـ الـبعـضـ الآـخـرـ أـقـلـعـ عنـ الطـعـامـ نـهـائـياـ... فـتـبـيـنـ نـتـيـجةـ كـلـ هـذـاـ، انـ هـذـهـ تـرـتـيبـاتـ العـدـوـ، إـلـاـ انـ مـنـ نـزلـتـ بـهـ التـجـربـةـ، لمـ يـدـركـ ذـلـكـ.

من نتائج الغرور أيضاً، أن يعزـوـ المرءـ كلـ نـجـاحـ، إلىـ ذاتـهـ، وـ هـذـاـ يـفـتـرضـ، انـ الـإـنـسـانـ حـرـ فيـ إـعـطـاءـ حلـولـ لـنـفـسـهـ، اوـ تعـديـلاتـ، اوـ تخـفيـفاتـ فيـ بـرـنـامـجـهـ الرـوـحـيـ. وـ لاـ رـيـبـ انـ مـنـ كـانـ عـلـىـ عـتـبةـ حـيـاةـ جـدـيـدةـ، يـواجهـ عـدـمـ تـأـقـلـمـ معـ الـاطـارـ الجـدـيـدـ. فـالـتـائـبـ حـدـيـثـاـ، تـمـرـ أـيـامـ كـالـشـهـورـ، وـ أـسـابـيـعـ كـالـسـنـينـ، وـ بـعـدـ قـيـامـ الـإـنـسـانـ بـجـهـدـ ضـئـيلـ، لـتـرـتـيبـ حـيـاتـهـ، يـبـادرـ إـلـيـهـ العـدـوـ وـ يـدـقـ رـأـسـهـ بـالـوـهـمـ قـائـلاـ لـهـ: " لـقـدـ تـعـبـتـ، وـ صـمـتـ كـثـيرـاـ، وـ قـضـيـتـ اللـيـالـيـ بـدـوـنـ نـومـ، فـهـاـ قـدـ حـانـ الـوقـتـ كـيـ تـأـخـذـ لـنـفـسـكـ قـسـطاـ مـنـ الـراـحـةـ". ثـمـ اـنـهـ يـدـعـوهـ بـالـشـروعـ فـيـهـاـ مـنـ جـهـةـ جـسـدـهـ، فـمـاـ أـنـ يـسـتـسـلـمـ المـبـتـدـئـ لـذـلـكـ، حتـىـ يـبـدـأـ بـالـتـرـاخـيـ فـيـتـغـيـرـ نـظـامـ حـيـاتـهـ، وـ يـعـودـ إـلـيـ شـرـورـهـ الـتـيـ سـبـقـ وـ أـقـلـعـ عـنـهـاـ، لـيـعـيـشـ فـيـ التـرـاخـيـ مـنـ جـدـيـدـ. انـ

العدو يستخدم مثل هذه التجارب (المذكورة) ليس في بداية السيرة الحسنة فقط، بل في خضمها أيضاً. فانظر إلى نفسك وكيف انه يعوزك القيام بكل شيء بعد مشورة. لا تنسب أي نجاح، صغيراً كان أم كبيراً، إلى نشاطك و جهودك. حذر من الانفراط أو التراخي في المسلك الروحي ، حتى ولو بدت لك سيرتك ذات همة و نشاط بفعل هذا الانفراط، أو ذلك التراخي.

اتبع قوانين الآباء الذين عاشوا قبلك، و اسلك حسب الأحكام الصالحة التي عند أهل الخبرة من معاصريك.

## الفصل الثالث والثلاثون

### في كيف يبعد الشيطان الانسان عن الأمور الصالحة و يفسدتها

ان حيل العدو لا تتوقف البتة عن تشويش نظام حياة الانسان (النظام الحسن). فالانسان إذ يقاومها وهو في الدرس الصحيح، بلا كلل و انحراف، فمن شأن هذا، أن يدفع العدو إلى ابتكار حيل أخرى مختلفة، فينصب له العراقيل و العثرات. في مثل هذه الحالة، لا يكون عمل الشرير ضد سيرة الانسان عموماً، بل يوزع حيله و ألاعيبه ضد كل شأن مسيحي يقوم الانسان به، وذلك كي يجعل جهودنا على غير اتفاق مع ارادة الله.

فمنذ أن نفتح عيوننا في الصباح، و حتى إغلاقها عند المساء، للنوم، ثمة أعمال تشغلنا ، عمل ينتهي و آخر نبدأ به، و ليس عندنا لحظة فراغ واحدة. لنفترض اننا في صحو دائم، و متيقظين إلى ذواتنا ، و لا نر�� تحت داء الكسل و التوانى، يُضاف إلى ذلك ان ذهننا و قلوبنا في وقفة صلاة أمام الله، و علاقتنا بالآخرين ، على صدق و محبة. لنفترض ان الواحد منا يجاهد ليوفق كما يليق، بين النفس و الجسد، من جهة أعمال النسك و الجهادات، أو في شؤون حياة العلمانيين العامة، إلا ان هذه كلها ينبغي أن تتلوّح الخلاص بحرث شديد و يقطة و شوق. فالله يعين الدائبين على عمل أي شيء (حسن)، على النحو الصحيح، فيرسل نعمته لهم، و يصونهم بملائكته و صلوات القديسين. رغم كل هذا، فالعدو لا يحيد و لا يغفل. فهو يسعى إلى تعكير حياتنا مع الله. و يحاول أن يضلّنا في كل عمل صالح نعمله، كي يحوّلنا إلى ارتكاب الشرور. و هذا يكون بعدة أشكال: فاما انه يسرع إلى إيقافنا عمّا هو حسن، أو انه يتدخل بعد أن نكون قد شرعنا به، و ذلك ليعرقلنا. و إذا أخفق ، فإنه يهم إلى جعل أعمالنا المجزأة، و كأنها غير جديرة بقدر أو قيمة. و إذا انغلب رغم مساعيه، فإنه لا يتورّع عن نزع قيم أعمالنا من جهة الله، و هذا يتحقق بتحريك المجد الباطل، و الزهو، فيينا.

عند القديسين يوحنا السلمي كلام عن هذه الحيل كلها: " الشياطين تنصب لنا ثلاثة فخاخ أمام الجهود التي نبذلها لإرضاء الله:

-1 تحاول أن توقف مسيرة الأعمال الحسنة.

-2 و إن هُزمت، تحاول أن تجعل أعمالنا بخلاف مشيئة الله.

3- وإن أخفقت في هذه أيضاً، فإنها تعمد إلى سلب النفس بهدوء، و ذلك بتملقنا و الهمس لنا بأننا قد أرضينا الله". التجربة الأولى تقاوم بالغيرة الملتيبة مع ذكر الموت. أما الثانية، فبالطاعة و تواضع النفس. إلا أن الثالثة، فتكون، بإلقاء الملامة على النفس و توبيتها : " فلما قصدت معرفة الذي هو تعب في عيني، دخلت مقداس الله و تنبهت إلى آخرتهم" (مزמור 73 : 16-17).

عندما تدخلنا النار الإلهية، لا تعود العادات الرديئة قادرة على النيل منا " فإلهنا نار آكلة" (عب 12 : 29). هنا يلتهم كل ثورة و حركة شهوانية، و كل عادة رديئة، و كل فظاظة وعتمة داخلية أو خارجية، في الفكر و النظر (فصل 26 - 8).

ان قلماً لا يستطيع وصف كل حيل العدو ووسائله. فتقيق في نفسك، جاماً ذهنك من أجل أمر واحد هو إرضاء الله، في الأمور الكبيرة و الصغيرة. الحياة نفسها، ستعلمك التمييز و حسن النظر في مكائد ابليس، إلا انني سأسوق مثلين أو ثلاثة في ما يعمله العدو لبلبلة نفوسنا و إفساد أعمالنا إن كانت تدوم (أعمالنا) بعض الوقت: إن قرر إنسان مريض أن يحتمل داءه برضى ، و قد تصرف هكذا فعلاً، فالعدو إذ يرى انه بعمله هذا، سيثبت على الفضيلة، لا سيما الصبر، فانه يقوم عليه، يثيره بالاضطراب ، فيجعله يعدل عن عزمه الحسن. ولبلوغ هذا المأرب، يعمد الى تذكيره بأمور حسنة عديدة كان يمكنه أن ينجزها لو كانت فيه صحته. كذلك يسعى إلى إقناعه انه لو كان بصحة جيدة، فهناك الكثير مما يمكن أن يعمله لمجد الله، و منفعة نفسه، و اخوته آن. فكان من الممكن إذ ذاك ، أن يرتاد الكنيسة، فيعظ، و يقرأ، و يكتب لخير الآخرين الخ... و مما أن يلحظ العدو ان أفكاره باتت مقبولة، حتى يعمد الى تصويبها ضد الذهن أكثر فأكثر، بتنويع صورها (الأفكار) و تنميقها. وهكذا تصير الأحساس في الإنسان، و تولد الأهواء و الضغوطات المصاحبة لها، مع كل ما ستحظى به هذه الأعمال من قبول و نجاح، هي و سواها. و هكذا يتولد في المريض حالة حزن، فمرضه يقيّد قدميه و يديه. و ما يلبث هذا الحزن أن يتحول إلى تألف، بفعل ضغط الأفكار و حرکات النفس التي من داخل، فينقلب الصبر على المرض برضى، و بدل قبوله كدواء من الله، و مناسبة تتراوّض فيها النفس على فضيلة الصبر، ها هو يراه أمراً يعطّل عمل خلاصه، فتصير رغبة الانعتاق من المرض غير مضبوطة، رغم انها ما تزال ذات قصد حسن، و هو إنجاز الأعمال الحسنة المقبولة عند الله، في كل سبيل. فما أن ينحرف الانسان (المريض) و يتبيه، حتى يعمد العدو إلى سبله، فينتزع القصد الحسن من قلبه و ذهنه، فيصير المرض راغباً بالشفاء من أجل ذاته، و ينظر حاليه و مرضه بحزن و امتعاض، ليس على انها عائق في سبيل الخير و حسب،

بل على انها الشّرّ في حدّ ذاته. و هكذا يبلغ انعدام صبره أقصى مداه، فيتأفّف ، كونه لم يُدْعِم ذاته بالأفكار الحسنة. و من شأن التأفّف هذا، أن ينزع سلامه، فيفرح العد بتعكير صفائه، و الحيلولة دون امتلاكه الصبر على المرض، برضى .

كذلك فالعدو ينقضّ ، على نحو مماثل، على المسكين القنوع بما هو فيه، فيصوّر له مقدار الخير الذي يمكنه القيام به لو كان صاحب ثروة. و على نحو مماثل يబليـل العائشين في الطاعة، سواء في دير أو غيره، فيوجـس لهم انهم سيبطئـون في النمو نحو الكمال المـرجـو، إنـ هـم تـابـعوا عـلـى هـذـا المـنـواـل (الـطـاعـة)، فـيـحـتـمـلـهم عـلـى التـوـجـدـ وـ الـاعـتـزـالـ، فـيـقـرـبـهـمـ إـلـىـ الـقـفـرـ، وـ كـثـيرـاـ ماـ يـنـجـحـ. فالـذـي قـصـدـ التـوـجـدـ وـ الـاعـتـزـالـ، سـيـتوـانـيـ، فـيـسـقطـ فـيـ التـراـخـيـ وـ الـكـسـلـ، فـيـفـقـدـ نـتـيـجـةـ لـذـلـكـ، كـلـ ماـ قـدـ اـنـجـزـهـ بـعـدـ جـهـدـ وـ عـنـاءـ فـيـ حـيـاتـهـ تـحـتـ الطـاعـةـ. وـ الـعـكـسـ أـيـضاـ قدـ يـحـدـثـ، حـيـثـ انـ الـعـدـوـ يـنـجـحـ بـإـخـرـاجـ الـمـرـءـ مـنـ وـحدـتـهـ وـ عـزـلـتـهـ، بـحـجـةـ انـهـ لـاـ تـعـودـ بـالـنـفـعـ عـلـىـ ذاتـهـ أـوـ عـلـىـ الآـخـرـينـ، فـحـيـاتـهـ بـالـخـدـمـةـ، سـتـمـتـلـيـ مـنـ الـأـمـورـ الـنـافـعـةـ لـهـ وـ لـلـآـخـرـينـ. فـعـنـدـمـاـ يـسـتـجـيبـ الـمـرـءـ لـهـذـاـ الإـيـحـاءـ، فـيـدـخـلـ الـدـيرـ أـوـ يـذـهـبـ إـلـىـ الـعـالـمـ لـلـخـدـمـةـ، فـانـهـ لـاـ يـقـومـ بـالـأـعـمـالـ الـقـطـعـ عـلـىـ نـفـسـهـ عـهـدـاـ بـإـتـامـاهـاـ، بلـ سـرـعـانـ مـاـ يـهـدـرـ مـاـ قـدـ جـمـعـ، وـ يـصـيـرـ خـاـويـ الـيـدـيـنـ.

هـنـاكـ حـالـاتـ مـمـاثـلـةـ عـدـيدـةـ فـيـهـاـ يـنـجـحـ الـعـدـوـ فـيـ غـوـاـيـةـ الـانـسـانـ كـيـ يـغـيـرـ وـضـعـهـ، بـحـجـةـ انـ وـضـعـاـ آـخـرـ، هـوـ خـيـرـ مـنـ الـأـوـلـ، وـ أـكـثـرـ نـفـعاـ مـنـهـ وـ هـكـذـاـ فـانـهـ يـضـرـبـ هـذـاـ بـطـرـيـقـةـ، وـ ذـاكـ بـأـخـرـىـ.

انـ مـنـ يـسـلـكـ تـحـتـ إـرـشـادـ مـعـلـمـيـنـ، مـنـ ذـوـيـ الـخـبـرـةـ، فـيـطـيـعـهـمـ فـيـ إـرـشـادـاتـهـمـ، بـتـسـلـمـ كـامـلـ مـعـ تـوـاضـعـ، يـسـتـطـيـعـ أـنـ يـنـجـوـ مـنـ مـثـلـ هـذـهـ التـجـارـبـ. وـ لـكـ إـنـ حـرـمـ الـمـرـءـ هـذـهـ الـمـنـفـعـةـ، لـسـبـ أـوـ آـخـرـ، يـتـوـجـبـ عـلـيـهـ الـانتـبـاهـ وـ التـمـيـزـ بـيـنـ الـخـيـرـ وـ الشـرـ عـلـىـ ضـوـءـ الـتـعـالـيمـ الـمـسـيـحـيـةـ الـتـيـ تـقـومـ عـلـيـهـاـ حـيـاتـنـاـ. فـالـظـرـوفـ الـتـيـ تـبـدوـ عـائـقاـًـ أـمـامـ مـسـيرـتـنـاـ نـحـوـ الـخـيـرـ، وـ لـمـ تـكـنـ مـنـ اـخـتـيـارـنـاـ نـحـنـ، بـمـحـضـ الـإـرـادـةـ، إـلـاـ انـهـ مـنـ اللهـ. هـذـاـ يـدـعـونـاـ إـلـىـ الرـضـوخـ بـكـلـ طـاعـةـ، لـنـصـمـ سـمـعـنـاـ عـنـ أـيـ اـقـتـراـحـ ضـدـ هـذـاـ الرـضـوخـ. فـالـلـهـ عـنـدـمـاـ يـرـسـلـ إـلـيـكـ ظـرـوفـاـ كـهـذـهـ، لـاـ يـرـيـدـكـ أـنـ تـدـبـرـ شـؤـونـكـ بـنـفـسـكـ، فـتـسـلـكـ بـحـسـبـ اـقـتضـاءـ الـظـرـوفـ فـيـ حـدـودـ الـامـكـانـيـاتـ الـقـائـمـةـ. فـسـوـاءـ كـنـتـ مـرـيـضاـ أـمـ فـقـيرـاـ، بـادرـ إـلـىـ اـحـتمـالـ مـرـضـكـ وـفـاقـتكـ، فـالـلـهـ لـاـ يـرـيـدـ مـنـكـ غـيـرـ الـاحـتمـالـ بـقـلـبـ صـالـحـ مـعـ الـانـشـغالـ بـأـعـمـالـ الـخـيـرـ. فـمـتـىـ جـاءـكـ وـ اـفـتـقدـكـ، يـجـدـكـ تـعـملـ وـ تـسـلـكـ عـلـىـ نـحـوـ سـلـيـمـ. وـ عـلـىـ الـعـمـومـ، فـرـغـبـتـكـ بـتـغـيـيرـ وـضـعـكـ، هيـ رـغـبـةـ فـيـ اـسـتـبـدـالـ الـأـصـلـحـ بـالـأـسـوـأـ

أـمـاـ إـنـ رـأـيـتـ نـفـسـكـ فـيـ وـضـعـ يـحـولـ دـوـنـ قـيـامـكـ بـالـأـعـمـالـ الـمـكـنـةـ لـدـيـكـ، وـ انـ هـذـاـ الـوـضـعـ جـاءـ نـتـيـجـةـ لـنـزـوةـ مـنـكـ، فـطـالـمـاـ إـنـكـ اـخـتـرـتـهـ لـغـرـضـ مـاـ، فـتـمـسـكـ بـهـ، وـ لـاـ تـدـعـ أـفـكـارـكـ تـجـولـ وـتـتـشـتـتـ فـيـ أـمـورـ كـثـيرـةـ، جـاءـ عـلـاـ نـصـبـ عـيـنـيـكـ

هذا الهدف الواحد لما يمكنك ان تعمله من خلال وضعك، إن أنت ثبتَ هناك. انجز أعمالك المتصلة بهدفك، بهدوء. واقنع انك إن نسبتها إلى الله، بدلًا من الاعتماد على النفس، لن يكون الزمان الذي تقضيه مهدوراً وضائعاً . فأعمالك تكون مرضية لله ، وبمثابة تقدمة تامة، بينما تكون أنت في سلام.

## الفصل الرابع و الثلاثون

### في يحول العدو الفضائل ضد الذين يمارسونها

لنقل أنك تسلك درب الفضيلة بصدق و حق، و بدون زيف نحو اليمين أو اليسار، فلا تتوهّم بأن العدو سيكفّ عن مهاجمتك. لقد تعلّمت هذا مما طالعته عند القديس يوحنا السلمي. فالعدو عندما يرى ان مساعديه قد باعه بالفشل، و انه لم يتمكّن من النيل منك، يبدأ برصدك خفيّةً، هامساً لك بتملّق: "لقد أرضيتَ الله في حياتك". هذه تجربته الأخيرة. أمّا نتائجة الاستجابة لتملّقه، فهي، في العادة، فهو بالنفس، و شعور بالأهمية الشخصية، و الرضى عن الذات، وهذه المذكورة، من شأنها أن تولّد الكبرياء و المد الباطل. و المجد الباطل يسلبنا كل قيمة، حتى الصالحة منها. أمّا الكبرياء، فيجعلنا نبغض الله. لذا، تيقّظ يا عزيزي و أبعد هذه التملّقات عنك. لا تدع لها سبيلاً إلى قلبك، و هذا يكون، برفضها منذ أن يبدأ الهمس في أذنيك. و إذا ما رُمت تفادياً الشرّ الذي يتهدّدك، اجمع ذهنك في قلبك متأنّهاً على الدوام لدحر سهام العدو. كن هناك في قلبك، كقائد جيش في ساحة الوجي، و اجعل لنفسك ركناً مكيناً محصّناً تقود القتال منه، لا تبارحه البثة. أمّا سلاحك في هذا القتال، فهو شعورك العميق، بالعدم و بالفقر، و انك أعمى، و مجرد من كل شيء، و لست غنيّاً إلّا بالضعفات و المهوّفات و الأعمال الجديرة باللوم والغباء و التفاهة و الاثم. و لدى تأهّبك للقتال، لا تسمح لذهنك أن يجول خارج حصنه، و لا سيّما حقولك و جنائزك اليابعة الثمر في الظاهر، و أعني أعمالك الحسنة. و إذ تثابر على هذه الرياضة، فلن تقوى سهام العدو على ملامستك. و إن حدث أن أصابك أحدها ، فإنك ستبعده تواً، فترميّه بعيداً عنك.

و كما ان المحاربين داخل حصن، لا يتكلّسون، بل يواصلون تدريباتهم العسكرية أو يستعدّون لتدعيم تحصيناتها، هكذا أنت أيضاً، يجب أن تتحصّن بشعورك بالعدم، و كي أكون أكثر دقة، اعمل على النحو التالي: اعلم ان ضبطك لذهنك مهما كان حازماً، سيبقى الذهن عرضة للشروع. و لا عجب ان كان في شروده يحطّ عند أعمال لك تبدو حسنة في الظاهر. فما أن يبلغ اليها، يقبض عليها تواً و يضرّها بالعجب بالنفس، على نحو يجعل الذهن ينزع من ذاته الى جهة العدو فيحاول ذلك أن يقودك كي تسير في ركبـه. فما أن تلاحظ مثل هذا، بادر إلى جمع ذهنك و قل له: "أيها الذهن: أنت مصـر على اطلاعي بأن هذا حسن و ذاك لا مضرّة منه، و ربما الأمر هكذا، لكن ما شأني أنا به؟ كنت على وشك امتداحـي. لا بأس، هـا أنا إذن صاغـية أستـمع إليـك و أنت تقرـّظـني. لكن ليـكـ في حـسابـكـ ان العـدـلـ يـقـضـيـ اـمـتـدـاحـيـ علىـ أـمـورـ خـاصـةـ قـمـتـ بـهـاـ،ـ أمـاـ تـلـكـ الآـتـيـةـ منـ اللهـ وـ نـعـمـتـهـ،ـ فـالـمـدـحـ وـ الـعـرـفـانـ هوـ اللهـ.ـ لـهـذـاـ دـعـنـاـ نـتـفـحـصـ مـاـ يـعـنـيـنـاـ وـ مـاـ

يعني الله، لنعزوه الله ما هو منه، تاركين لأنفسنا ما هو لنا. بهذا سنعرف قدرنا وقيمتنا. وإن بقي لنا من شيء نستحقّ أن نُمدح بسببه، فهيّا بنا نعاين زمان ما قبل وجودنا. أين كنّا؟ كنّا مجرّد عدم لا نقوى على شيء، مهما كان. ماذا عملنا حتى نستأهل وجودنا من نبع الحياة؟ وجودنا هبة من الله. هذه كانت البداية وقد أعقبتها خيرات متناقضة من مراحِم الله التي لا تحد. لذا، لنجعل الله أصل كل هذا. تُرى كيف بدأنا نعيش؟ نحن أنفسنا نجهل ذلك. نحن لم نكن ندرِي بوجودنا سَنِين طوال منذ مستهل حياتنا، رغم أننا كنّا في الوجود حقيقة، ثم إننا لما شعرنا بوجودنا، كنّا عاجزين عن القيام بشؤون حياتنا. إلا أن ثمة أيدي بادرت إلى العناية بنا، وهذا كان بداعِ العناية الإلهية المغروسة في نفوس أصحابها بيد رئيس الحياة والوجود. فنشأتنا وترعرعنا، وانتصبنا على أقدامنا. لم نكن نحن سبب كل ما أصلح سيرتنا. لذلك فلنجعل هذا جانبًا. لقد شرعنَا نحْيَا واثقين بذواتنا . لكن أي شيء لنا منها؟ ما الذي لنا في داخلنا؟ إنها طاقة حيوية فينا، مع وسائل استمرارنا ووجودنا . وهذه في ذاتها ليست متنًا، بل هي هبة من الله.

”ان المعرفة المباشرة عن الله هي في ذاتها هبة منه. الضمير نفسه هبة منه. العطش إلى الحياة العلوية هو منه. هذه الثلاثة تؤلف في ذاتها روح وجودنا، دافعة إلينا باتجاه السماء. أنت يا ذهني لست لي، لقد أتيتني من الله. كل ما في من قوى حيوية، الإرادة ، وما يرتبط بها، مشاعري، وما يتصل بها، القدرة على التمتع بالحياة وبما هو حولي، ليست مني، ولا يعزي وجودها إلى. جسدي بكل غرائزه ووظائفه ومستلزماته التي تحدد وجودي الحسن، ليست مني أيضًا. فكل ما في هو هبة من الله. أنا نفسي لا أنتسب لنفسي، بل الله، وعندما وهبني الوجود، حباني طاقات بالغة التعقيد والحيوية. لقد أغدق على الضمير والحرية. لقد رأى هو نفسه، انه ينبغي لي أن أسود ما هو موجود في، و ذلك بمقتضى وظائفية و قيمة كل جزء من أجزاء كيانه. فهذا كلّه لا يسمح بامتداح الذات، بل يدعو إلى إدراك المسؤوليات الجسمانية على عاتقنا. انه يدعونا إلى الخوف من الجواب على سؤاله لنا: ماذا عملنا بأنفسنا ، و من أنفسنا؟“.

لند الآن إلى وسائل الحياة. فيما حياة الجسد، وحياة النفس، وحياة الروح، لكل من هذه حاجاته إلى وسائل وجوده. وكلها في متناولنا، وهي بدورها هبة لنا من الله، وليست من تعينا وجهدنا، الهواء، النار، الماء، والتراب (الأرض) بكل كنوزها و مكوناتها و حجارتها و معادنها، و نباتاتها و حيواناتها التي تزوّدنا بما نحن بحاجة إليه، كالطعام واللباس والبيوت. و هذه أيضًا ليست من صنعنا، إنما أعطيت لنا. كل المفاهيم التي نحتاج إليها من أجل ما يحيط بنا، أشكال حياتنا اليومية، المجتمع، الحكومة ، الفنون و المهن و كل أصول العمل في كل قطاع من هذه القطاعات، كلها

سبق أن أعدّت و ليس لنا سوى أن نتمثّلها ، بدل التعب في ابتكارها و إيجادها، كل إنسان آتى إلى الوجود، آخذًاً أمور المعرفة عن أسلافه، من أين جاء أسلافنا بهذه المعرفة؟ لقد أرسل الله أناساً يمتّعون بموهوب خاصة و قوّة إرادة فقدموها اكتشافات جديدة و طوروا الحياة الإنسانية. وإن سألت أيّاً من هؤلاء المبتكرین، كيف توصل إلى هذا أو ذاك، فإنه سيقول لك: لا أعرف. لقد راودت ذهني فكرة، ما لبّثت أن اختمرت و تشكّلت . هكذا كانت، وهكذا ستكون إلى منتهي العالم. إذن وسائل حياة النفس ليست ممّا، إنها هبة من الله. وإن كان الأمر هكذا، من جهة النفس، فكيف تكون الأمور من جهة حياتنا الروحية و الأخلاقية و الدينية؟ لقد جعل الله معرفة عن ذاته في أذهان نفوسنا، و في ضميرنا، و أعني معرفة إرادته، واهبًا الجميع بالتساوي رجاء النعيم الأبدي. وهذا هو بذار حياة الروح الذي غرس فيينا و تقبّلناه، حين نفح فيها شرارة حياته الإلهية. كل إنسان، عندما يولّد، يأتي حاملاً معه و فيه هذا البذار. أما التطّور اللاحق لهذا البذار، فيترتّب بالذين يحيطون بهذا الإنسان. يا لها من بركة عظيمة يتعرّض لها، عندما يولّد المرء وسط أناس يتقنون الإرشاد إلى حياة الروح الحقيقية. لكن تأمل في ما حولك. إن لدينا معرفة عن الله الواحد الحق المعبود كثالوث. نحن نعترف ببابن الله الذي تجسّد من أجلنا و منحنا كل شيء من أجل خلاصنا، نحن نؤمن بالروح القدس الذي نعمته تحبّينا و الذي يعمل لبناء حياة الروح فيينا. نحن مغروسون في كنيسة الله، و فيها نتلقّى ما يلزمنا للعناية بحياتنا الروحية و تنميتها، و فيها نتلقّى الإلهام، كي نترجّح قيامة الموتى و الحياة في الدهر الآتي. و كل هذا هو لنا في أنقى و أبهى ترّى غنى في الوسائل التي بحوزتك لتسيير في الحياة. وهي قد تبدو لك طبيعية في ملئها، إلا أن واحداً منها ليس ثمرة لجهودك، فالكل معطى لك، و أنت مدعو إلى وليمة الحياة المعدّة من قبل. فإن كان لك ولي شيء من هذا القبيل نعتزّ به، فهو (ربّما) كيفية استخدمنا لهذه الوسائل. فإن تناولناها بصورة تامة، نقتني لباس العروس الذي به نلّج إلى الوليمة فهل في هذا مجد لنا؟ أليس حرّياً بنا أن نجزع لئلا يأتي ضيف الوليمة الجوّاد و يقول لنا: انظرواكم هي عظيمة هذه الوليمة، لكن ماذا عن لباسكم؟

و الآن، دعنا نمعن النظر عن كثب بهذا اللباس. يتألف ثوب النفس في الأساس من : استعدادات دينية و أخلاقية، مع مشاعر متتجذرة كلّها فيها، لا من أعمال فقط. لكن طالما ان هذه محتاجة فيها، فقلّما هي مناسبة لغرور أو كبرباء. إلا أن الأعمال فمنظورة، و تترافق أمام أعيننا و لما كانت أموراً اختيارية، فهي تولد في الفاعل شعوراً بالأهمية الذاتية، و الرضي عن النفس. أما تأثيرها الخارجي، فهو أن تثير شهادة المديح من الآخرين على أعمال الإنسان، الأمر الذي يعمّق

الإحساس بالأهمية الذاتية و يرسخ جذور الغرور والإعجاب بالنفس. لذا فلنفحص أعمالنا لنرى، هل لنا فيها ما يجعلنا أهلاً للافتخار بلا منازع.

لنذكر ان افتخارنا يكون فقط عن أمور تنتج عن إرادتنا الشخصية، و نقوم بذلك بمعزل عن أي شيء آخر. لكن أنظر كيف تنمو أعمالنا، و كيف تبدأ؟ إنها بعض ظروف تجتمع معاً فتؤدي إلى هذا أو ذاك من الأعمال. ان فكرة تراود ذهننا للقيام بعمل ما، فننجزه. إلا أن اتفاق الظروف ليس متى. وواضح أيضاً ان الفكر ليس منك، بل آخرون أو حوا به إليك، و هذا لا يدعو إلى المدح الذاتي. أنظر و دقّق كم هو عدد الأمور التي تقوم بها من هذا القبيل. فان دققنا في كل شيء، بضمير نقي، سنجده ان أعمالنا كلّها تبدأ على هذا الغرار، و بالتالي ليس لنا ما نعتزّ به.

و إن كنا نمدح أنفسنا على شيء ما، فذلك على أعمال لا حاجة لنا للقيام بها. لأنه مهما كانت الدوافع الخارجية و الداخلية للقيام بعمل ما، فالقرار بإنجازه يتوقف على إرادتنا. لكن ليس كل قرار من أجل القيام بأمر صالح، هو قرار صحيح. يكون القرار صحيحاً، إن جاء متفقاً مع إرادة الله، و كان ينبع من طاعة إرادته. أما ان يكون القرار إرضاء للنفس أو للآخرين، فهذا ما يجعله غريباً و رديئاً و مظلماً أحياناً يكون قرارنا بعمل ما، نابعاً من خوفنا من الناس في حال عدم القيام به.

و أحياناً نعمل و نحن نتوقع نفعاً أو رضى ما، إما الآن أو في المستقبل و طوراً نقوم بالعمل ببساطة، ليس لأننا نروم ذلك، إنما لأنّه ينبغي لنا أن نعمله. مثل هذه لا تعد أعمالاً صالحة، فهي رغم أنها ممدودة في ظاهرها، إلا أنها ليست هكذا امام الله و الضمير. لنفحص كم هي أعمالنا التي من هذا القبيل. مرّة أخرى سنجد على القول، بأنه ليس لنا ما نستحق الافتخار به.

و هكذا، و بالتمحيص الدقيق ندرك ان أعمالنا الحسنة لا تجيز لنا أن نفتح شفتيّنا للافتخار أمام الآخرين، أو أن نقرع لها بالطبلول لأنفسنا في الداخل. لكن إن تذكّرنا كل الأعمال التي نستحق اللوم عليها، الباطلة، التافهة، عديمة النفع، الضارة، و المخالفة للناموس، و التي يمقتها الله، فهي كلّها من صنعنا. فإذا تذكّرنا انها أعمال غير مقبولة، فاننا سنتذكر أيضاً ان الانسان كلّه غير جدير بالقبول.

سأضيف أمراً آخر: ما نقوم به علينا، في البيت، في العمل، في المجتمع، هو مقياس لسلوكنا، و إذا نظرنا حولنا، لا يمكننا إلا أن نقول ان سلوكنا ، على العموم، صحيح، إلا اننا لا نستطيع أن نؤكد ان وضعنا الداخلي صحيح أيضاً. فعيون الذين حولنا تؤثر في نمط سلوكنا تأثيراً عظيماً جداً . و الذين ينظرون علينا ، يرغمونا أن لا نعطي فرصة للشر

المشتعل في قلوبنا كي يظهر، فنحجب الشرّ فيبدو علينا صحيحاً لكن بدون الناس الذين حولنا ، كان من الممكن أن يكون سلوكنا مختلفاً. والأمر يصبح هكذا، عندما نتأكد ان العيون لا تنظر اليها. و يحدث لبعض الناس انه بمجرد تغيير ظروف حياتهم الخارجية ، و تمكنتهم من العيش بحرية أكثر ، أن كل ما كان محجوباً من قبل، بداعي الخوف من رؤية الناس لهم، ينفجر، و ينقلب الانسان الذي كان يبدو ذا سلوك حسن، إلى سكير فاسق ولص. فكل هذه الدوافع لم تكن وليدة اللحظة، بل كانت قائمة أصلاً، لكنها كانت تعابير مستنكرة . أما الآن و قد أطلق لها العنوان، فقد استبانة على حقيقتها. ولو ان ذلك كان كله في الداخل، فالانسان كله سيكون سكيراً وفاسقاً ولصاً ، رغم انه في الخارج، (المظاهر) ليس هكذا. تأمل جيداً، فربما تدرج أنت أيضاً في هذه القائمة. فإن كان الأمر هكذا، ولو بدرجة محدودة، فلييس لك حق في الافتخار أو قبول المديح.

وفي الختام، إن تبعت التعليمات الآنفة الذكر، يمكنك البدء بعمل دورى في حياتك. فعندما يشرع العدو بنفخ البوق في أذنيك قائلاً: يا لك من إنسان صالح... فان هذا النفح لن يجد صدي فيك، بداعي تقدير الذات و الرضى عنها، إنما على العكس سيمني بخيبة مرة و يرتد عند كل مناسبة بفعل الأفكار المتواضعه القائمة على تحقر الذات، مع المشاعر الحسنة التي فيك.

## الفصل الخامس و الثلاثون

### نصائح لغلبة الأهواء و اكتساب الفضيلة

رغم أنني أطلعتك على الكثير من الوسائل التي تستخدمها من أجل غلبة الأهواء الرديئة، بقي ثمة أمر آخر أقوله لك عنها: بادئ ذي بدء، لا تتمثل يا عزيزي، في مسألة اكتساب الفضائل، بالذين ينظمون شؤونهم الروحية على نحو يمارسون فيه فضيلة ما لمدة أسبوع، و أخرى، لأسبوع آخر.. فلا يراعون حاجتهم إلى الرياضة في هذا أو ذاك... لا ، لا تفعل على غرارهم، إنما باشر تواً إلى مقاومة الهوى الأكثر مضايقة لك، و الذي يهزمك على الدوام، و تشعر أنه يتحفّز للوثب عليك الآن. حاربه بكل ما فيك من قوة. و اجتهد أن تجعل في نفسك الفضيلة التي تعاكسه. استخدم كل الرياضات الممكنة ، و الأعمال الضرورية في هذا السبيل. ان نجاحك و فلاحك في هذا، يستتبع حياة و انتعاش سائر الفضائل الأخرى فيك. ان الفضائل لهي سلاح تتنقى به سهام الأهواء.

إن قلوبنا مليئة بالفطرة من الحسبيات الحسنة التي تخنقها الأهواء. و الأهواء تختلف و درجة استبدادها، من إنسان إلى آخر. ففي هذا يسود فلان من الأهواء، و في آخر ، يسود هوى آخر، و لفترة أطول من سواه. أما أنت، فبمجرد أن تتخلص من الهوى الرئيس، للحال تختبر أن الأهواء الأخرى ستضعف و تزول من ذاتها. وهذا إن حدث، فإن من شأنه أن يعيد الحسبيات الحسنة، إلى سابق قوتها الطبيعية، فتنتعق من الأهواء، لتقف عند عتبة القلب، متأهبة لخدمتك عندما تدعوها.

ثانياً، لا تحدد لنفسك مهلة تكتسب بها الفضائل، لا أيام و لا أسابيع ولا شهور أو سنين. لا تقل لنفسك: أعمل الآن ثم استريح ، و بعد الراحة أعود إلى عملي من جديد. لا ، ليس من راحة هنا. إنما بادر إلى إعداد نفسك للعمل الدائم. جاهد و ثابر ولا تسمح لأي ايحاء يدعوك إلى تلطيف الجهاد أو التنقيص منه. اقتد بالرسول الإلهي بولس الذي قال في أمر نفسه: "إذ أسعى هكذا، لعلّي أدرك ، ما أصبو إليه" (1 كور 9 : 26 - في 3 : 14).

ثالثاً، كن رصيناً في أعمالك، و اعلم أن التوقف للراحة، في درب الفضيلة، لا يعطي دفعاً جديداً، إنما يتّبع الهمم و يبرد الطاقة التي فيك، و يضعفها. وقد يعني هذا أن تتداعي، أو أن تتلف ما قد بنيته بعد مشقة وتعب. فأنت تتوجه اكتمال الفضيلة فيك، فتكتف عن الرياضة من أجلها، وهكذا تنقص فيك دون علمك.

لا تكن أنت هكذا، بل تيقظ بغيره و لا تغمض عينيك عن مناسبات العمل الحسن. لا تتتجنبه أن عرض عليك، بل جد في طلبه و البحث عنه بكل السبل، لا سيما ذاك الذي انجازه يستدعي جهداً و مشقة. لأننا بهذا نغلب الصعاب المزروعة في درب الفضيلة، و التي تتتجذر في نفوسنا حتى أعمق القلب.

تحاش، قدر المستطاع، الظروف التي من خلالها تظهر فضيلة النقاوة ، لكنها في نفس الوقت تمتص قدرتك إذ تثير عليك الشهوة الدنسة. خير لك أن تبعد هذه النار عنك، لئلا تحرق.

كن متعقاً و رصيناً لدى قيامك بالأعمال الجسدية، الأصوم، الاسهار، عمل اليدين... الخ. إنها أمور واجبة وأساسية، و لا تتوهم أن تقدمك في الحياة الروحية ممكн بدونها. لكن تعلم في معرفة قدرتك على الاحتمال، كي تبلغ ما تسعى إليه. و الاحتمال هو وسط بين الانحلال الجسدي، بالشفقة على الذات، و تعذيبها بلا هواة، بإجهاضها دونما داع أو ضرورة. جاهد كي تعرف بالخبرة الحية ، هذا المدى الوسيط في الأعمال ، لا نظرياً. و بادر إلى التقدم التدريجي منطلقاً مما هو أدنى نحو ما هو أسمى.

أما من جهة فضائل النفس الداخلية: محبة الله، ازدراء الدنيا، تحقيـر الذات، الاقـلاع عن كل شهوة و خطـيـة، الصـبر و التـواضع، السلام مع الذين يـمقـتونـك و يـضـطـهدـونـك، فـفيـ هـذـاـ لاـ يـطـلـبـ منـكـ حدـ وـسـيـطـ، لأنـ تـقـدـمـ هـذـهـ الفـضـائـلـ تـدـريـجيـاًـ منـ شـائـهـ أـنـ يـتـجـدـدـ فـيـكـ. أماـ أـنـتـ، فـمـاـ عـلـيـكـ سـوـىـ الـاسـتـمـارـ عـلـىـ حـثـ النـفـسـ لـلـقـيـامـ بـمـاـ تـنـطـلـبـهـ الفـضـائـلـ منـكـ بلاـ تـبـاطـؤـ أوـ تـلـكـؤـ. فيـ هـذـاـ تـكـمـنـ قـوـتـكـ وـ حـكـمـتـكـ.

رابعاً، أثناء عملك هذا، فكر بكل ما فيك من قوة، و ارادة، و اطلب من كل قلبك أمراً واحداً لا غير، و أعنـىـ أنـ تـغـلـبـ الـهـوـيـ الـذـيـ تـحـارـبـهـ فـيـ ذـلـكـ الـوقـتـ، ليـكـ هـذـاـ كـلـ شـيءـ بـالـنـسـبـةـ إـلـيـكـ، ليـكـ السـمـاءـ وـ الـأـرـضـ وـ كـنـوزـكـ كـلـهاـ وـ غـايـتكـ الـوـحـيـدـةـ. اقـتنـعـ إـنـكـ بـذـلـكـ تـخـدـمـ اللهـ وـ تـرـضـيـهـ عـلـىـ نـحـوـ قـانـونـيـ وـ لـائقـ. فـسـوـاءـ أـكـلـتـ أـمـ صـمـتـ، عـمـلـتـ أـمـ اـسـتـرـحـتـ، اـسـتـيقـظـتـ أـمـ خـلـدـتـ إـلـىـ النـوـمـ، فـيـ الـخـارـجـ أـمـ دـاخـلـ الـبـيـتـ، سـوـاءـ فـيـ الـعـلـمـ أـمـ فـيـ الـصـلـاـةـ، ليـكـ كـلـ شـيءـ مـنـصـباًـ عـلـىـ غـايـةـ وـاحـدةـ هيـ، غـلـبـةـ الـهـوـيـ الثـائـرـ فـيـكـ، وـ مـارـسـةـ فـضـيـلـةـ الـمـعـاـكـسـةـ لـهـ.

وـ كـلامـيـ هـذـاـ هـوـ عـلـىـ الـأـهـوـاءـ، الـأـسـاسـيـ مـنـهـاـ وـالـثـانـوـيـ. فـفـيـ الـحـرـوبـ الـحـسـيـةـ، رـبـماـ كـنـتـ فـيـ صـفـوفـ عـسـكـرـ يـدـيـرـهـمـ قـائـدـ أـعـلـىـ، أوـ أـحـدـ مـعـاـونـيـهـ، أوـ سـواـهـمـاـ. الـأـمـرـ نـفـسـهـ تـرـاهـ فـيـ الـحـرـبـ الـرـوـحـيـةـ. فالـهـوـيـ الـأـسـاسـيـ لـيـسـ دـائـمـاـ هـنـاكـ، فـكـثـيرـاـ ماـ يـرـسـلـ إـلـىـ الـمـيـدانـ مـنـ يـنـوبـ عـنـهـ، وـ يـكـوـنـ الـقـتـالـ ضـدـ الـأـهـوـاءـ، لـاـ ضـدـ الرـئـيـسـ. إـلـاـ أـنـ النـصـرـةـ هـيـ الغـايـةـ فـيـ هـذـهـ الـحـالـ.

خامساً، ثابر على معاادة كل الملاذات الدنيوية المتولدة عن التراخي و الكسل. فإن كنت هكذا ، فأنت أقل تعرضاً للهجمات و التجارب، ليس فقط الجسدية، بل الشهوانية عموماً، و التي من شأنها أن تمد جذورها حتى التراخي و الكسل. فعندما تقطع الكسل و تبتز التراخي ، تصبح الأهواء بدون قوة (عجزة)، و تفقد ثباتها و استبدادها حتى تستأصلها. لا تتسامل مع الفكر الذي يدعوك إلى التهاون و اختبار اللذة أو تذوق متعة واحدة فقط. فالمتعة هذه، و ان كانت غير مذمومة، إلا أن قبولها هو بداعي الشفقة على النفس. فإن حصل و تراخيت، ستتحرك الأهواء رأسها و تتحرك فيك كالدود عند انسكاب الماء عليها، و لا غرابة أو عجب ان ثارت احدها، على نحو يكون الجهاد ضدها صعباً و عسيراً، و النصرة غير أكيدة. لذا لا تنسى كلمات الكتاب التالية : " من يحب نفسه يهلكها (أي من يحب نفسه، هو إنسان يهلك نفسه)"، و من يبغض نفسه في هذا العالم، (أي الذي لا يتتيح لنفسه فرصة للتراخي و الشفقة)، يحفظها إلى حياة أبدية" (يوحنا 12 : 25). إذن أيها الأخوة، نحن مديونون ليس للجسد لنعيش بمقتضاه، فالعيش للجسد يؤؤل إلى الموت. أما ان كنا بالروح نحيي أعمال الجسد، فسنحيا (رومية 8 : 12-13).

سادساً، و في النهاية أؤدي إليك هذه النصيحة الأخيرة: من النافع جداً، أو بالحرى من الضرورة القصوى بمكان، أن تبادر بادئ ذي بدء إلى اعتراف عام \_ بكل يقظة و انتباه، بكل الرياضيات الواجبة، و فحص للنفس مرات و مرات مع يقين و عزيمة \_ انك بهذا تمثل بقناعة راسخة من وقوفك في حضرة نعمة الله، مصدر كل الموهب الروحية و الفضائل وكل نصرة.

## الفصل السادس و الثلاثون

### في ترتيب اكتساب الفضائل

يتوجب على جندي المسيح الحقيقي، المعم برغبة الوصول إلى منتهى الكمال، أن لا يضع حدوداً للجهاد من أجل بلوغ النجاح الكامل في كل شيء. لكن في الوقت نفسه، عليه أن يوازن خطواته و يوجهها بفعل حرارة روحية قائمة على الحصافة والتميز، لا سيما في مستهل الدرجات. فثورات روحية كهذه، من شأنها أن تثور بقوة لا تصاهي، ما تلبث أن تخفت وتضعف تدريجياً حتى تنطفئ، تاركة إيانا مرهقين في منتصف مسیرتنا. الفضائل الجسدية يمكن اكتسابها شيئاً فشيئاً بالصعود كما على درجات سلم. كذلك ينبغي أن نراعي نظاماً تدرّجياً في فضائل النفس الداخلية. بهذا ينمو القليل الذي لنا، و يدوم فيينا إلى الأبد. مثال على ذلك: في مسيرة اكتساب فضيلة الصبر، يستحيل البدء فوراً بالترحيب بالظلم الواقع علينا، أو قبول الاتهامات، و كل أشكال الحزن الأخرى، فنبحث عنها، و نسر بها. فهذه درجات رفيعة جداً من الصبر ، ولابد دون بلوغها، من الارتفاع بدءاً من الأسفل، و أعني: اتواضع و اذلال النفس إلى درجة اعتبارها تستحق كل ملامة و اهانة. يضاف إلى ذلك غلبة أحاسيس الرغبة بالثأر، و هي عنيفة، فتمح أصغر فكرة إلى الانتقام... الخ. علاوة على هذا، أنصحك بعدم التدرب على كافة الفضائل دفعة واحدة، أو حتى على قسم منها. إنما ثبتت نفسك في واحدة، و منها تصير النقلة إلى أخرى. بهذا تتتجذر فيك الفة الفضيلة بيسير و ثبات. و بالثبات على فضيلة واحدة، ينشغل الذهن بها، و يلتزم بالتأمل فيها دون سواها. و من شأن هذا، أن يؤدي إلى بلوغها و اتقانها، و تكون ارادتك مستعدة و توقة، الأمر الذي يساعد كثيراً في اتقان التآلف مع الفضائل و اكتساب مهارات عملية في وسائلها و أحوالها. و هذه النتائج لا نترجمها ان كنا عاكفين على فضائل عدة، دفعة واحدة.

كذلك فالتقرب و التشابه في أمور الفضائل أمر حاصل، و اتقانها سيسهل النقلة من الواحدة إلى الأخرى، بأقل قدر من الصعوبة، مقرونة بأكبر سرعة ممكنة. فالفضيلة تقوى الفضيلة القريبة منها، و تساندها و بمجرد قيامتها في القلب، تساعد على اقتباع مثيلاتها، فتكون كل فضيلة تكميلاً لفضيلة أخرى. و نحن نعرف من الخبرة، أنه إذا روّض المرء نفسه على فضيلة واحدة، بجد و اخلاص، و امتلكها جيداً، فإنه سيتعلم ليس فقط كيف تدين له الفضائل الأخرى، إنما ستزداد خبرته مع الأولى أيضاً. فالأولى ستدعيم كل الفضائل اللاحقة، و تشتد أزرها. فالفضائل متماسكة ، ولا تنفصل أحدها عن الأخرى. إنها كحال الإشعاعات الصادرة عن النور الإلهي نفسه.

## الفصل السابع و الثلاثون

ما هي الاستعدادات المطلوبة لاكتساب الفضائل عموماً و كيف يكون التدريب من أجل كل واحدة منها؟

على من يرغب في اكتساب الفضائل أن يكون كبير النفس، متين الارادة، جسوراً و ذا عزم ثابت لا يعرف الفتور والتواني. و ليعلم أن صعوبات عديدة تتربص به، و الجهادات الشاقة تنتظره، و ذلك لكي يكون مستعداً لتحملها و القيام بأعبائها بحزم و ثبات. و عليه، فينبغي أن يحب كل فضيلة بحرارة، و أن يصبو إلى السيرة الفاضلة، فيكون ذا غيرة متقدة تخوله أن يبلغ إليها. و ينبغي أن تكون قوته قائمة في درب الفضيلة المضنى و الصعب. ينبغي أيضاً أن يكون حاراً بالروح، كي لا يضر به الضعف، فيبلغ به مبلغاً يتوقف معه عن السعي. لذا لا تهمل غيرتك، بل اجعلها متقدة على الدوام نحو الفضيلة. ليكن قلبك مفعماً بمحبة السيرة الفاضلة المرضية لله. كم تكون الحياة الفاضلة سامية و جميلة في حد ذاتها. و كم هي ضرورية ونافعة لنا؟ إنها بداية كمالنا و نهايته. من أجلها هي بداية كمالنا الحقيقي و نهايته، كذلك فإن بداية تقدمنا و نهايته فيها أيضاً.

لذا حاول كل صباح أن تفحص ذاتك جيداً، و توقع الظروف المحتمل أن تصادفها أثناء النهار، إذ من شأنها أن تتيح لك الفرصة للقيام بعمل حسن. أرفق ذلك برغبة ثابتة و عزم أكيد بأن تنتفع من هذه الظروف بدون فشل. و في المساء افحص ذاتك فيما إذا كانت الأفكار الحسنة و الرغبات الصالحة التي كانت فيك عند الصباح، قد تحققت، وكيف تم تحقيقها. و في الصباح التالي، جدد النوايا ذاتها مع الرغبات بغيرة نشيطة ورغبة حارة، جاعلاً نصب عينيك أن تتحققها كاملة.

حاول أن توجه كل شيء شطر ممارسة فضيلة محددة، كالتي عزمت على اقتناء برకاتها لنفسك. و في الحاضر اتخذ لك سيرة القديسين قدوة، مع التأملات في حياة و الآم ربنا يسوع، و سواها من الأمور الضرورية المناسبة، للحصول على النجاح في الفضائل و السيرة الروحية. وجه كل هذا نحو الفضيلة التي انشغل بها قلبك. و حاول في الوقت ذاته أن تستفيد من الأحداث العابرة اليومية، مهما تعددت . و هذا ليس كي تمنعها من افساد ترتيب رياضتك في الفضيلة التي انشغلت بها، إنما كي تكون هذه الأحداث سبباً لتدعم و ترسikh الفضيلة فيك. أما الحد الأقصى لثل هذه الممارسة، (العادة) فهو أن تبلغ إلى حالة تكون فيها أعمالك الفاضلة الخارجية منها، والداخلية، بنفس السهولة و الجموزية، لأعمالك السالفة التي عاكستها. و بالحربي أن تكون بنفس السهولة التي بها نشيع احتياجات وجودنا الطبيعية. و هذا

يعني أن تكون أعمال الفضيلة ، جزءاً من طبيعتنا. و سوف أذكرك بما قلته، انه كلما كثرت العراقيل التي تصادفها، الخارجية منها والداخلية، في دربنا إلى الفضيلة، تزداد السرعة و العمق التي تمتد بها جذورها في نفوسنا. و هذا يكون في حال رغبنا بالتغلب عليها، بعزم ثابت، و بدون تساهل مع الذات.

إن مطالعة الأقوال المناسبة من الكتب الإلهية، أو مجرد تردادها في الذهن، لهي في ذاتها قوة عظيمة في فعلها، تقدر أن تطبع فيها صورة الفضيلة التي ننشد، و تحرّك الشوق إليها من القلب، وهذه خير معونة نستمدّها في شوقنا إلى الفضيلة.

لذا فتش في الكتاب المقدس عن مقاطع تختص بالفضيلة التي تبغي، واحفظها عن ظهر قلب، حتى تمثل بين يديك. ردّدها باستمرار قدر المستطاع، لا سيما عندما يبادر الهوى المضاد إلى التحرك فيك. مثال على ذلك: ان كنت تعمل طمعاً في فضيلة الصبر، عليك أن تنتقي و تحفظ غبياً المقاطع التالية من الكتاب : (بطيء الغضب كثير الفهم)

(أمثال 34 : 29). (رجاء البائسين لا يخيب إلى الدهر) (مزמור 9 : 18) (الويل للذين تركوا الصبر) (سيراخ 2 : 14) . (البطيء الغضب هو خير من الجبار، و مالك روحه، خير من يأخذ مدينة) (أمثال 16 : 32) . (بصبركم

تقتنون نفوسك) (لوقا 21 : 19) (الناхض بالصبر في الجهاد الموضوع أمامنا) 0 عب 12 : 1). (ها نحن نطوب الصابرين) (يعقوب 5 : 11). (طوبى للرجل الذي يحتمل التجربة ) (يعقوب 1 : 12) .

(أما الصبر فليكن له عمل تام) (يعقوب 1 : 4). (لأنكم تحتاجون إلى الصبر) (عب 10 : 36). أضعف إلى هذه، صلواتك الموجزة التالية و التي على شبهها : " يا الهي متى يتخلّى قلبي بالصبر؟ متى احتمل كل مذمة بقلب غير مضطرب حتى تبتهج في يا الله" . " علمني يارب كيف أربح بالشدائد التي تجعلني أقتدي بك يا يسوع، يا من احتملت الآلام من أجلي. آه يا يسوع، أعطني ولو إلى حين أن أحيا بلا اضطراب بين ألواف الضيقات من أجل مجده" .

" طوبى لي ان كنت أضرم الشوق إلى الاحتمال وسط نيران الشدائيد مشتهياً شدائداً أعظم، وعلى نحو أعظم. و من أجل أحراز تقدم في الفضيلة، ينبغي أن تكون هذه الصلوات و مثيلاتها، بروح التقوى و الإيمان، لأن مثلها هي حسب قول النبي : " طرقاً إلى هياكل الله في القلب" (مزמור 84 : 5) ، فتتمثل بالإيمان والرجاء من القلب و تصعد إلى العلاء لتبلغ

سمع الله (مزמור 38 : 10). " هذه هي الصرخات التي يسمعها الله و إليها يستجيب ...." (مزמור 5 : 2). لكن على الإنسان، إضافة إلى هذه، أن يضيف شعورين مرهفين قوين، هما بمثابة أجنحة للصلة:

1- الله يبتهج عندما يرانا نجتهد إلى بلوغ الفضيلة

2- و إذ نمتلئ بكل شوق لبلوغ كمال الفضائل، لا نتوخى غير ارضاء الله.

## الفصل الثامن و الثلاثون

### يجب ممارسة الفضيلة بثبات و اجتهاد

في الجهاد من أجل اكتساب الفضائل، ينبغي العمل دائمًا بالامتداد إلى ما هو قدام (فيليبي 3 : 13) . و هذا ان كانت الرغبة في الوصول الى النجاح بسرعة وعلى عجل. فالتوقف، ولو لأمد قصير، من شأنه أن يرمينا، فنسقط للحال. و حيثما الاهتمام و التوانى في الجهاد، هناك تشرئب رؤوس الأهواء، لتعتلن في حياتنا، رغم أنه سبق لنا أن هزمناها و طردناها. فهي تؤثر علينا عن طريق قابليةنا للمحسوسات، و تساهلنا مع النفس، فتنزل بنا الطيش، مع حركات و شهوات داخلية، لاسيما عندما يرافقها محيطنا الخارجي. وهذه الحركات التي من داخل هي التي تفسد أمورنا الحسنة. و ما يؤذينا ، هو الحرمان من عطايا النعمة، التي بدونها، لا نمتلك أي شيء حسن، ولا نحرز أي تقدم في الشأن الروحي.

و ينبغي لك أن تعلم، أن المضي في درب السيرة الروحية، ليس هو نفسه الدرج الذي نسلكه على الأرض، لأن المحطات التي يقوم بها المسافر أثناء رحلته، لا تفقده شيئاً من المسافة التي قطعها. إلا أن توقف المسافر في درب الفضيلة عن المتابعة الروحية، من شأنه أن يفقده الكثير من الفضائل التي سبق له أن جناها. وفي حالة السفر، كلما تقدم المسافر كلما أنهكه التعب. أما في السفر الروحي، فكلما تقدم إلى الأمام ، كلما جنى قوة أكثر، تحفذه على تقدمه التالي.

ومفاد ذلك، أن جهادات درب الفضيلة تخفض المقاومة من الجهة الدنيا، و أعني الجسد الذي يعرقلنا في درب الفضيلة، و يعاكسنا إذ هو يناهض الروح و يعاكسها، بينما يتقوى الجانب الأعلى، حيث ترتفع الفضيلة وأعني الروح، فيتشدد المرء، أكثر فأكثر. لهذا فكلما أفلحنا في الفضيلة والخير، كلما صغرت الصعاب المؤلة التي تصادرنا لدى المضي في هذا الدرج. أضف إلى ذلك أن عذوبة سرية داخلية تناسب إلى قلوبنا آتية من الله، ما تطلب أن تتزايد شيئاً بعد شيء. فكلما تقدمنا نحو الأمام بإرادة أمنن، فإننا نعرّج من فضيلة إلى أخرى، حتى نبلغ ذروة الكمال الروحي، حيث تبادر النفس إلى ممارسة شتى أنواع الصلاح، بجهوزية و شوق و غبطة طبيعية، فقد غلت الأهواء، و ابتعدت عن كل ما هو حسي، لتحيا الله، حيث أنها في خضم جهاداتها و أعمالها الروحية، تتذوق عذوبة السلام، بلا انقطاع.

## الفصل التاسع و الثلاثون

### على المرء ألا يتتجنب الفرص التي يصادف، من أجل أعمال الخير

إن كنت تود السير قدماً في درب الفضيلة دون توقف، فاحرص على السانحات المتاحة لك لكتسب الفضيلة، و لا تدعها تهرب منك. فالذين يتحاشون، قدر المستطاع، كل صنوف الصعب التي تبرز في درب الفضيلة، إنما هم أناس عديمو الخبرة. فالصعب هي التي تساند المرء في الفلاح و التقدم، فإن أردت اكتساب فضيلة الصبر، فلا ينبغي أن تتحاشي الناس و الأمور و الأحوال التي يمتحن فيها صبرك بشكل دقيق. إنما بادر إلى مقابلتهم بإرادة حسنة، مصمماً على تلقي ازعاجاتهم، وكل سوء آخر، بهدوء و ثبات. فيبدون ذلك، يستحيل تقدّمك في الصبر. عليك أن ترضى أي عمل يضايقك، سواء من ذاته، أو بحكم كونه مفروضاً عليك من انسان تمجه، أو لأنه يزج نفسه في أمور تحبها حقاً. بكلام آخر، عليك مواجهته، لا تحاشيه. قم بالعمل حتى تنهيه، كما لو أنه أحبّ الأعمال الى قلبك، لا تدع قلبك يضطرب البتة بحجة أنه لو أتيك فعلت ذلك ستكون في سلام مطلق. بدون مثل هذه المواجهة، لن تتمكن من احتمال الشدائـد، و لن تجد السلام الذي تنشـد، فسبب هروبك من الصعب، هو في الأساس شفقة على الذات و القلب العالق بالشفقة هذه، لن يعرف السلام.

أدعوك إلى القيام بالأمر نفسه من جهة بعض الأفكار التي تداهمك حيناً، فتزرع الاضطراب في قلبك عبر ذكريات اساءة أحد إليك، أو عبر شؤون الآخرين المنحرفة، لا تسمح للأفكار أن تطيح بك، بل دعها تهجرك من ذاتها، لا بفعل معارضتك لها. وهذا يكون بالصبر الذي به تتقبل الذين يضايقونك و يؤلونك. في الوقت نفسه ستتعلّم أن تحتمل المكاره بصبر. وعموماً ، فإن من يوعز إليك بالأحجام عن هذا التفكير، إنما يحثك حقيقة على كسر قوة الشوق الذي تحمله نحو الفضيلة التي تبغي. أما في حالة الايافع غير المجرّبين في الحروب، فمن الأفضل أن يهربوا من الضيقـات العابرة، ولا يكتـروا لها، من أن يعرضوا نفوسهم إلى مؤشراتـها، فيقعـون في حـبائـلـها، لكن حتى في مثل هذهـ الحالـةـ، لا يـنـصـحـ المرءـ بـإـدارـةـ ظـهـرـهـ للـهـرـبـ. فمنـ الأـفـضـلـ لـهـ أـنـ يـقـابـلـ الـهـجـومـ بـيـقـظـةـ وـ حـذـرـ، وـ فـيـ وـقـتـ آـخـرـ لـاـ يـكـرـثـ لـهـ الـبـتـةـ. وهذا منوط بـ درـجـةـ التـقـدـمـ فيـ الـفـضـيـلـةـ وـ الـقـامـةـ (ـالـرـوـحـيـةـ). أماـ منـ جـهـةـ الشـهـوـةـ الـجـسـدـيـةـ فـقـطـ، فـلاـ يـنـصـحـ الـعـمـلـ عـلـىـ هـذـاـ النـحـوـ: فـهـنـاـ يـتـوجـبـ الـهـرـبـ مـنـ كـلـ الـمـنـاسـبـاتـ الـتـيـ مـنـ شـائـنـهـاـ أـنـ تـضـرـمـ هـذـاـ الـهـوـيـ بـدـاعـيـ زـيـغاـنـهـ، وـ بـدـاعـيـ مـكـرـ الـعـدـوـ الـذـيـ يـعـرـفـ كـيـفـ يـمـوـهـ حـرـكـاتـ الشـهـوـةـ الـجـسـدـيـةـ، فـيـسـتـمـيلـ الـإـنـسـانـ إـلـىـ اـشـبـاعـهـاـ.

## الفصل الأربعون

### على المرء أن يحب الفرص الصعبة من أجل ممارسة الفضيلة

لا تهرب أيها العزيز، مهما كان السبب، من الفرص التي تتاح لك، كي تكتسب الفضيلة، إنما على العكس ، فبمجرد أن تعرض عليك السانحة، اقبلها بعبطه، معتبراً ايها خير الأمور التي ينبغي قبولها بترحيب، رغم الكآبة و عدم الراحة التي تنتج عنها. وأنا أرجو بنعمة الله و عونه، أن تعمل هكذا، ان جعلت في نفسك الأمور التالية:

أولاً، تأكد أن خير وسيلة، بالنسبة اليك ، بها تقتني الفضيلة، هي هذه الظروف المتاحة لك من الله، لمساندتك في اكتساب هذه الفضيلة أو سواها. فأنت حينما رغبت بفضيلة محددة، لابد أنك قد سبق أن صليت إلى الله طالباً ايها منه.

أيضاً لابد وأن تكون قد صليت من أجل الوسائل التي بها ستكتسب هذه العطية. إلا أن الله لا يهب الصبر قبل تجاربه، و لا التواضع بدون الظروف المرتبطة بالإهانات و التحقيق. فالله أرسل لك هذه الوسائل الناجحة، استجابة منه لصلاتك من أجل الفضائل. فأنت حينما تهرب منها، فأنت ترفض عن الله الذي طلبته عبر الصلاة، و تهزا بعطایا الرب . لذا رحّب في قلبك بسرور، بكل فرص الفضيلة التي تتعرض سبilk، و ينبغي أن يكون سرورك بها على قدر صعوبتها. ففي مواقف كهذه نجني شجاعة كبيرة للعيش بمقتضى الفضيلة، و نتزود بطاقة اخلاقية هائلة، فنسير بخطى كبيرة في

الдорب الروحي، و هذا دأبنا و غایتنا.

و أنصحك باستخدام الظروف الهامة و المواقف الصعبة العسيرة، من أجل اكتساب الفضيلة. و بالطبع لا أعني هنا أن تقلل من شأن الظروف الأقل أهمية، أو المواقف الأقل تعباً و صعوبة، فتسلك نحوها كمن يغض الطرف عنها. لا ، لا ، لا تتجاهلي عن أية سانحة، كبيرة كانت أم صغيرة، و ذلك لكي تعمل في الفضيلة بلا انقطاع. وعلى سبيل المثال، عليك أن تحتمل ليس فقط الاساءات العنيفة، أو الاهانات المروعة، بل أيضاً اللكمات و الضرب و اللطمات، مع نظرات الاحتقار و التعابير المزرية، والكلمات النابية، التي تقال فيك. فمثل هذه المواقف الأقل أهمية، هي الأكثر شيوعاً . و استجبتنا لها، تصون أخلاقيتنا، و تبقينا في جهوزية دائمة، و هكذا نتزود بالقوة الكافية، للسلوك كما يليق، في الظروف القيمة لها، تصون أخلاقيتنا، و تبقينا في جهوزية دائمة، و هكذا نتزود بالقوة الكافية، للسلوك كما يليق، في الظروف الهمامة و الصعبة. أما ان أهملنا هذه السانحات، فإن قوتنا الأخلاقية تضعف، فنصبح أكثر ضعفاً أمام مواجهة الأمور الهمامة.

ثانياً، ضع في ذهنك أن الأمور العابرة تجري بمقتضى مشيئة الله ، و لخيونا و فائدتنا، و ذلك كي نجني من دراستها، ثمرة روحية معينة. هذا علماً أنه لا يمكننا أن نفترض بأن أموراً ، خطایانا و خطایا الآخرين، تمت بمشيئة الله. نحن

لا ننكر أنها بسماح منه، وهي بمثابة وسائل تلفتنا و تقودنا الى التواضع، كي ما نتظاهر بالمعاناة و التعب، سواء تلك الناتجة عن آثامنا، أو التي يرسلها الله عبر الآخرين، كي ما نفوز ببركة الفضيلة التي نصبو إليها، ان كنا نحتملها كما ينبغي. الأمر نفسه ينطبق على أحكامه الأخرى المخفية فينا، و التي هي بدون شك، محققة و مباركة.

وهكذا، اقتنع بأن الله نفسه يربدك أن تحتمل التعب و الحزن النازل بك، سواء كان من طبيعة الآخرين الشريرة، أو من أفعالنا نفسها. لا تفكر على غرار ما يفعل البعض. لا ، ان هذه لم تأت من الله، إنها الظلم و الإثم، و الله لا يشاء الإثم، بل يبعده مع كل مرتكبيه. بهذا يبرر الناس قلة صبرهم و انفعالات الغضب التي رزحوا تحت تأثيراتها، و مشاعر الانتقام التي يحسون بها لدى رؤية الظلم . لكن الحقيقة أنهم بذلك يبعدون ترتيبات الله، و ينفرون منها، و يحاولون أن يطروا عليهم صليب معطي الحياة، الملقي عليهم من الله، لخيرهم، بدلاً من حمله بقلب صالح، كي ما يرضوا الله. ماذما يجرون من هذا؟ هم غير قادرين أن يلقوا عليهم صليبيهم، بل يضيفون إليه حزناً و غماً و ثورة لا طائل تحتها، و تصير حالتهم غير محمولة، فيسيئون إلى الله، ولا يفوزون بالسلام. فيما لو أنهم احتملوا ما أصابهم، بقلب صالح، يصيرون في سلام قائم و يستمبلون حب الله لهم، فيأكلون ثمار الروح، بمعنى. لذا أجعل هذا قاعدة لنفسك: عندما تقابل الظلم و الاهانات و الهجمات، لا تكتثر لها مهما كانت خطيئة من يسيء إليك. إنما أجعل انتباحك على أمر واحد فقط، هو أن الله سمح بهذا، لمنفعتك، وأنك بالتعمادي في قلة الصبر و الثورة و الخصومة، ستحرم نفسك من هذا الخير. لا تحاول أن تحلّ في السبب الذي من أجله سمح الله بذلك. أما تعتقد أن الله محق و رحوم؟ أقتنع من هذه المناسبة أيضاً أنه يعلن لك عدله و رحمته، رغم أنك لا ترى كيف. تذكر كيف أن الرب يبارك الذين يسلكون هكذا: " طوبى للذين آمنوا ولم يروا" (يوحنا 20 : 29). أما تعتقد أن كلمات الله: " احمل صليبيك" ، تعنيك أنت شخصياً؟ إن كنت تؤمن بهذا، بادر إلى حمل صليبيك الذي جعله على عاتقك في الشدة الحاضرة. لا تقل إنه صليب ثقيل جداً، فالرب يعلم مقدار احتمالك وقوتك. فهو يرسل لبعض الناس تجارب و أحزاناً ناجمة عن ظروف لا شأن للأخرين بها، و هذه تحتمل بسهولة. كما و يرسل للبعض تجارب و أحزاناً ناجمة عن الناس، و هذه أصعب، لا سيما ان حدثت عن سابق أصرار. أما الأصعب، فهو أن تكون قد أحسناً لمن يسيء إلينا. الحالة الأخيرة هي الأصعب من جهة الاحتمال. فإذا أرسل لك الله هذا، فاعلم أنه، بكل دقة، الأكثر نفعاً لك، و كن على يقين أن الله يرى قوتك على نحو يكفي لاحتمال هذه الآلام، و يتوقع منك أن تحتمل الآلام بقلب صالح دون تألف، فلا يخيب أمله فيك.

وبينبغي أن أضيف بأن الله يؤثر احتمالنا \_ لتلك الأتعاب النازلة علينا من طبيعة الناس الشريرة، لاسيما أولئك الذين صنعوا معهم بعض الخير، \_ على الأتعاب الناجمة عرضياً من ظروف غير مستحبة. لماذا؟ لأن كبرياتنا الذاتي يستبعد بسهولة، وينغلب، عن طريق الأول، أكثر منه عن طريق الثاني. وأيضاً لأنه إن كانت الطاعة لإرادة الله هي الأساس في العمل الروحي، فليس ثمة طريق أفضل لبنياننا كما في مثل هذه الحالات. و ذلك ان كنا نحتملها بقلب صالح، رافعين شكرًا حاراً لمن أرسلها، فهي بمثابة بركة عظيمة لإثبات طاعتنا القامة لله ورادته، مع عزمنا الأكيد على عمل كل شيء بمقتضى مشيئته. إن هذا الاستعداد يسبق الافتقاد بالتجارب، ويتوارد عنه. وهذه التجارب تقوّي الاستعداد، وترسخه، فيرسل الله كأس التجارب الأقوى التي إذا احتملناها برضى، و بقلب صالح و غبطة، تأتينا على الدوام بالشمرة الروحية المباركة. فلنرجو هذا من الله إذ فيه عظم حب الله، \_ بإيمان تام و بلا تشكيك، \_ لنا، وفيه أيضًا يقين تقدمنا الروحي. و هكذا فبمقدار الفرح، و عدم التذمر، و تكون مذاقتها ذات مرارة أكبر.

## الفصل الحادي والأربعون

### التقدم في فضيلة واحدة في ظروف مختلفة

قلنا في أحد الفصول السابقة أن العمل على فضيلة واحدة في زمن محدد، أفعى وأجدى للنفس، منه على فضائل عدة في زمن محدد. فينبغي على الواحد منا أن يستفيد من كل الأحداث التي تقابلها في الحياة اليومية، مهما اختلفت. و الآن، اسمع كي أبين لك كيف يكون ذلك، و بدون صعوبة.

إن حدث مثلاً أنك في يوم من الأيام، أو في ساعة ما، إن واحداً لامك جوراً على أمر لا يستحق اللوم في ذاته، أو أن أمراً ما رُفض لك ، أو أن أمراً ما أثير ضدك ظلماً، أو أن مرضًا جسدياً أصابك، أو أن أحد رؤسائك أرغمك على أمر لا ترغب به، أو أن أمراً محزنة واجهتك وهي لا تطاق، و التي هي كثيرة في حياتنا الإنسانية. عندها ، فبسبب الاختلاف الطبيعي بين كل هذه الأمور و ما يشابهها، هناك أمور مختلفة تتطلب منك. لكن خير لك، على أساس القاعدة التي اعتمدتها، أن توجه كل هذه على أساس الفضيلة التي تمارسها في ذلك الحين. هكذا، فإن كنت في وقت مواجهة هذه الحوادث المذكورة، تدرب نفسك على فضيلة الصبر، فبادر إلى احتمال هذه كلها بصبر وفرح. وأن كنت منشغلًا في الأساس بفضيلة التواضع، جاهد كي تدرك أنك تستحق كل نوع من الشرور، وأنك تستحق الضيقات التي واجهتك. و ان كان عملك يقضي أن تكتسب فضيلة الطاعة، فأرغم نفسك أن تتحنى بخضوع تحت يد الله القدير، بتسليم كامل لمشيئته مبتغيًا رضاه. سلم برغبة لخلوقاته، سواء كان لها عقل وحياة، أو لم يكن، و التي من خلالها أرسل الله هذه الضيقات و الشدائـد. و ان كنت تتوقع إلى النجاح في فضيلة الفقر، فحرّك في ذاتك الشعور بالرضى و الفرح و الشكر بأنك محروم من كل عزاء عالي و دنيوي. و ان كنت تجاهد من أجل فضيلة المحبة لترفعها و تعمقها فيك، فحاول أن تشير في ذاتك مشاعر محبة القريب، فمن خلالها تجني الخير الذي تريـد. حـث نفسك على محبة الله، فهو الآن كما في كل حين العلة الأولى للمحبة، و هو يرسل هذه الضيقـات أو يسمح بها، من أجل تقدمك الروحي.

مما قلت، يمكنك أن ترى لنفسك كيف تستخدم من أجل فضيلة واحدة، الضيقـات الكثيرة، و التي تدوم طويلاً، كالمرض مثلاً، أو أمراً آخرى مماثلة.

## الفصل الثاني والأربعون

كم من الوقت ينبغي على المرء ممارسة الفضيلة و ما هي علامات تقدمه فيها؟

يستحيل أن نحدد نظرياً مقدار الوقت الذي يستغرقه الإنسان للتمرّس على فضيلة ما. فهذا يحدّد المرء عندما يراعي ظرفه، و حالته، و درجة تقدمه في الحياة الروحية، لا سيما بحسب قضاء و حكم شيخة (starets) أو أبيه الروحي الذي يوجهه. فإن كانت غيرة الإنسان متقدّدة، فلا يمكن لأية عقبة أن توقفه، أو أية وسائل أن تعصي عليه، إذ سرعان ما يظهر فيه تقدّم ملحوظ.

و علامة التقدّم هذا، هي أن يسلك المرء درب الفضيلة، بغيره و جهاد، و قد عقد العزم أن لا يقلع عنها و يتركها، مهما اشتدّت صعوباتها، و مهما كانت التضحيات فيها، و التي قد تفرض نفسها. و رغم كل حالات فتور النفس و عتمتها الداخلية عندما يحلّ الفقر الروحي، فيفقد الإنسان كل التعزيزات و الأفراح المباركة، مع كل ما تسمح به عنایة الله من أجل خيرك.

أمّا العلامة الثانية على التقدّم الروحي، و التي تشير إلى النمو في الفضيلة، فهي ضعف حروب الجسد مقابل الأعمال الحسنة، و على قدر الإقدام على الأعمال الحسنة. فكلّما فقد الحرب من شدتها، علينا، كان هذا إيذاناً بالتقدم في الفضيلة، كذلك عندما لا تشعر بهجمات من جهة الحسيّات الأدنى في الطبيعة، لا سيّما عندما تكون ظروف قيامها نصب عينيك، عندها ثق ان الفضيلة قد قويت. إلاّ ان العلامة الأولى، هي الأكثر دلالة على انك تسير بثبات في درب الفضيلة، من العلامة الثانية .

و بحسب نصيحة القديس اسحاق السرياني، فالمرء الذي حدد الهدف الذي من أجله يوجّه كل أعمال حياته، لابد أن يسأل أهل الخبرة عن العلامات التي تبيّن سيره في الرب الصحيح، أو انحرافه عنه، إلى درب فرعي. وعليه أن يجعل هذه العلامات في ذهنه على الدوام. أمّا العلامات فهي الأمور التالية: إن وجدت ذهنك مستعداً و بلا تغصّب، للأفكار الحسنة، فهذا علامة تقدّم. و في نفس الوقت، إن وقفت للصلوة لا يشرد ذهنك و يتوقف لسانك على حين غرة، عند فقرة ما، فيسودك سكون ليس طوعاً أو عن اختيار، أو لاحظت انه مع كل فكر أو أمر حسن، أو تأمل روحي، تملئ عيناك بالدموع

و تنساب على خديك ، أو كنت أحياناً ترى ذهنك يدخل قلبك بدون جهد، و يبقى على هذا المنوال قرابة الساعة، بينما يكون السلام في أفكارك، فهذه كلّها علامات التقدّم في دربك الروحية (فصل 44).

إلا أنه من الخطأ التيقن أننا أكملنا بنيان الفضيلة المرجوة، أو ان بعض الأهواء قد غلبت نهائياً حتى ولو أن ضغوطاتها احتجبت، مع تأثيراتها، إلى أجل طويل. فهذه ربما تكون خديعة شيطانية، أو حيلة من الخطايا التي فينا. فالأمور ذات الطبيعة المختلفة ، كثيراً ما نراها تحت نور جيد و نقبل بها ، على أنها حسنة ، و ذلك بفعل الكبriاء الرابغ فينا. علاوة على ذلك ، لو اننا فكرنا بالكمال الذي يدعونا الله إليه ، فنحن ولو قطعنا شوطاً في الفضيلة ، إلا اننا سنحس بالقصير ، فنحن بالكاد بدأنا الخطوة الأولى في الحياة التي ينبغي أن نسلكها ، هذا هو السبب الذي يجعل الآباء القديسين يدعون حياة الأكثر كمالاً ناقصة ، أي أنها لا تخلو من النواقص. فكمال الكاملين نفسه ، ليس كاملاً ، كما يقول القديس يوحنا السلمي . القديس بولس يرى الكمال في دوام السعي ، دون النظر إلى الوراء ، أو التفكير بأننا قد بلغنا ما نصبو إليه ، فيقول : " ليس اني نلت أو صرت كاملاً ، و لكنني أسعى لعلّي أدرك... إلا اني أفعل شيئاً واحداً ، وهو اني أنسى ما وراء و أمتد. أسعى إلى الغرض من أجل جعالة دعوة الله العليا في المسيح يسوع " (في 3 : 12 - 14). و لما كان يريد أن يبين ان الكمال هو في هذا ، قال : " فليفكر بهذا جميع الكاملين معاً " (في 3 : 15) . فالكمال ليس في أن يظن المرء انه بلغ الكمال ، لأن حياة الفضيلة ، لا تتوقف ، بل تتقدّم باستمرار.

أضف إلى ذلك ان بعض الأهواء الدقيقة فينا ، تتحرّك بين الحين والآخر ، حتى انا لا نعرف إن كانت أهواه أم لا. فكيف نتكبّر و نظن انا قد تطهّرنا منها تماماً؟ إن كانت عين داود النبي النبوية ، ذات النظرة الثاقبة ، لم تتمكن من تمييزها فيه ، فكيف ننسب نحن القدرة على هذا ، إلى نفوسنا؟ داود نفسه لم يكف عن الصلاة إلى الله قائلاً: " نقني من هفواتي الداخلية " (مزמור 19 : 12)، فأين نكون نحن ، و كم نحتاج من تصرّع إلى الله كي يطهّرنا من أهوائنا الدفينة؟ نحن عاجزون عن إدراك هذه الأهواء و الاحساس بها و بتأثيراتها و مفاعيلها بدون استئنارة الروح القدس. نحن نعرف أهواينا عندما تكون فعالة فينا. أما إن هدأت ، فنتوهم انا بلغنا اللاهوبي.

كيف نعرف أن الأهواء لم تتمت فينا ، لكنها هادئة فقط؟ هذا يكون بالعلامة التالية: إن صادرك موقف ما يغذي الأهواء التي فيك ، لا سيما إن حدث هذا فجأة ، فيبدأت الأهواء تظهر و كنت تحس بها ، و كانت حركاتها في غاية الشدة و العنف ، و تسبّب الإضطراب ، فلا تعجب ، فالآهواء مختبئة فيك ، وها هي الآن تخرج ، و يشرح القديس اسحاق السرياني

ذلك بصورة جميلة: ” تختفي الأعشاب والزهور من الأرض في فصل الشتاء، إلا أن جذورها تبقى سليمة في أعماقها. لكن ما أن تشعر بمطر الربيع ودفنه، تبدأ بالخروج من الأرض لتعطيها“. هكذا الحال مع الأهواء. فكما ان الشوك ينبت في الأرض العارية، هكذا تنبت الطبيعة الساقطة الأهواء. لهذا لا نستطيع الوثوق بطبعتنا والاعتماد عليها.

الله وحده يعرف قلوبنا فهو ينير البعض ، ويسمح لهم برؤية مقدار تقدمهم في الفضيلة، إلا انه لا يمنح هذه الفضيلة للبعض الآخر فهو يعرف ان مثل هذه المعرفة ستقود الى التواضع في الحالة الأولى، إلا انها ستقود إلى المجد الفارغ، وفي الثانية. و كأب محبّ، فهو يبعد عن أتباع الحالة الثانية، الوقع في الخطيئة التي يبغضها بشكل خاص. فيهب الأولين فرصة كي يزدادوا اتضاعاً ، وهذا أمر يُسرّه. و الشخص الذي لم يُعطَ معرفة عن تقدمه، يستطيع الله أن يكشف له ، على نحو ما ، مقدار تقدمه، إن كان يعمل على الدوام من أجل الفضيلة، و إن كانت مسيرة الله أن يكشف له ذلك ، لنفعته و خيره.

### الفصل الثالث والأربعون

ينبغي على المرء أن لا يرحب بشدة في الانعتاق من هجمات الضيقات، بل يجب أن يسلّم نفسه لله و إرادته

إن كنت تحتمل بعض الضيقات بشكر، فانتبه أن لا يجرّبك العدو بمكر، فتطلب الخلاص من الضيقات، بمحبتك لذاتك. لأنك ستسقط، و خسارتكم ستكون مضاعفة . أمّا الخسارة الأولى، فهي إنك ستفقد فضيلة الصبر التي فيك. فرغم حسن الرغبة بالتحرّر من الضيقات، إلاّ أنه عندما لا تتحقق، بفعل ضعف صبرك، فإنك ستصل تدريجياً إلى الشكوى و فراغ الصبر. و الخسارة الثانية، هي إنك ست فقد أجرك الذي كنت ستفوز به لو احتملت الشدة بقلب راضٍ. منذ أن أجبرت على الصبر، لا يُحسب لك الأجر، فالله لا يكافئ و لا يفرح، إلاّ من يحتمل عن حرية و اختيار. فمجرّد الرغبة بالتخلي من الشدة، لا يخلص منها و طالما ان الاحتمال هو قسري و عن إرغام، فهو بلا جزاء. الله سيجازيك عن احتمال الشدائـد منذ أن يبدأ احتمالك بقلب راضٍ لا يفتـش عن نجاـة. لذا، احمد فيك رغبة التخلص من الضيقـات. أطـردـها بمجرـد الإحساس بها، و سـلمـ ذاتـكـ للـلهـ بالـكـلـيـةـ، مـظـهـراًـ استـعدـادـاـ لـتحـمـلـ أحـزانـ تـفـوقـهاـ بـمـئـةـ ضـعـفـ، انـ كانـتـ هـذـهـ الـإـرـادـةـ اللهـ، أوـ إنـ كانـ اللهـ أـرـسـلـهاـ إـلـيـكـ. وـ إنـ حدـثـ انـ اـنـتـهـتـ شـدـتـكـ الـراهـنـةـ، بـعـدـ ساعـةـ اوـ أـقـلـ، فالـلهـ سـيـرـاـهـ وـ يـقـدـرـهاـ كـأـمـرـ عـظـيمـ، وـ يـكـافـئـكـ عـلـيـهـاـ، كـمـاـ يـرـىـ هوـ.

اعمل هكذا في كل الأمور الأخرى. لا تستسلم لأهوائك بل أحكم لجمها، و وجهها بحزم نحو الهدف المركزي، أعني أن تبقى ضمن نطاق الإرادة الإلهية، فتنمو باطرداد بمقتضى إرادة الله. عندها تكون كل رغباتك صالحة، و تظل محتفظاً بالهدوء في تجاربك، فتجد سلامك داخل إرادة الله. و إن آمنت بكل ثقة و إخلاص انه لا يمكن أن يصيبك شيء بدون إرادة الله، و إن كانت رغبتك الوحيدة أن تفعل إرادة الله بكل ما فيك من قوة، فمن الواضح ، انه مهما حلّ بك ستتقبله برضى.

و عندما أقول بأن لا شيء يحدث لك بدون إرادة الله، فأنا أعني الضيقـاتـ وـ الحاجـاتـ وـ الحـرـمـانـاتـ التيـ يـرـسـلـهـاـ اللهـ،ـ أماـ لـتـنبـيـهـنـاـ،ـ أوـ لـتـعـلـيـمـنـاـ،ـ أوـ مـجـازـاهـ لـنـاـ عـلـىـ خـطاـيـاـ اـقـتـرـفـنـاـهـ.ـ إـلـاـ أـنـيـ لـأـعـنـيـ خـطاـيـاـكـ أـنـتـ،ـ أوـ خـطاـيـاـ الآـخـرـينـ منـ النـاسـ،ـ فـالـلهـ لـأـيـحـبـ الـخـطـيـئـةـ.ـ التـجـارـبـ هـذـهـ نـافـعـةـ لـنـاـ،ـ وـ قـدـ دـعـيـتـ بـحـقـ صـلـيـبـ النـجـارـةـ الـذـيـ يـجـعـلـهـ عـلـىـ مـنـاكـبـ أـعـزـ أـحـبـائـهـ،ـ وـ عـلـىـ الـذـينـ يـجـاهـدـونـ لـأـرـضـائـهـ،ـ فـحـمـلـ الـصـلـيـبـ أـمـرـ يـبـهـجـ اللهـ وـ يـلـقـىـ تـرحـيبـاـ مـنـهـ.

و عندما قلت: لا يجب أن نرحب التخلص من الضيقات، فينبغي أن يفهم كلامي هذا، على أساس التسليم لمشيئة الله. فنحن لا نقدر إلا أن نرحب الانعتاق من الأحزان، فالله نفسه غرس في طبيعتنا الرغبة بالوجود الحق (well-being) وقد تضمنتها الصلاة التي هو نفسه علّمنا إياها: "لا تدخلنا في تجربة لكن نجنا من الشرير" إنها ما نردد نحن أيضاً مرات و مرات في اليوم. فإن كان الله بعد أن سمع دون ريب، هذه الصلاة، يرسل إلينا الضيق والحزن، فمن الواضح إنها ارادة خاصة، علينا اطاعتها، كوننا خليقة الله، و نعي واجبنا الذي يلزمـنا بطاعة الله في كل شيء، فنخضع له بقلب صالح، محتملين الضيقات التي هي أساسية لخلاصنا.

و عندما نردد الصلاة: "لا تدخلنا في تجربة..." ، فإنـنا نعني: "ليس كما أريد أنا، بل كما تريد أنت (متى 26: 39). بهذا نقتدي بمحلـصـنا الصالـحـ. رـدـ الصـلاـةـ الـرـبـانـيـةـ، ليسـ كـأـنـكـ تـنـفـرـ مـنـ التـجـارـبـ وـ تـوـدـ تـحـاشـيـهـاـ بـكـلـ ثـمـنـ، انـماـ لأنـ الـرـبـ أـمـرـنـاـ أـنـ نـصـلـيـ عـلـىـ هـذـاـ النـحـوـ، كـنـ مـسـتـعـداـ مـنـ أـعـمـاـقـكـ لـمـقـابـلـةـ ماـ قـدـ سـرـ اللهـ بـإـرـسـالـهـ إـلـيـهـ، بـقـلـبـ رـاضـ. اـرـفـضـ الـانـجـرـارـ وـرـاءـ رـغـبـةـ حـبـ الذـاتـ، وـ اـطـمـعـ فـيـ حـيـاةـ تـقـومـ عـلـىـ الـوـجـودـ الـحـسـنـ، بـدـوـنـ اـنـقـطـاعـ، الـأـمـرـ الـذـيـ يـسـتـحـيلـ عـلـىـ الـأـرـضـ، لأنـ حـيـاةـ كـهـذـهـ هـيـ خـاصـةـ بـتـلـكـ، الـأـبـدـيـةـ وـ الـمـسـتـقـبـلـةـ.

## الفصل الرابع والأربعون

### التنبيه ضد مشورات الشيطان الشريرة فيما يختص بالأعمال الصالحة

عندما يرى الشرير تقدمنا في درب الفضيلة، وغيرتنا القوية ونظامنا الجميل، رغم كل حربه ضدنا و التي يتوكّى فيها تضليلنا بإغراءاته المتوجهة نحو الشر، فإنه يتحول إلى ملاك من نور: فتارة بأفكار تبدو حسنة، و طوراً بآيات من الكتاب المقدس، و أخرى بأمثلة من سير القديسين. و كثيراً ما يحثّنا على الجهاد نحو الكمال على نحو متطرف، أو في غير الأوان. و هذا كي يلقينا في الهوة في اللحظة التي نتوهّم فيها اننا في الذروة. فهو يهمس للبعض ان يميّتوا أجسادهم بشدة بالصوم، و الجلد و النوم على الأرض الصلبة، و بسوها من الأمور المماثلة، فيرميهم في الكبراء، بإيمانهم انهم بلغوا درجات عظيمة الشأن. أو انه يرهقهم بالمرض، إلى حدّ أنه يجعلهم عاجزين عن القيام بأبسط الأعمال الحسنة. أو أنه يضرّبهم بالقنوط، عن طريق أحمالهم العسيرة الحمل، فلا يقوون بعد ذلك على الجهاد الروحي، حتى على مستوى خلاص نفوسهم. فتبعد غيرتهم تدريجياً، و هكذا يجعلون ذواتهم في صميم شهوات الجسد، و ملذات الدنيا، بشغف منقطع النظير. كم من نفوس أهلكتها هذه الفخاخ، فقد اندفعت بحماسة حمقاء، لكنها هلكت بداعي الغلو في قهر الذات، و مهارات النسك الزائد التي هي من ابتكاراتها، فصارت موضع سخرية لدى الشرير، و كل أتباعه.

وبالطبع ما كان سيحدث هذا، لو أنها احتكمت إلى مشورة صالحة، أو تذكرت أن الاماتات رغم كونها جديرة بالثناء، و مفيدة إن كان في الجسد ما يكفي من القوة، و في النفس، اللازم من التواضع. إلا أنه لابد من ضبطها بأفكار صالحة، و استعمالها وسائل للتقدم الروحي، لا أهدافاً قائمة في حد ذاتها. فهذه الاماتات ، كثيراً ما تزيد ، و كثيراً ما تنقص و تتعدّل، و أحياناً تتوقف ردهاً من الزمن.

فالذين عاشوا في تساهل مع ذواتهم، على خلاف ما كان القديسون، و لم يقووا على الارتفاع إلى قامة تلك الأعمال النسكية، يمكنهم أن يتبعوا درباً آخر في حياتهم، فيظهرُون أو يجعلون ميلولاً حسنة في قلوبهم، فيكتسبون عادة الصلاة الحارة، و يشنّون حرباً ضد أفكار الشهوة وكل الأهواء الرديئة، و يحفظون نقاوة قلوبهم، و يحبون السكينة و الاعتزال، فهم متواضعون و وداعء مع الجميع. يحسنون إلى جميع من يسيئون إليهم. يحفظون ذواتهم من كل ما هو شرير، مهما كان صغير الشأن و الأهمية. فهذه الأعمال، إن كانت تنبع من القلب، فهي مرضية لله، و هي مصدر سرور له أكثر من إتقان الاماتات الجسدية عندما لا تكون هذه الأخيرة (الاماتات)، من مستلزمات حالتنا الأخلاقية.

بالإضافة إلى ذلك، أنصحك باستخدام الاعتدال أثناء ممارسة النسك الطبيعي، إن كان من ضرورة لذلك. لا تندفع في العمل على مستويات رفيعة جداً ، بل ابدأ من الأسفل. فخير لك أن ترتقي إلى أعلى تدريجياً، من أن تقوم بأعمال تفوق قامتك، فتضطر إلى الهبوط إلى عارك و خزيك. كذلك أنصحك أيضاً بالعدول عن التطرف الذي سقط بسببه كثيرون، بعد أن كانوا رجالاً في الروح، و ذلك نتيجة للتساهل مع النفس، و الشفقة عليها، فالغالوا بالاهتمام بصحتهم، و أفرطوا في العناية بأبدانهم، و كانوا يخافون عند أي حديث أو مناقشة، على صحتهم. ليس في أفكارهم ما هو أهم من صحتهم البدنية، و حياتهم، فيبتكرن أطريقاً من الطعام شهية تلذ للذوق بدل أن تكون صحية بهذا يبددون صحتهم ، من شدة اهتمامهم بهذه الأمور ، و يضعفون ، ويحرمون أنفسهم بركة الثواب الأسمى، لأنهم لم يعملوا بما هو ضروري لبلوغه.

ورغم تبريرهم لأعمالهم ، بالرغبة في عمل أفضل، من أجل الرب، إلا أن ذلك ليس سوى محاولة للجمع بين خصمين لا يتصالحان: الجسد ، و الروح. ليس لأنهم أهملوا منفعة الاثنين و حسب، بل لأنهم تسببوا في أضرار لحقت بالاثنين معاً، فهم حرموا الجسد من العافية. والروح، من حالة النقاوة والصفاء. لهذا فإن النظام المعتدل، و الحياة بتعقل، و التي من شأنها أن تأخذ في الحسبان احتياجات النفس و التركيبة الجسدية الخاصة، فيفييد الجسد و النفس معاً، و يكون الإنسان أقلّ تعرضًا للأخطار، و أوفر صحة. وفي هذا المجال فإن الناس ليس عندهم معيار واحد، رغم ان ناموساً واحداً يسود الجميع، و أعني أن يكون الجسد في خدمة الروح. تذكر ما قيل آنفاً بأن اكتساب الفضائل، سواء الجسدية أم النفسية، ينبغي أن يكون تدريجياً، بالارتقاء صعداً خطوة بعد أخرى.

## الفصل الخامس والأربعون

في ان دينونة الآخرين القاسية، تتأتّى من تقدير رفيع لذواتنا ، و من تحريض ابليس عليها. و كيف

### تكون النصرة على نزوعنا إلى دينونة الآخرين

ان حب الذات، و التقدير الرفيع لأنفسنا، من شأنهما أن يولّدا شرًّا يسبب لنا أذى عظيماً، و أعني الحكم العنيف ضد الآخرين و دينونتهم. و هكذا نتجاهل وجودهم، و نحتقرهم. و إن أتيحت سانحة نذلّهم و نحتقرهم. ان هذه الرذيلة الخبيثة متولدة عن الكبراء، و تنمو و تتعدّى به. و وبالتالي فهي تغذى الكبراء، لأننا في كل مرة نسمح بإدانة الآخرين، يتقدّم الكبار بالشعور المصاحب للدينونة و الذي هو أهمية الذات و مدحها.

و إذ ينظر المرء إلى نفسه عالياً، فمن الطبيعي أن تكون نظرته نحو الآخرين، من فوق، فتكون الدينونة و الاحتقار. فمن يرى نفسه بعيداً عن أخطاء الناس، التي يلصقها بهم، هو إنسان يقدر نفسه بـإفراط و نحن عندما ننظر بهذا الوضع الخاطئ إلى نفوسنا، فإن العدو يراقبنا و يفتح عيوننا، و يوجس لنا أن نلاحظ بدقة كل أقوال الآخرين و أفعالهم. و من هذه الملاحظات، يصوّر لنا ما نستنتجه عن أفكارهم و مشاعرهم. و من خلال ذلك، تتكون فكرتنا عنهم، وهي عادة خاطئة و غير حسنة و الشيطان يبالغ في تصوير أخطاء الناس فيحجب حسناتهم و فضائلهم. من هنا تكون الأحكام الصادرة بحقهم، مجحفة، و غير منصفة. بهذا ينطبع الإنسان على الظن السيء، و الريبة بالآخرين، و هذا بفعل العدو الذي يجعل هذه (العادة) دائمة فيينا، رغم أن حقيقة الأمور ليست هكذا البّة.

لذا يا أخي، مadam العدو يراقبك على الدوام، كي يغرس بذاره فيك، ضاعف جهادك و يقظتك على نفسك، كي لا تقع في الفخاخ المدوّدة لك. و عندما يكشف لك العدو أخطاء الآخرين، بادر على الفور إلى طردّها لثلا تمتد بجذورها فيك. ارمها بعيداً عنك، حتى لا يكون لها أي أثر فيك. استبدلها بفكّر له صفات حسنة انت تعلم بوجودها في الآخرين من الناس عموماً و ان كنت رغم كل هذا ، ما تزال رازحاً تحت فكر الدينونة، عجل إلى إتباعه بأمر آخر مفاده، ان لا سلطان لك، و أن أحداً لم يجعلك دياناً و قاضياً على أحد، ليس فقط أمام الناس الذين لا حول لهم، بل أمام الله القاضي العظيم، ديان الجميع. ان الأفكار المضادة لفكر الدينونة، هي خير الوسائل نطرد بها الأفكار المباغتة، فنتحرر نهائياً من هذه الرذيلة، أما الطريقة الثانية و الفعالة، فهي أن لا تدع أفكار ضعفك الشخصي، و أعمالك الشريرة. تبارح عقلك و ذاكرتك. و في النتيجة ، ستدرك أنك لا شيء ، و ذلك لأنك ستكتشف عدداً كبيراً من الأهواء و الأفعال الشريرة. أما إن

كنت لا تقبل بهذا، بل تقول : " ما يحدث فليحدث" ، فانك لن تجد علاجاً لهذه الأمراض التي تفتك بك، أما إن تصرفت بإخلاص ويقظة، فلن يكون هناك وقت لديك كي تنشغل بأمور الناس فتنتفدهم بشدة. وإن فعلت، فسوف تسمع القول: "يا طبيب طب نفسك (لوقا 4 : 23)" . "أخرج أولاً الخشبة من عينك" (متى 7 : 5). وعلاوة على كل هذا ، اعلم انه ان كان حكمك على قريبك قاسياً، وكانت دينونتك له من جهة بعض الأمور الخاطئة، فلا بد أن يكون شيء من ضعفه فيك أنت أيضاً، فقلبك المريض هو الذي يوجس لك أن تفترض أموراً خاطئة عن الآخرين و تدينهم عليها الآن. فالإنسان الشرير من كنوز قلبه الشرير يخرج الشرور (متى 12 : 35). أما العين النقيّة الخالية من الأهواء السامة، فتنظر إلى أعمال الآخرين بدون شر: "عيناك أطهر من أن تنظروا الشر" (حقوق 1 : 3) لذا فعندما يأتيك الفكر و يحثك على دينونة الآخرين على خطيئة ما، فبادر الى السخط على نفسك التي ترتكب الخطأ نفسه و تسقط فيه. قل في قلبك: ان من كان مثلي، غير مستحق، كيف يستطيع أن يرفع رأسه ليرى عيوب الآخرين؟ كيف أفترى عليهم و أنا في نفس الخطيئة، لا بل تعدّياتي و خطايدي تفوق خطايادهم؟ فأنت إذ تفعل هكذا، سترفع في وجه نفسك السلاح الذي أوجست لك الأفكار الشريرة أن ترفعه ضد الآخرين. و هكذا، فبدل أن تجرح قريبك تضمد جراحاتك.

إن كانت خطايا قربك مكشوفة للجميع، فحاول أن تعرف سببها، ليس كما يقترحه فكر الدينونة، بل كما يميليه عليك شعورك الأخوي نحوه . قل في نفسك: الله سمح له أن يقع في هذه الخطيئة، وأن يكون على هذه الحالة مدة من الزمن، فيكون في نظر نفسه غير مستحق، و يقطف ثمار التواضع من مذمة الآخرين له. و هكذا يفرح الله به . ان هذه النظرة نافعة و تخلو من ضرر. و خير لي أنا أيضاً أن أتقى هذا الشر، شر دينونة الآخرين . لا تدن أحداً، حتى لو كانت خططيته واضحة كل الوضوح، و مخزية، و تنبع من قلب صلب. انما ارفع عينيك نحو أحكام الله العجيبة التي لا تدرك ، فترى ان كثيرين كانوا بالأمس في الخطيئة، أما الآن فتابوا، و بلغوا درجات عالية من القدسية. كذلك فان كثيرين كانوا على درجة عالية من القدسية و الكمال، لكنهم سقطوا. فحذر أن يصيبك ما أصابهم، بفعل دينونة الآخرين.

لذا تيقظ بخوف و رعدة، و اجزع على نفسك اكثر من جزعك على الآخرين. كن على ثقة ان كلمة واحدة حسنة، تعظ بها قريبك، وكل شعور طيب، تبديه نحوه، هو من أعمال الروح القدس، و من ثماره و ان كل دينونة و احتقار الآخرين، تأتي من طبيعتك الشريرة ، ومن مشورة الشيطان. لهذا فعندما تُجرب بأفكار قبيحة ضد أخيك ، لا تغمض عينيك للنوم، حتى تزيل التجربة من قلبك، فتكون في سلام تام مع أخيك.

## الفصل السادس والأربعون

### في الصلاة

رغم ان عدم الاعتماد على النفس، و الثقة بالله، و الجهادات الدائمة، هي أمور أساسية جداً في حربنا الاممنظورة، كما جاء سابقاً، يبقى ان الصلاة، هي الأمر الأكثر أهمية من أي شيء آخر. انها السلاح الرابع في حربنا هذه، كما ذكرت في نهاية الفصل الأول. بالصلاحة تكتسب الأسلحة الثلاثة الأولى ملء قوتها، وبها نحصل على كل البركات و الخيرات الأخرى. انها أداة الجذب، و اليد التي بها نتقبل البركات و تنسكب الصلاة فيها، من نبع المحبة الإلهية الذي لا ينضب، و من صلاح الله نحونا في الحرب الاممنظورة. بالصلاحة تضع فأس القتال في يد الرب، فيحارب أعداءك و يهزمهم. ولكي تعبّر الصلاة عن ملء قوتها و فعلها فيك، لابد من بقائها في الداخل، (في القلب)، على الدوام، كوظيفة طبيعية في روحك، و ينبغي أن تحفظها و تستلهمها، و ذلك من خلال الأمور التالية:

1- عليك أن تجاهد بنشاط كي تخدم الله فقط في كل ما تفعل، و أن تكون خدمتك هذه مرضية له. و لكي تجدد هذا الميل فيك، ينبغي أن تقتتن بجعل الصلاة في الذهن . على كل مخلوق عاقل أن يقدم العبادة و التسبيح و الخدمة للرب فقط، و ذلك بداعي عظمة صفات الله، كصلاحه و حكمته و كمالاته الأخرى التي لا تعد و لا تحصى. و عندما تضيف إلى كل هذا، التذكر الدائم بأن الله نفسه بادر إلى خدمتك و انتفعت به على نحو لا يوصف، و ذلك بتتجسد، فافتداك و اعتنقك من اللعنة الكبرى، و افقدى الجراح التي احدثتها سموم الخطيئة ، و شفافها، ليس بخمر و زيت، ليس بأي من الأدوية و العقاقير، بل بالدم الثمين الطاهر الذي انسكب من جنبه الإلهي، و بجسده القدوس الذي به احتمل اللطمات و الجلد و الأشواك و المسامير. فإن أنت تذكرت كل هذه، كيف ستتنسي المنفعة التي نجنيها نحن أنفسنا من خدمة كهذه، تجعلنا أسياد نفوسنا، فنغلب الشرّير و نصبح أبناء الله؟

2- ينبغي أن يكون لك إيمان حارّ حيّ لأن الله يتمنى \_ بمراحمه العظيمة و لطفه الحنون \_ أن يهبك كل ما أنت بحاجة إليه، كي تكون خدمتك له أصيلة، فيجود عليك بالبركات التي تحتاجها، إن إيماناً وثقة كهذه، من شأنهما أن يصبحا بالنسبة إليك آباء، الله بمراحمه التي لا تحدّ يملأه من كنوز بركاته و خيراته. فكلّما كبر الاناء حجماً و اتساعاً، كلّما كانت الخيرات التي تستمطرها صلاتك \_ نحو ما هو الأعمق فيك، \_ أغنّى و أوفّر. فكيف يستطيع المرء أن يفكّر أن الله \_ القدير غير المتبدّل، الذي طالبنا أن نصلّي إليه، ووعدنا بالخيرات التي نسألها إياها، \_ يحجبها عنا، فلا يرسل إلينا

روحه، إن كنّا نطلبها منه بجهاد و صبر؟ ألم يقل: ”إِنْ كُنْتُمْ وَأَنْتُمْ أَشْرَارٍ تَعْرَفُونَ أَنْ تَعْطُوا أُولَادَكُمْ عَطَايَا جَيِّدةً، فَكُمْ بِالْحَرِيِّ الْأَبِ الَّذِي مِنَ السَّمَاءِ يُعْطِي الرُّوحَ الْقَدْسَ لِلَّذِينَ يَسْأَلُونَهُ“ (لوقا 11: 13). ألم يعدنا: ”فَكُلُّ مَا تَطْلُبُونَهُ فِي الصَّلَاةِ مُؤْمِنِينَ، تَنَالُونَهُ“ (متى 21: 22).

3- يجب أن تدنو من الصلاة ، وأنت لا ترغب بغير الإرادة الإلهية، لا بإرادتك. والأمر نفسه ينطبق على طلب و اقتبال سؤلنا بكلام آخر، ينبغي أن تتحرّك نحو الصلاة، لأن الله يرغب في ذلك و ينبغي أن تتمتّ أن تستجاب طلبتك، وأيضاً كما يريد الله. بكلمة واحدة، اجعل هذا في ذهنك و قلبك، وأعني، أن تتحدد إرادتك بإرادة الله، وتطيعها في كل شيء، وأن تأبى أن توجه إرادة الله نحو إرادتك بشكل من الأشكال. ولماذا يكون الأمر هكذا؟ لأن إرادتك ممزوجة على الدوام، حكيمه وعادلة، بحب الذات، و دائمًا هي مخطئة، و لا تعرف ماذا ينبغي أن تطلب. أمّا إرادة الله فصالحة على الدوام، حكيمه وعادلة، محبّة ولا تخطئ البة. و طالما ان إرادة الله هي ناموس لا ينكسر من جهة ما هو موجود، و ما سوف يوجد، فطاعة أحكامه، ينبغي أن تكون إرادة كل المخلوقات العاقلة و سيدة رغباتهم، و ما عليهم إلا أن يخضعوا لها في كل شيء. وهكذا يجب عليك أن تتمتّ و تطلب و تسعى إلى ما هو مرضي الله. و إن حدث أن كنت في ريبة في ان هذا أو ذاك من الأمور مرضي له، فبادر إلى السعي إليه و طلبه و أنت تفكّر بأنك تتمتّ هذا لتمتلكه، إن كانت ارادة الله هي هكذا، أمّا من جهة الأمور التي ترى أنها مرضيّة لله، كالفضائل مثلاً، في ينبغي أن تسعى إليها و تطلبها، فقط، كي ترضي الله أكثر ، و تخدمه على نحو أفضل، لا لغرض آخر، حتى ولو كان روحياً.

4- وأكثر من هذا، ينبغي أن تأتي إلى الصلاة و أنت تحمل في جعبتك أعمالاً تليق بتصرّفاتك. و بعد انتهاء الصلاة، اعمل بجد أكثر، كي تستأهل أن تقبل الفضيلة والنعمة التي تريده. و عمل الصلاة ينبغي أن يكون مقوّناً بغضب الذات، و بذل الجهد، بغية الحصول على مرامانا. و في الحياة الروحية، فإن ابتلاء الشيء، و طلبه، يتبعان الواحد منهما الآخر، بتناوب. لكن إن كان الانسان يصلّي إلى الله من أجل فضيلة ما، إلا أنه في الوقت نفسه، يسلّم نفسه للإهمال والتواني، فلا يكتسب أية وسيلة مهما كانت، للفوز بالفضيلة، ولا يبذل أي جهد في سبيلها، فمثله إنما يجرّب الله و لا يصلّي. و هكذا فيعقوب الإلهي يقول: ”... لَأَنْ طَلْبَةَ الْبَارَّ تَقْتَدِرُ فِي فَعْلَاهَا...“ (يعقوب 5: 16). إن ما يجعل الصلاة فعالة، بحسب القديس مكسيموس المعترف، هو، انه إلى جانب استعطاف قديس و الصلاة له من أجل أمر ما، أن يصلّي المرء نفسه من أجلها بكل جهاد، و يقوم بكل ما هو ضروري لنيل سؤله.

5 - و ينبغي أن تدمج في صلاتك تلك الأعمال الأربع التي كتب عنها القديس باسيليوس الكبير : " مَجْدُ اللهِ ، وَ اشْكُرْهُ عَلَى مَرَاحِمِهِ الَّتِي أَعْلَنَهَا لَكَ ، بَعْدَ ذَلِكَ اعْتَرَفْ لَهُ بِخُطَايَاكَ وَ بِانْتِهَاكَ وَ صَايَاكَ ، وَ أَخْيَرًا اسْأَلَهُ أَنْ يَمْنَحَكَ مَا أَنْتَ بِحَاجَةٍ إِلَيْهِ ، لَا سِيمَا مِنْ جَهَةِ الْأَمْوَارِ الْمُرْتَبَطَةِ بِخَلاصِكَ . وَ بِمَقْتَضِيِّ هَذَا ، يُمْكِنُكَ ، عَلَى سَبِيلِ الْمَثَالِ ، أَنْ تَصْلِي هَذَا : " أَيَّهَا الرَّبِّ إِلَهِي إِنِّي أُرْتَلَ وَ أَسْبَحَ مَجْدَكَ الَّذِي لَا يَحْدُدُ ، وَ عَظِمَتْكَ الَّتِي لَا تُدْرِكُ . إِنِّي أَشْكُرُكَ ، لَأَنَّكَ بِخَيْرِكَ فَقْطَ ، مُنْحَتَنِي الْوُجُودَ وَ الْاِشْتِرَاكَ بِخَيْرَاتِكَ الْمُعْطَيَةِ الْحَيَاةِ الَّتِي بِتَجَسِّدِكَ ، فَقَدْ خَلَصَنِي دُونَ عِلْمٍ ، مِنَ الْمُضِيقَاتِ الَّتِي أَحَاطَتْ بِي وَ تَهَدَّدَنِي ، وَ مِنَ أَيْدِي أَعْدَائِي الَّذِينَ لَا يُرَوُونَ . فَأَنَا أَعْتَرَفُ لَكَ أَنَّنِي مَرَّاتٌ كَثِيرَةٌ أَطْفَافُ الضَّمِيرِ ، وَ تَعْدِيَتْ وَ صَايَاكَ الْقَدُّوسَةِ ، فَبَيْنَنِتُ نَفْسِي غَيْرَ شَكُورٍ أَمَامَ خَيْرَاتِكَ الْكَثِيرَةِ الَّتِي لَا تُحْصَى . أَيَّهَا الرَّبِّ إِلَهِي الْكَلِّيُّ الرَّحْمَةُ ، لَا تَجْعَلْ عَدْمَ شَكْرِيِّ ، أَمَامَ مَرَاحِمِكَ ، بَلْ تَغْاضَ عَنْ ذَنْبِي وَ عَيْوبِي . أَنْظُرْ بِإِشْفَاقٍ وَ حُنُّوًّا إِلَى دَمْوعِ اِنْسَحَاقِيِّ وَ تَوْبَتِيِّ ، وَ أَعْتَنِي بَكْثَرَةَ مَرَاحِمِكَ ، وَهَبْنِي مَا أَنَا بِحَاجَةٍ إِلَيْهِ لِخَلَاصِي . أَرْشُدْ حَيَايِي إِلَى إِرْضَائِكَ أَنَا غَيْرُ الْمُسْتَحْقِقِ ، فَأَمْجَدْ أَسْمَكَ الْقَدُّوسَ ."

في نهاية هذه الصلاة، يمكنك أن تعدد كل احتياجاتك الحاضرة، الروحية والنفسية والجسدية أيضاً. وإن كنت في ذلك الحين، ترُوض نفسك على فضيلة ما، فاذكرها، وصلّ طلباً للعون الإلهي الذي يدفعك إلى الأمام نحو الكمال فيها. وإن كنت منزعجاً من ضغوطات هوى من الأهواء، فصلّ طلباً للعون، كي تقاوم الهوى وتتسقّه. وإن كنت تقاسي ظلماً أو أذى، أو خسارة أو ضيقاً، فلا تننسى أن تقدم الله الشكر عنها، فقد أرسلها حسب مشيئة كلية الخير. واعلم انها نزلت بك، لمنفعتك أنت بالذات.

6 - ولكي تكون صلاتك فعالة أمام الله، و تستمطر حبه، فبادر إلى تزيينها مزوداً إياها بأجنحة الإيمان المتين و الثابت، ليس فقط برأفات الله التي لا تُحَدّ، و وعوده الثابتة، بأنه يستمع إلينا، عندما ندعوه قبل انتهاء صلاتنا، (اشعيا 58 : 9)، بل أكثر من كل هذا، بالإيمان بربنا يسوع المسيح الذي تجسد من أجلنا، و احتمل الصليب و الموت، و مات وقام، و صعد إلى السماء، وجلس عن يمين الآب، وهو يشفع فيينا أبداً. " فَاللهُ الَّذِي لَمْ يَشْفُقْ عَلَى ابْنِهِ ، بَلْ بِذَلِكَ مَنْ أَجْلَنَا... " (رومية 8 : 32)

و إن أردت أن تُستجاب، بادر إلى طلب شفاعة والدة الإله مريم العذراء التي تصلي من أجلنا في الليل و النهار، و إلى طلب شفاعة جميع القديسين، و رؤساء الملائكة، و الملائكة، و الرسل، و الأنبياء، و الرعاة، و المعلمين، و الشهداء، و آباءنا القديسين، و أمهاتنا القديسات، و شفاعة ملائكة الحارس، و القديس الذي تحمل اسمه، و القديس الذي

تكرّست الكنيسة تلك التي اعتمدت فيها، على اسمه. صلّ دائمًا. و إذ تقرن صلاتك بهذه الشفاعات كلّها، فإن ذلك علامة على اتضاعك، و هذا يبهج الله جدًا و أكثر من أي أمر آخر. فهو ينظر إلى الجميع بعين الرأفة، فكم بالحرى إلى الوديع والمتواضع: "القلب المتخشع والمتواضع لا يرذله الله" (مزמור 51 : 17).

7- ينبغي أن تكون صلاتك بجهاد لا يكلّ، حسب قول الرسول: "واظبوا على الصلاة، ساهرين فيها" (كو 4 : 2). فالصبر المتواضع، والإلحاح مع المثابرة في الصلاة، من شأنهما أن يغلباً من لا يغلب، فيميل إلى الرحمة. و بحسب مثل الرب الذي أطلقه عن إلحاح الأرملة التي استمالت قاضي الظلم كي يعطيها سؤلها، فالرب جعل المثل هذا، لغاية ما، و هي كي يعلمنا أن لا ننـأس ونـملـ في الصلاة، بل نصبر كما جاء في الانجـيل (لوقا 18 : 1). فإن كانت لجاجة الأرملة قد دفعت قاضي الظلم إلى منحـها ما تـريـدـ، فـهـلـ يـسـأـمـ اللهـ منـ سـمـاعـ اـبـتهاـلـاتـناـ، إنـ كـنـاـ موـاظـبـينـ عـلـىـ التـضـرـعـ أمـامـ الرـأـفـةـ وـ الـحنـانـ؟ـ لـذـاـ فـعـنـدـماـ تـسـأـلـ اللهـ شـيـئـاـ، وـ شـعـرـتـ انهـ قـدـ تـبـطـأـ فيـ الـاسـتـجـابـةـ، ثـابـرـ عـلـىـ الصـلاـةـ بـإـيمـانـ رـاسـخـ فيـ القـلـبـ، فـالـلهـ يـعـيـنـ وـيـحـبـ.ـ وـ الصـلاـةـ مـعـ الـجـهـادـ، لـاـ يـنـسـاـهـ اللهـ، وـ هـوـ دـائـمـ الـاستـعـدـادـ كـيـ يـسـكـبـ نـعـمـهـ الـوـفـيرـةـ التـيـ تـفـوقـ مـاـ يـتـوقـعـهـ الـمـصـلـيـ، إـنـ لـمـ يـكـنـ عـنـدـهـ مـاـ يـعـيـقـ، وـ لـيـسـ فـيـ حـالـةـ تـجـعـلـ عـدـمـ اـسـتـجـابـةـ صـلـواتـهـ خـيـراـ مـنـ تـحـقـيقـهـاـ.ـ فـيـ مـثـلـ هـذـهـ الـحـالـةـ، فـبـدـلـ مـاـ يـطـلـبـهـ، يـرـسـلـ اللهـ أـمـورـاـ صـالـحةـ أـخـرىـ، أـكـثـرـ نـفـعاـ وـ فـائـدـةـ بـالـنـسـبـةـ إـلـيـهـ، سـوـاءـ أـدـرـكـ ذـلـكـ،ـ أـمـ لـمـ يـدـرـكـهـ.ـ فـيـ مـثـلـ هـذـهـ الـحـالـةـ، فـالـاعـتـقـادـ بـأـنـ الصـلاـةـ دـائـمـاـ مـُسـتـجـابـةـ، هـوـ أـمـرـ مـُبـرـرـ.ـ وـ كـثـيـراـ مـاـ نـطـلـبـ أـمـرـاـ دونـ أـنـ نـدرـكـ أـنـ مـاـ نـطـلـبـهـ لـاـ يـصـلـحـ لـنـاـ، فـالـلهـ لـاـ يـسـتـجـيبـ لـطـلـبـنـاـ، وـ مـاـ يـرـسـلـهـ لـنـاـ يـبـقـيـ مـحـجـوبـاـ، لـأـنـ رـؤـيـةـ مـاـ يـرـسـلـهـ اللهـ،ـ لـيـسـ بـالـأـمـرـ الـذـيـ يـخـلـوـ مـنـ الـخـطـرـ عـنـدـ مـنـ سـيـسـنـجـابـ.ـ لـهـذـاـ ثـابـرـ عـلـىـ الصـبـرـ فـيـ الصـلاـةـ، وـ كـنـ مـقـتنـعـاـ انـهاـ لـيـسـ بـدـونـ ثـمـرـ.ـ وـ إـنـ لـمـ تـتـلـقـ مـاـ طـلـبـتـ، فـاعـلـمـ اـنـكـ تـتـلـقـيـ، أـوـ سـتـتـلـقـيـ أـمـرـاـ نـافـعاـ لـكـ،ـ مـكـانـهـ.ـ وـ إـنـ كـنـتـ لـاـ تـرـاهـ وـلـاـ تـحـسـ بـهـ،ـ لـاـ تـحاـولـ أـنـ تـتـقـصـيـ السـبـبـ،ـ بـلـ عـدـ إـلـىـ عـدـمـ اـسـتـحـقـاقـكـ وـ اـجـعـلـ فـيـ نـفـسـكـ فـكـراـ مـتـواـضـعـاـ مـعـ أحـاسـيـسـ حـسـنةـ.ـ فـإـنـ رـسـختـ هـذـهـ الـأـفـكـارـ فـيـكـ نـتـيـجـةـ لـصـلـاتـكـ،ـ فـانـكـ حـتـىـ وـلـوـ لـمـ تـتـلـقـ شـيـئـاـ،ـ حـسـيـاـ كـانـ أـمـ غـيـرـ مـنـظـورـ،ـ فـاقـبـلـ بـهـذـهـ عـلـىـ انـهـاـ مـنـ ثـمـارـ الصـلاـةـ،ـ فـهـيـ نـافـعـةـ لـكـ وـ مـرـضـيـةـ لـلـهـ جـداـ.

اسمع ما يقوله الذهبي الفم: "الصلاه برکة عظيمة إن مورست بحالة داخلية سليمة. و إذا علمنا ذاتنا أن نرفع الشكر لله، سواء أخذنا سؤلنا أم لم نأخذته، فهذا أيضاً سيعود علينا بالنفع والبركة. فعندما تُعطى، فهذا خير لك، وعندما لا تُعطى، فهذا أيضاً خير لك. عندما تأخذ سؤلوك، فمن الأكيد أنك نلتنه، وعندما لا تزاله، فأنت تزال أمراً، و

لم تأخذ ما كان مضرًا لك. ان عدم منحك ما يؤذيك، هو عطية في ذاتها، لهذا، فسواء أخذت أم لم تأخذ، بادر إلى شكر الله على الدوام، وكن على يقين ان الله لا يعطينا إلاّ ما هو حسن لنا".

لذا صلّ إلى الله بصبر، شاكراً إيمانه على كل شيء، وكن على يقين ان ذلك هو الأنسب لك، وان الله هو المحسن إليك، سواء أعطاك، أو حجب عنك. فاثبت على هذا الإيمان، وابق مطيناً بتواضع أمر العناية الإلهية، سواء كانت الأمور مبهجة ، أو غير سارة.

## الفصل السابع والأربعون

### ما هي الصلاة الذهنية أو الداخلية، وما هي أنواعها؟

تكون الصلاة الذهنية أو الداخلية، عندما يجمع الانسان ذهنه، (النوس) في القلب، و منه يرسل كل الصلوات إلى الله، ليس بصوت عال، انما بتعابير صامتة، مسبحاً الله و شاكراً عظمته، و معترفاً بخطاياه بندامة و انسحاق، و سائلاً بركات الله في احتياجاته الروحية و الجسدية. على المرء أن لا يصلّي بالكلمات فقط، بل لتكن صلاته بالذهن أيضاً. و ليس بالذهن فقط، بل بالقلب أيضاً. و ذلك، ليك يبصر الذهن ويفهم، ما يمكن قوله بالكلمات، فيشعر القلب بما يفكر به الذهن. و عندما تلتزم هذه العوامل، فهناك الصلاة الحقيقية. أما إن نقص في هذه الصلاة شيء، فإنما أنها تكون ناقصة و مبتورة، أو لا تكون صلاة على الاطلاق.

ولابد أنك سمعت هذه الكلمات: صلاة الكلام، صلاة الذهن، وصلاة القلب. و ربما سمعت شروحات عن كل منها على حدة. ما الداعي إلى مثل هذا التقسيم بين مكونات الصلاة؟ السبب، هو اننا كثيراً ما يحدث بداعي تكاسلنا و خمولنا، أن يردد اللسان كلمات الصلاة المقدسة، بينما يكون الذهن منشغلًا بأمر آخر. أو أن يكون الذهن في تمثيل وفهم لكلمات الصلاة، بينما القلب بعيد عن كل استجابة من هذا القبيل. في الحالة الأولى تكون الصلاة مجرد كلمات و تتممة، و ليست صلاة على الاطلاق. أما في الثانية، ف تكون الكلمات قد ارتبطت بالمعاني الذهنية، وهي ناقصة وغير كاملة، أما الصلاة الأصلية فهي التي يتضافر فيها عمل اللسان والذهن و القلب معاً.

ثمة صلاة أخرى تدعى المثلول في الحضرة الإلهية، و ذلك عندما ينجمع الانسان كله في القلب، فيشرع في التأمل بالله داخلياً، كأنه منتصب أمامه في داخله، فتناسب في المرء أحاسيس خاصة، كمخافة الله، الدهش (الذهول)، أو الرضوخ لعظمة الله، أو إيمان بمحبته، أو رغبة في تسليم له، أو انسحاق مع تأهّب لكل بذل و تضحية. مثل هذه تنجم عن كون الانسان في أعماق الصلاة، و ان صلاته هي بالقلب و الذهن و اللسان. فإن كان أحد يصلّي بالطريقة الصحيحة، و لفترة طويلة الأمد، فان مثل هذه الحالات، تنتكر في داخله، و ما تلبث أن تدوم فيه فيكون في حضرة الله دائمًا. هذه كانت حالة داود الذي قال عن نفسه: "جعلت الرب أمامي كل حين لأنه عن يميني فلا أتزحزز" (مزמור 16 : 8).

لذا فإن أردت يا أخي أن تكون صلاتك محملة بالثمر الكثير، لا تكتفي بالكلامية منها و حسب، بل بادر كي تكون صلاتك بالقلب و الذهن أيضاً. اجعل ذهنك يفهم و ينتبه لما يُقال. رب قلبك على التحسّس لما يسمع. و الأهم، أن تكون صلاتك من القلب. والتي هي هكذا، تكون كالبرق الذي يتحرّك بسرعة نحو السموات، وهكذا تقف صلاتك أمام عرش الله

الرحوم، فيستمع إليها الله و يستجيب لها أكثر من سواها. هذه كانت صلاة موسى أيضاً عندما وقف أمام البحر الأحمر و نادى الله فسمع له (خروج ١٤ : ١٥) ، و مدة بالقوة كي يعتق شعبه من الأخطار التي كانت تهددهم.

## الفصل الثامن والأربعون

### كيف تتعلم الصلاة على هذا النحو؟

اففترض انك بعد أن طالعت ما ورد سابقاً، ستسأل: كيف تكون ممارسة هذه الصلاة؟ فإليك الجواب: روض نفسك على الصلاة كما بيّنت تماماً، ليس فقط بالكلام، بل بالقلب و الذهن أيضاً. بعد ذلك ستتعلم كيف تمارسها. ترى كيف سبق أن تعلمت القراءة؟ لقد شرعت تتعب من أجلها، و بعد ذلك أخذت تقرأ. كيف تعلمت الكتابة؟ لقد شرعت تكتب، و بعد ذلك تعلمت الكتابة، بالأسلوب نفسه، سترى كيف تكون صلاتك بالذهن و القلب و اللسان، إن أنت شرعت في ذلك وعملت فيه بدقة.

أنت تعرف طبعاً كلمات الصلاة، فقد تعلّمتها منذ صباك، و يمكنك أن تجدها مدونة في كتاب الصلوات ، و الكتب الطقسية الأخرى. انها الصلاة النابعة من قلوب القديسين، و القديسات، الذين حرّكهم الروح القدس، فعبروا أمام الله عن شوق قلوبهم، و ذلك من خلال هذه الصلوات التي تحوي روح الصلاة و كنهمها. لذا فان طالعتها كما يليق، ستمتنى من الروح نفسه، كما يتّحد القارئ بروح الكاتب الذي يطالع أعماله. لكل إنسان هذه الخبرة، و أنا على يقين انك ولجهت الخبرة ذاتها.

و كلمات الصلاة مجموعة و مبوبة في كتب الصلوات. لذا فأنت بغني عن جمعها و تبويبها. فاقتن لنفسك كتاب صلوات، و افرز وقتاً محدداً لها لمطالعة الصلوات المدونة بانتباه و يقظة على كل كلمة من كلماتها. فكر في الأمور التي تعبر عنها، و حاول أن تجدّد في قلبك المشاعر التي تشيرها الصلاة في من يمارسها و يطالعها.

و قد تقول: حقاً، كل الناس يفعلون هذا. إن كان الأمر هكذا، فلماذا لا يصل الجميع إلى الصلاة الحقيقية؟ السبب يرقى إلى انهم رغم إتمامهم قراءة الصلوات المدونة، و الوقوف أمام الأيقونة، و ترداد الصلوات، لا يجمعون ذهنهم و قلوبهم في كلمات الصلاة. فأذهانهم تزبغ و تشرد، و قلوبهم تجري وراء أهواءهم الخاصة، لا وراء الصلاة. أما أنت فمتي صلّيت، فاجعل ذهنك على كلمات الصلاة، و بادر إلى قلبك تروّضه على تمثيل و هضم ما يُقال، بعد ذلك ستأتي إلى مذاكفة ثمار الصلاة.

وما دامت أمامك كلمات الصلاة، وتعرف معانيها، وتفهمها و تتحسّس حلاوتها، فالأمور الأخرى باتت مرهونة بك. الصلاة، و النمو فيها، أمران منوطان بك، و في متناولك. إن كان شوقك الى الصلاة، بلهفة و حرارة، فلا بد أن تنجح.وها أنا الان أضيف إليك بعض النصائح، تسهل لك السبيل إلى النجاح في الصلاة:

حاول مجاهداً كي تتأمل و تتحسّس الصلوات التي تتلوها. و ليكن هذا لا لساعة و حسب، بل في كل حين أيضاً. و إن فعلت ذلك، سيسهل عليك تمثيل وهضم كل ما في الصلاة، عندما تصلّي. ما أن تشرع ببعض الصلوات، ستتزاحم في ذهنك كل الأفكار والأحساس التي فيها. ستكون الكلمات كما لو أنها تنبع منك ، و تفيف من قلبك، بدل أن تدخل إليه.

بعد أن تبلغ إلى مذاقة الصلوات، بالأفكار والأحساس، بادر الى حفظها غيباً، فأنت بذلك ستحمل الصلوات فيك، فتستغلي عن الكتاب. الصلوات التي كانت في الكتاب، كانت خارجة عنك، و بعيدة منك، لكن عندما تبادر الى حفظها غيباً، تتحول اليك و تقوم فيك في كل الظروف والأحوال. أضف إلى ذلك انه عندما تتلو صلاتك من الذاكرة ، فأنت تعمّق أفكارها وأحساسها فيك، على نحو يفوق مجرد تلاوتها أو النظر فيها، و تحسّس معانيها. و حينما تتقن هذه الصلوات، ليس غيباً فقط، بل بالاحتفاظ بالأفكار والأحساس التي تحولها إلى داخلك، سيبني فيك صرح الصلاة. ان هذه هي أفضل السبل لتكوين الصلاة اللائقة.

عندما يحين وقت الصلاة، لا تبادر إليها توأً، بمجرد توقفك عن نشاطاتك اليومية. انما اعدد نفسك من أجلها. اصمت بعض الشيء، ريثما تتحرّك فيك مشاعر الصلاة. وهذا نتعلم من كتاب الصلوات. تذكر ما تريده. من أنت . تذكر من سيصلّي تذكر من هو الذي ترفع الصلاة إليه. لا تنسى ما ينبغي قوله في الصلاة. انتبه الى كيف تصلّي. ان هذا الاستعداد واجب، ولا بد منه، في الصباح، بعد أن تكون النفس قد أفاقت من نوم كثيف، و شرعت الاهتمامات الجديدة تثب الى الذهن بعد اليقظة. أما في المساء، فتكون النفس مثقلة بالصور العديدة التي انطبعت فيها عبر النهار، لا سيما تلك المؤثرة جداً جداً، المفرحة و المحزنة على السواء، حاول أن تتنفس ذهنك منها جميعها، كي لا تنشغل بها عندما تتكلّس للصلاة، و إن كان ثمة ما يثيرك، بعد كل هذا، ولم تفلح في طردك و التخلص منه، فبادر إلى تحويلها إلى موضوع للصلاة، للشكرا، أو طلباً للعون الإلهي، أو للانعتاق من الآثام، أو لتسليم الذات، بكل ما فيك، رافعاً كل ما فيك، نحو الإرادة الإلهية.

و قبل الشروع في الصلاة، تذكر انك في حضرة الله. املاً نفسك من أحاسيس التخشّع و المهابة، مجدداً في أحشائك، اليقين، بأن الله يراك و يسمعك، و انه لا يشيخ وجهه عمن يطلبوه، بل ينظر إليهم بحنان كبير. اقرن صلاتك بالرجاء في أن الله متأهب كي يعطي، و انه على الدوام يوجد عليك بسؤالك، إن كان في ذلك من فائدة لك.

وعندما تبلغ نفسك هذه الحالة، بادر إلى تلاوة الصلاة بيقظة وعمق، وابذل قصارى جهدك لتجعلها تفيض من القلب، كما لو أنها منك. و بالرغم من معرفتك لها، عن ظهر قلب، لا تسمح لنفسك بالشروع، و لا تدع أفكارك تبارحك. و ما أن تشعر بذلك، بادر إلى جمع أفكارك في قلبك، و بادر إلى الصلاة من حيث بدأ الشروع . تذكر ان اليقظة غريبة عن الشروع عندما يكن القلب طافحاً بأحاسيس الصلاة. ليكن اهتمامك منصبًا على هذه الأحساس . لا تتسرع في تلاوة صلاتك، بل واذهب عليها حتى المنتهى، بتخشع وجلد يليقان بهذا العمل المقدس. و إن كنت تشتقق إلى الصلاة على هذا النحو ، فانك سنتقتنى روح الصلاة بيسير و سهولة . ومن الواجب الاحتفاظ بها حيّة و قوية، قدر المستطاع. و إن أردت هذا لنفسك، فبادر بعد انتهاء الصلاة، إلى عدم الارتماء في الهموم اليومية، ظاناً انك قد قمت بكل ما يترتب عليك امام الله. لا تطلق لأفكارك و مشاعرك العنوان. جاحد أن تكون طيلة يومك، كما لو أنك تصلي . و كي تفلح في مسعاك، تذكر انك في حضرة الله، و ان يده تحميك من الوقوع في الهلاك. و إذ تجعل هذه الأمور في ذهنك، قم إلى أعمالك، تممها كلها، الصغيرة منها و الكبيرة، على نحو يليق بإراده الله. و اطلب بركته كي تتمكن من تحويل كل شيء لمجد اسمه.

و إن فعلت هكذا، تكون في صلاة حقيقة، إلى أن تأتي ساعة الصلاة في المساء، فتنتلو الصلاة على النحو نفسه، تخلد بعدها إلى نوم هادئ طيلة الليل. و هكذا تكون قد قضيت الليل و النهار في صلاة جيدة. و عندما تنقضي الأيام و أنت تصلي هكذا، فانك ستبلغ كمال الصلاة في شهور قليلة و ربما في أسبوع. و ستكون الصلاة مصباحاً دائم النور، يضرم قلبك على الدوام.

سأضيف أمراً آخر هو ضرورة استمرار فعل الصلاة منذ بدايتها، بدون انقطاع، حتى لحظة بدء النجاح و بلوغه. فإن صلّيت اليوم جيداً ، و احتفظت في داخلك بحالة الصلاة هذه، لكنك توانيت في الغد، و قضيت يومك في التراخي، فانك لا تبلغ أي فلاح في عمل الصلاة، لأنك ستكون كمن يبني اليوم، ليهدم غداً. في النهاية تخبو صلاتك وتتجفّ، و تصبح

النفس عاجزة عن القيام بها. و هكذا فإذا شرعت مرة على نحو جيد، بادر إلى الاستمرار عليه بجلد، و بدون وجل أو ضعف أو تكاسل.

## فصل (49)

### في الصلاة المرتجلة

كل ما قيل آنفًا، هو عن الصلاة المدونة، أي تلاوة كلمات ليست من الشخص نفسه الذي يصلي، رغم ان هذه التلاوة تقوم على جمع الذهن، وعلى عاطفة جياشة قوية. فهل ينحصر المصلّى بمثل هذه الصلاة دائمًا؟ الصلاة نفسها هي التي ستجيئه على سؤاله، وانت، فبادر الى البدء بالصلوات المحفوظة غيّباً. تممها على اكمل وجه، ومنها ستنغرس الصلاة فيك. وبقدر ثباتها ، وتجذرها فيك، تحثّك على صلوات اخرى ارتجالية، منك، كما يصورها القلب حسب حاجته. فعبر الصلوات المرتبة، يرسل الله صلوات خاصة. الصلاة الارتجالية لها وقوعها ومكانتها، وهي جزء من عمل الصلاة كله.

لقد ذكرت في الفصل السابق، انه لو حدث اثناء تلاوة الصلوات المدونة، ان مسّت نفسك بعض كلماتها، وملأتها، فلا تعبّر عن ذلك، بل بادر الى التوقف، وصلّ بكلماتك انت معبرًا عما امتلأ قلبك به. و اذا كنت تتطلع كلمة الله، وصادف لقاء احد المقطاع، مع حاجة فيك، او اذا رايك قول احد الآباء القديسين اثناء قراءة اعماله، او عندما تعكس بعض الخلائق مشاعر الهيبة في اعماقك، كأن تكون حول عظمة الله و كمالاته، و خلائقه البديعة، و قدرته على كل شيء، عنایته، و اعماله المذلة، و افتقاده لنا بالتجسد من اجل خلاصنا، او عندما تلفتك بعض احداث الحياة اليومية، ويكون لها وقع فيك، و تأخذ مجتمع قلبك، و تدفعك نحو الصلاة الى الله في الأعلى، فبادر الى الاستجابة لتأثيراتها، وقف عملك، مهما كان، ولو الى حين، لتصلي الى الله.

فهذه الدوافع كلها تعني، ان الصلاة تأسّلت فيك، وتجذّرت. و مثل هذه الانطباعات ، لا تأتي في العادة من مجرد التمرّس على الصلاة، بل من الثبات فيها لوقت طويل. وتكون الدوافع هذه بمثابة علامة على نموك المطرد في الصلاة. وهذه، بقدر انتشارها و فعلها في حياتك، يكون قلبك مفعماً بها. ان كل صنوف الصلوات تؤول الى كمالها عبر الصلاة الارتجالية، رغم ان هذه الاخيرة لا تلغى، في أي حال، انواع الصلوات الاخرى، بل تدخل فيها لأنها من الطينة نفسها، و من نفس درجة فضيلتها. لا يمكن الاستغناء عن الصلوات المرتجلة، و لا تستبدل ، الا بالوقفة في حضرة الله بصمت متأمل لا كلام فيه.

و اعلم ان دافع الصلاة في القلب، كثيراً ما يتولد من ذاته. و احياناً تتولد الصلاة في القلب بمحاجة انتطاب لا يكون للمصلني دور فيه. و هكذا، فعليك ان ترتب صلاة تليق بالدافع الذي فيك. كذلك عليك في الحالة الثانية ان تصيغ السمع، فلا تتدخل في الصلاة المتقدمة من القلب. بالإضافة الى ذلك، اذكر بأنك لا تصنع صلاة دون ان يكون عندك الدافع او الحاجة الداخلية الى ذلك، فأنت تستطيع ان تصنع حديثاً بديعاً جميلاً مع الله، دون ان يكون هذا صلاة، بل مجرد الفاظ منمقة و تنسيق للأفكار، فتكون كلماتك خالية من روح الصلاة. حذر من ذلك، لأنك ان فعلت هكذا، لا تعود قادراً على تجنب المجد الفارغ، و تقدير الذات بتفريط، فمن شأن كل هذه ان تخنق الصلاة الحقيقية فيك، وتجعلها قالباً بدون قلب.

اما في ما يختص بالصلوات التي تتشكل في القلب من تلقاء ذاتها، فيكون الدافع نحوها امر لا يؤثر فيك، و تكون بمسيس الحاجة اليه، اعني الصلوات التي من القلب، والتي هي من صنعك، و التي اما انها من عناصر الصلاة المتجمعة في القلب، نتيجة لكثره التمرس عليها، و تمثلها، و اما ان تكون ناجمة عن عمل النعمة الالهية. في مثل هذه الحالات تكون بمثابة بذار للصلاة الروحية، و هي التي ذكرتها في الفصل (47). فعندما يمنحك رب هذه الظاهرة، اعلم انك قريب من الكمال، فاشكر الله، و اسلك في حياتك بتخشع و مخافة و رعدة، لأنه بمقدار ما يكون الكنز قيماً، تكون بنفس المقدار، نظرات العدو الحسود اليك.

## فصل (50)

### في الصلوات القصيرة و التنهد الى الله

قيل مرات عده ان الصلاة الداخلية هي الصلاة الحقيقية التي لا تقوم فقط على كلمات، بل تكون بالذهن و القلب ايضاً. هذا النوع من الصلاة، يستجمع كل الانتباه، و يجعله داخل القلب. هذا النوع من الصلاة، يستجمع كل الانتباه، و يجعله داخل القلب. لهذا فالبقاء في الداخل علامة على وجود الصلاة الحقيقية، و الشرط الاساسي لتحقيقها. و من ثمار البقاء في الداخل، التفكير بأن الله حاضر و يصغي اليها، لهذا نرفض كل الافكار الاخرى، الامر الذي يعرف باسم يقظة القلب و حراسته، لذا فان كل جهد الانسان المشتاق الى التقدم في الصلاة، هو ان يرتفع الى هذا الهدف، اعني ان لا يبارح الانتباه القلب مع حراسته ضد كل الافكار، خلا الفكر المرتبط بالله. فيقوم الانسان بما يريد القيام به، دون ان ينسى الله، او يشيح وجهه عنه. ان هذا اسمى امر في عمل الصلاة. اما الطريق لهذا فهو تلاوة الصلوات كما هو مبين اعلاه، فهي التي تجعل الذهن ينجمع في القلب، يشتق ان يكون دائمًا في الروح. فالصلاحة الدائمة تكون قد حلّت فيه بلهفة، و الرغبة هذه تستتبع إرواها، ان الذين احسوا بهذه الرغبة، تشتعل فيهم، يجدون الى وسيلة يبلغون بها الصلاحة الدائمة. و الارشادات التي قدمها الآباء القديسون في ما يختص بيقظة القلب و حراسته، من شأنها ان تقود الى هذه اللهفة المذكورة، و تعمل بهذا الاتجاه، و ليس لها مصدر غير النمو في هذا العمل.

فإن أحسست بهذه الحاجة، قد يتبعادر إلى ذهنك السؤال التالي: كيف السبيل إلى البقاء داخلياً أمّا وجه الله؟ كيف السبيل إلى بلوغ حراسة متيقظة واعية دائمة للقلب؟ في الحقيقة إن الصلاة المتلوّة هي بداية الطريق، إلا أنها لا تبلغ الغاية ذاتها، وهي ليست الكمال في عمل الصلاة و قوتها المبتغاة. الصلوات المتلوّة هي مركبة، و من شأنها أن تحوي أموراً عديدة تقدمها إلى الذهن الصاحي الوعي. ورغم قدسيّة هذه الموضوعات، فهي قد تذكر المرء بموضوعات مماثلة من الحياة اليومية، وقد تؤول إلى أخرى عالمية (دنيوية)، غير تخشعية، حسب نواميس توارد الأفكار و التصورات. ولا يمكن أن تخلو أغلب الصلوات المتلوّة من الجهاد و المتابعة ضد فكر يضل فيتجوّل هنا و ثمة. و لما كان هذا قادراً أن يدخل الإضطراب إلى الصلاة، فتفقد نقاوتها و بعاءها، فليس من انسان يصلى إلا و يرثي تحت هذا الضعف و يرغب في الانعتاق منه. و قد انشغل الآباء بهذا الضعف منذ أمد بعيد، و قاموا بجهود عظيمة في حياتهم من أجل هذا الغرض. ما هي السبيل التي اهتدوا إليها؟ إنها ترداد صلوات قصيرة تصون الفكر في الداخل ليتمثل أمّا وجه الله و

هكذا لا تدع فرصة للشروع او التجوال البعيد. و يذكر القديس كاسيان ان هذا التدبير كان ذائع الصيت في مصر في زمانه (مناظرات 10 : 10) . و في كتابات اباء آخرين، نجد ان الصلوات القصيرة كانت معروفة في سيناء و فلسطين و سوريا وفي كل مكان بلغت اليه المسيحية. فكانت معانٍ هذه الصلوات القصيرة تدور على النداء: " يارب ارحمني " ، و اخرى غيرها قائمة في كتب الطقس، كالافخلوجي و المزامير.

لذا فأنا انصحك ان تختار لنفسك واحدة قصيرة، او اخرى لترددتها على الدوام، و الترداد كفيل بتعويذ اللسان عليها، فتصون فكرك و تجمعه في نقطة واحدة، هي، ذكر الله. وللمراء حرية الاختيار في الصلوات القصيرة التي يستعملها. ففي كتاب المزامير ثمة استغاثات و ابتهالات الى الله، فاختر منها ما يلاءم حالتك، و احفظها غيباً، مردداً ايها على الدوام، و اجعلها في صلاتك الخاصة، وعلى لسانك، كل حين، مهما كنت تفعل، من وقت الى آخر. كما و يمكنك ان تشكل صلواتك لتعبير عن احتياجاتك، على غرار صلوات الذهبي الفم القصيرة التي هي (24) في العدد، و التي دونت في كتاب الصلوات.

لا يكن لك العديد من الصلوات القصيرة كي لا يقفز انتباهك بين هذه و تلك، فتصل الى غير النتيجة المرجوة، بل اعمد الى عدد قليل حيناً، فتتلئ هذه تارة، و تلك اخرى، من اجل التجديد الروحي. لكن ليكن انتقالك بينها ببطء، دونما اسراع. تناول الصلاة القريبة من حالتك الروحية ، و تضع من خلالها الى الله، كي يملأ بها نفسك. بعد ذلك يمكنك ان تستبدل المزامير كلها، او بعضاً منها بهذه الصلوات القصيرة. اجعلها نبراساً لك ترددتها مرات عده: عشرة، عشرين، خمسين، او مئة مرة، بسجادات و مطانيات. لكن دائماً انتبه لامر واحد هو ان تجمع انتباهك كله موجهاً اياه نحو الله. و اني سأدعو هذا التدريب تنهى الصلوات القصيرة الى الله، و التي ينبغي ان تدوم في الليل و النهار، عندما لا نكون نيااما.

## فصل (51)

### صلوة يسوع

فئة من رجال الصلاة، يفضلون صلاة قصيرة واحدة يعكفون على تردادها باستمرار. القديس كاسيان يقول بأن الصلاة التي كانت تتردد على لسان كل مصرى صادفه، كانت الآية الاولى من المزمور (70) و قد جاء في سيرة القديس جوانكي ان الصلاة التي ألف تردادها، كانت: الآب رجائي و الابن ملجأي و الروح القدس وقائي". فكان يضيفها الى كل آية من الثلاثين مزموراً التي حفظها عن ظهر قلب. آخرون ألقوا استخدام الكلمات التالية، كصلاة: "أخطأت كانسان، اما انت فارحمني كاله". إلا ان الغالبية منذ القديم، فقد كانت تصلي على النحو التالي : "ياربي يسوع المسيح، ابن الله ارحمني". و يمكننا ان نجد اشارات الى هذه الصلاة، عند القديسين: افرام السريانى، و القديس يوحنا الذهبي الفم، و القديس اسحاق السريانى، و القديس ايسيخيوس الكاهن، و القديس برصنو菲وس، و القديس يوحنا السلمى.

و فيما بعد شاعت هذه الصلاة و طبّقت شهرتها الافق، و صارت على كل فم و شفة، و ادرجت بين صلوات الكنيسة، لذا فهي الآن مستعملة اكثر من أي صلاة اخرى. لذا انصحك ان تمارسها.

سميت هذه الصلاة صلاة الرب يسوع، نظراً الى انها موجهة لربنا يسوع المسيح. انها صلاة صوتية كحال آية صلاة اخرى، إلا انها ايضاً ينبغي ان تكون كآلية صلاة، ليس فقط بالكلمات، بل بالذهن و القلب أيضاً. كما ويجب ان يتذوقها المرء بوعيه و مشاعره، الى ان تختفي الكلمات مع طول الممارسة ، فتصبح الصلاة حركة روحية داخلية. لكل صلاة قصيرة، القدرة ان ترقى بممارسها الى هذه القامة، الا ان صلاة الرب يسوع، تتميز عن سواها بأنها تصل النفس بالرب يسوع. الرب يسوع هو الباب الوحيد الذي به نعبر الى الآب، غاية الصلاة. و يسوع قال: "لا احد يستطيع ان يأتي الى الآب إلاّ بي" (يوحنا 14 : 6). في هذه الصلاة ننال بركة الافتقاد الالهي عبر التجسد الذي هو طريق خلاصنا. فالذين اشتقوا الى الخلاص، لم يهملو التدرب على هذه الصلاة كي ينالوا فعلها و قوتها.

و اذ تسمع هذا، فانك لن تندesh في ان الذين جاهدوا من اجل الخلاص، بذلوا كل غال و رخيص كي يكتسبوا هذه

(1) راجع كتاب "اليقظة و الصلاة" باب صلاة الرب يسوع

الصلوة و ينالوا قوتها، و عليك انت ان تحذو حذوهم.

و اكتساب هذه الصلاة يقوم على امررين: واحد خارجي، و الآخر داخلي: اما الخارجي فهو ان تبلغ الى حالة تنسكب فيها الصلاة على لسانك، من تلقاء ذاتها، و على الدوام و الداخلي، فهو تركيز انتباه الذهن في القلب، و البقاء هناك في حضرة الله. هذا و للصلاحة عدة درجات حسب حرارة مشاعر القلب، و حسب درجة رفض الانسان لسائر الافكار الاخرى. إلاّ ان على الانسان قبل كل شيء ان ينسكب امام قدمي ربنا و مخلصنا في تضرع و انسحاق. و الخطوة الاولى لاكتساب ذلك، هي في ترداد صلاة يسوع: "ياربِي يسوعَ المَسيحَ اَرْحَمْنِي اَنَا الْخَاطِئُ" ، و ذلك مرات عدة قدر المستطاع، مصحوبة ببيضة القلب. بالثابرة ينجمع الذهن في فكر واحد، و يمثل امام الرب. بعد ذلك تسري في القلب حرارة داخلية الالهية تطرد كل الافكار، و تحرق كل الافكار، ليس الشهوانية فقط، بل البساطة ايضاً. عندها تشتعل النار الالهية في القلب، و يغمر الانسان سلامًّا كامل و هدوء عجيب، فيشعر و كأنه في سجود امام الرب. بعد هذه المرحلة ، فان كل ما نبلغه بالصلاحة هو من هبات النعمة الالهية و حسب. و الآباء الالهيون ذكروا ذلك ، لئلا يظن انه بلغ قمة الكمال في الصلاة، و ان ليس له ما يرجوه و يتمناه بعد بلوغ الكمال في الصلاة و العمل الروحي.

و هكذا فواجبك الاول يقضي ان تمارس صلاة الرب يسوع بتكرار كثير، قدر الامكان، الى حين تكتسب عادة الترداد على الدوام. و ليكن عملك على هذا النحو:

**1**- خصّص مكاناً لممارسة هذه الصلاة. رددّها مرات عديدة في مطلع قانون صلواتك. عُد الى تردادها لدى الانتهاء من برنامج صلواتك. و ان امكن، رددّها بعد كل مزمور يندرج في قانونك، اسوة بالقديس جوانكي الكبير الذي كان يتلو صلاته القصيرة "الآب رجائي و الابن رجائي و الروح القدس وقائي".

**2**- اما من جهة عدد المرات التي تتلوها فيها، فيمكنك ان تتلوها في كل المناسبات، او ان تسأل اباك الروحي في هذاخصوص. لكن لا تتلوها بأعداد كبيرة في البداية، بل دع الزيادة تدريجية حسب نمو فرحك بها. و ان حدث ان راودتك رغبة في مضاعفة العدد، فلا تنكرها على نفسك، انما يجب الاّ يجعلها قانوناً يلزمك، و لا ترفضها مهما كان عدد المرات التي يطلبها قلبك.

- 3**- لا تبادر الى الانتقال سريعاً، من صلاة الى اخرى، بل لتكن صلاتك ذات قياس و ايقاع مدروس، كما لو انك تطلب امراً من انسان ذي شأن. ليكن انتباهك ليس فقط على الالفاظ، بل على بقاء ذهنك في القلب امام الله، كما لو كان حاضراً، و كن امامه بكل احساس لعظمته و نعمته و حقه.
- 4**- و ان كان لديك متسع من الوقت، بين صلاة و اخرى، فأعط لنفسك ان تقف، كما لو كنت تقف للصلاة و ارفع الى الله هذه الصلاة، مكرراً ايها مرات و مرات. و ان كنت منهمكاً بعمل ما، فاجعل هذه الصلاة داخلية في كل مجالات اعمالك، وحتى في حديثك.
- 5**- و اثناء اداء هذه الصلاة في قلب برنامج صلاتك ، قف وقفه صلاة، بين محطة و اخرى من برنامج، مبادراً الى السجود حتى الارض، بعد كل تلاوة. و لتكن السجادات عشرة من الوسط، بعدها سجدة كاملة الى الارض، و تابع على هذا التوال، حتى النهاية. ما من شك انك سمعت او طالعت ان الآباء القديسين في كلامهم عن الصلاة يولون السجادات اهمية كبيرة، وقد قال احدهم: لا تكون الصلاة مقيولة امام الله، الا اذا جاهد الانسان بعدد من السجادات (المطانيات). اعمل حسب هذه النصيحة قدر الامكان، فتجني في وقت قصير ثمرة عملك هذا (اكتساب صلاة الرب يسوع).
- 6**- اما ان اردت المزيد من التعليمات و الوصايا و التنبيهات عن صلاة الرب يسوع، فطالع القديس سمعان اللاهوتي الجديد في الفيلوكاليا، و القديس غريغوريوس السينائي، و نيكيفوروس الناسك، مع كالبيستوس و اغناطيوس. ويمكنك ايضاً ان تطبق تعاليم الآباء الآخرين عن الصلاة الداخلية (صلاحة الرب يسوع). و انتبه الى انك تستطيع ان تجد تعليمات في كتابات الآباء السابق ذكرهم، حول كيفية الجلوس، و حول وضع الرأس، و كيفية التنفس. وقد قال كالبيستوس و اغناطيوس: هذه الطرق ليست ضرورة حتمية، انما هي عوامل خارجية مساعدة، وهي لا تناسب كل انسان. اما بالنسبة اليك، فيكفي ان تجمع انتباهك في القلب امام الرب، وترفع اليه الصلاة بتواضع و مهابة، مع سجادات ، ان كنت واقفاً للصلاحة حسب نظامك، او ان تقوم بالسجود داخلياً وذهنياً، ان كنت تقوم بإحدى نشاطاتك اليومية.
- 7**- ولا تنسى ان تجعل انتباهك في القلب، او داخل الصدر، او كما يقول بعض الآباء الى اليسار قليلاً من القلب، وهناك تردد صلاة الرب يسوع. و عندما يتضيق القلب و يتوتر، اعمل بمقتضى نصيحة القديس نيكيفوروس الناسك،

و غادر ذلك المكان و انت تردد هذه الصلاة. و بالتحديد، توجه الى تفاحة آدم التي تقع في القسم العلوي من الصدر، لتعود بعد ذلك الى منطقة القلب. لا تهمل هذه الملاحظة مهما بدت بسيطة و غير روحية بالنسبة اليك.

8- و اذ تطالع اعمال الآباء القديسين، فانك ستجد تنبيهات عدّة هي ثمرة خبرة في الممارسات الخاطئة، و ان اردت تفادى هذه الاخطاء، عليك بمن تستشيره، الاب الروحي، او زميل لك من نفس العقل و القامة، تقدر ان تكلمه و تتحقق منه عن كل ما يحدث لك اثناء تلاوة هذه الصلاة. أما من جهة نفسك، فاسلك ببساطة كبيرة و تواضع عظيم دون ان تنسّب النجاح الى ذاتك. و اعلم ان النجاح الحقيقي، يأتي الى الداخل على نحو غير ملحوظ، و بدون ظهور ، كما هو الحال في نمو الجسد. و ان حدث ووسوس لك صوت في داخلك يقول : ها قد بلغت مبتغاك ، فاعلم انه صوت العدو الذي يقدم لك امراً خيالياً و غير حقيقي. هنا يكمن اساس الانخداع الذاتي. اما انت فبادر الى احمد هذا الصوت، كي لا يستمر فيك كالبوق، و يغذي المجد الفارغ.

9- لا تحدد زمناً للقيام بهذه الصلاة، انما بادر الى القرار الوحيد: اعمل، اعمل على الدوام. ايام و شهور و سنين قد تمضي قبل ان تتلمس ظهور علامات النجاح. لقد قال احد الآباء في جبل اثوس عن نفسه: لقد مر على سفتان قبل ان بدأت حرارة القلب في . و عند أب آخر ، فالحرارة هذه، ظهرت بعد ثمان شهور. و هي تأتي عند كل انسان حسب استعداداته و جهاده في العمل.

## فصل (52)

### امور تساعد على النجاح في اكتساب عادة الصلاة

ان كنت ترغب في النجاح في عمل الصلاة، عليك التوفيق بينها وبين الامور الأخرى، موجّهاً كل شيء الى الصلاة، و الاّ فأنت تهدم بيدك، ما تبنيه بالأخرى.

**1**- تشدد في التعامل مع جسمك، في طعامه و نومه و راحته، لا تمنحه أي شيء بسهولة، لمجرد انه يتطلب. و الرسول يقول هذا ايضاً: " لا تصنعوا تدبيراً للجسد من اجل الشهوات" (رومية 13 : 14). لا تساوم مع الجسد.

**2**- قلل من اتصالاتك الخارجية، عدا الضرورية منها. وهذا يكون لدى قيامك بالصلاحة. لكن فيما بعد، عندما تبدأ الصلاة عملها فيك، فإنها ستعلّمك من ذاتها ماذا يمكن ان تضيّف، دون ان تفسد صلاتك، راقب، لا سيما، حواسك، عيناك و اذناك قبل أي شيء آخر. قيد لسانك، و بدون ذلك، لن تتقىد قيد النملة في عمل الصلاة. و كما انه لا يمكن لشمعة ان تضيء امام الريح و المطر، هكذا فنار الصلاة يستحيل ان تشتعل في غمرة الانطباعات و الصور الآتية من خارج.

**3**- استعمل كل الوقت المتبقى من الصلاة، في المطالعة و التأمل. و اختر لمطالعتك كتاباً تتناول شأن الصلاة، و شأن الحياة الروحية الداخلية عموماً. تأمل في الله و في اموره الالهية. و فوق كل شيء، ليكن تأملك في التجسد الذي كان من اجل خلاصنا، و في الآم ربنا و مخلصنا، و موته. فان عملت هكذا، تكون على الدوام غائباً في بحر النور الالهي، و اذهب على الذهاب الى الكنيسة، كلما امكنك ذلك. فمجرد حضورك في الكنيسة من شأنه ان يحيطك بسحابة من الصلاة. فكم تنال ان كنت اثناء الصلوات، في حالة صلاة حقيقة؟!

**4**- اعلم انه يتغدر عليك التقدم في الصلاة بدون تقدم عام في السيرة المسيحية. و من الضروري جداً ان تكون النفس غير مثقلة بأية خطيئة ما لم تتنق منها بالتوبة. فان كنت قمت بشيء ازعج ضميرك ابان الصلاة، فبادر الى تطهير نفسك بالتوبة . فان كنت قمت بشيء ازعج ضميرك ابان الصلاة، فبادر الى تطهير نفسك بالتوبة حتى تستطيع النظر الى الله بشجاعة. لتكن مشاعر التوبة في قلبك على الدوام. لا تهمل اية فرصة لعمل صالح، لإظهار مشاعر حسنة، لا سيما التواضع و الطاعة و قطع الارادة الذاتية، ولتكن الرغبة و الغيرة في خلاص نفسك، مضطربة و تملأ كل نفسك وكل الاشياء الكبيرة و الصغيرة، بكل قوة، و بمخافة الله مع ثقة به لا تتزعزع.

5- و اذا وطّدت نفسك على هذا ، بادر الى الصلاة، و مارسها ، عاكفاً على الصلوات المقوءة حيناً، وعلى الارتجالية حيناً آخر، و على الصلاة بابتهالات الله، آخر. و اخيراً ، اعكف على صلاة الرب يسوع دون ان تهمل أي امر يعيشك على ذلك. بهذه ستثال ما تبتغي. و اذكر بكلمات القديس مكاريوس المصري: الله يرى اعمال صلاتك و اخلاصك ورغبتك في النجاح فيها . هو نفسه سيعطيك صلاة و اعلم انه رغم ان الصلوات التي تقام بجهادات الانسان، تفرح الله ، الا ان الصلاة الحقيقية التي تسكن في القلب و تدوم فيه، هي هبة منه، و انها عمل النعمة الالهية. لذا ففي صلواتك التي تطلب فيها اموراً كثيرة، لا تنسي ايضاً ان تصلي طلباً للصلاة.

6- سأعيد على مسامعك ما سبق ان سمعته انا من انسان محب الله، قال: لم تكن حياتي حسنة، لكن الله رأف بي ورحمني، و ارسل اليَ روح توبة. كان هذا اثناء الاستعداد للمناولة. كنت احاول جاهداً ان اغرس في نفسي عزماً ثابتاً على اصلاح طرقي، لا سيما قبل الاعتراف. صليت طويلاً امام ايقونة والدة الاله طالباً منها ان تزودني بهذا العزم . و اثناء الاعتراف، بادرت الى البيو بكل شيء صراحة. اما ابى الروحي فلم يتكلّم ، و لكن اثناء صلاة الحل فوق رأسي، اضاء في قلبي نور بهي، و كان احساسی به شبیهها بابتلاع طعام لذیذ، و استمر هذا النور في قلبي، و احسست و كأن هناك من يمسك به. و منذ ذلك الحين و انا اصلی على الدوام وقد حفظت انتباھي في القلب، جاعلاً ایاه هناك حيث كان شعوري الاول البهي، و كان همي الاحتفاظ به. و الله اعانني، فلم اكن قد سمعت عن صلاة الرب يسوع. لكن لما سمعت عنها، ادركت ان ما بداخلي هو تماماً ما يطلبه المرء بهذه الصلاة. لقد اطلعتك على هذه القصة لتفهم ما المقصود بعمل الصلاة، و ما العلامات ان هذه الصلاة قد حققت هدفها.

7- سأضيف ايضاً بضعة كلمات للقديس غريغوريوس السينائي (الفيلوكاليا، الجزء الاول، ص 112): " تستقر النعمة الالهية فينا منذ ان ننال العمودية المقدسة، الا انه عبر غفلتنا، تنسل الاباطيل و الشرور و السيرة السيئة، فتخمد النعمة و تدفن. لكن عندما يوطّد المرء العزم على ان يعيش سيرة صالحة، و يشتق الى الخلاص، فان ثمرة اتعابه تكون استرجاع عمل النعمة بأكملها. وهذا يحدث تحت وجهين:

- 1- تنكشف هذه الهبة عبر الانشغال الكثير بحفظ الوصايا. و متى نجح الانسان في الوصايا، تصبح الهبة هذه اكثر لمعاناً وضياء.
- 2- انها تنضح و تنكشف بالدعاء الدائم لربنا يسوع في الصلاة الامر الاول قوي، اما الثاني فأقوى. فان كنا ننتقّل بالأول، فلننبار الى تدريب النفس على الصلاة من عمق القلب، كي يكون هذا العمل في الصلاة و حسب، و يكون خالياً من

الأشكال والخيالات، فيصبح القلب حاراً و مشتعلًا بمحبة الرب المتعذر النطق بها. ان هذا النص يحتوي على كل ما ذكرته في الفقرة الرابعة.

## الفصل الثالث و الخمسون

### دور الصلاة في الحرب غير المنظورة

في حديثي عن الصلاة، عالجت أمر الوسائل التي ترقى بصلاتك الى المستوى المرجو، وقد تؤخذ بهذا الكلام فتقول: ما العلاقة بين رفع الصلاة الى القامة المرجوة، وبين الجهادات الروحية؟ لا تستغرب في كلامي في مسألة الجهادات الروحية، المتعلقة بالصلاحة الحقة، والتي يستحيل ان تكون سلاحاً قوياً في الجهادات الروحية، إلا إذا كانت حقيقة، أعني عندما تتجذر في القلب، و منه تعمل بلا انقطاع، فتكون سداً منيعاً لا يُدك ، تتقى به النفس نبال العدو وضربات الأهواء، و غوايات الدنيا وخداعاتها. ان قيام صلاة حقيقة في القلب، يقطع الحرب اللامنظورة ويبعدها. لهذا نصحتك أن تبادر الى غرس عمل الصلاة في قلبك، وأن ترى أنه ينبغي ان تكون في حركة دائمة هناك. ان هذا يشبه القول: افعل هكذا، تغلب و تنتصر حتى بدون جهاد.

و في العادة تكون الأمور هكذا، ولكن قبل وصول الصلاة الى مثل هذه القامة، لابد من التعب ، فالاعداء لا تعطي فرصة للراحة، ولا تهادن و لو لبرهة واحدة في الحرب. ترى هل تستطيع الصلاة أن تساعد في هذا الميدان؟ نعم تستطيع. لا بل أنها تقدر على ذلك أكثر من أي سلاح آخر في الحرب الروحية، فهي تجذب العون الالهي اليها دائمًا و هكذا تهرب الأعداء و تتبدد بقوه الله، طالما أن صلاتك بحرارة، مع تسليم الارادة الله. ومكان الصلاة في الحرب اللامنظورة هو الجبهة الأمامية، و ذلك لمقاومة الشرير، الأمر الذي يحدث عندما يحس الانتباه بأصوات غريبة تشير الى اقتراب العدو، فيلمس سهام الأفكار الشهوانية ، أو أية اثارة بدأت تتحرك في الداخل. و هذا تميزه الروح الملتهبة بالشوق الالهي. فهي تعلم ان هذا من صنع الشرير، فتستجمع قواها، وتكون على درجة قصوى من التأهب، و ذلك لتطرد الأفكار بلا شفقة، فلا تسمح لها بالنفاذ الى القلب. و أثناء ذلك تقوم بعملها الداخلي، فترتقي الى الله في صلاة ابتهاالية، فتنال المعونة و تبدد الأعداء فتتوقف المعركة.

و يصف لنا القديس يوحنا القصير (كولوفوس) ذلك، بجلاء، فيقول عن نفسه: " أنا أشبهه انساناً جالساً تحت شجرة كبيرة يرى وحوشاً و أفاعي عديدة مقبلة اليه، و إذ ليس له القدرة على صدتها، يسرع الى الشجرة يتسلقها كي يكون بأمان. هذا ما يحدث لي عندما أجلس في قلائي و أرى الأفكار الرديئة و هي تتوجه ضدي. فإذا أنا ضعيف عن صدتها، أقوم و أجري الى الله بالصلاحة، فأنجو من العدو" (الأقوال الحقيقة ، الجزء الثاني). و يقول القديس ايسيخيوس بهذا الصدد، في فصوله عن اليقظة و الصلاة: " عليك ان تحمل في داخلك نظرة ذهن يتوق الى الفضيلة، ان اردت ان تشعر بكل ما

يجول في داخلك. فإن وجدت الحياة تسعى الى النفاذ اليك، بادر الى سحق رأسها وأصرخ الى الرب بالأنين، فتخبر العون الإلهي غير المنظور" وعندما تتفاهم أفكار الشر فيك، بادر الى صدتها بصلة الرب يسوع المسيح، فترى كيف تض محل كالدخان في الهواء. هذا عرفناه بالخبرة. وأيضاً: دعنا نقوم بالحرب الداخلية على الشكل التالي: علينا بالانتباه. فعندما نلاحظ دنو فكر شرير، فلننادر الى لعنته بقلب غاضب وواع. بعد ذلك فلنرفع القلب الى الرب يسوع متضرعين ان يبعد خيالات الشياطين، كي لا يضيع الذهن بها، كما يضيع الطفل الذي يتبع ساحراً بارعاً. وفي العادة، من شأن المقاومة والصد، أن تبتز توارد الأفكار الرديئة. و الدعاء لاسم الرب يسوع، من شأنه أن يبعدها تواً بمجرد أن يتشكل همس شرير في النفس بفعل تصور المحسوسات في الذهن: على سبيل المثال: اساءة أتننا من انسان، أو صورة امرأة جميلة، ذهب أو فضة. و من الأكيد أن هذه الخيالات داهمنا بفعل الأرواح الشريرة، والشهوة، وحب الفضة (المال) فما على الذهن إلا أن يمجّها و يأبها، ان كان مدرّباً و خبيراً وقد ألف درء الأخطار عن ذاته أمام كل هذه الايحاءات. فهو يراها بوضوح كما يرى في وضح النهار. و هكذا، وبفعل المقاومة والصد و الاحتکام الى صلاة الرب يسوع، يرغم العدو على التراجع، فلا يسمح له بتعمير خيالاته الخبيثة. و صلاة الرب يسوع تعين في ترسیخ الذهن كي لا ينزع نحو الايحاءات الشريرة، كذلك تحول دون تعلق القلب بها أو مهادنتها و محاورتها. فالأفكار الشريرة تجد سبيلها الى قلوبنا بفعل هذه الطرق غير المحسوسة. الأفكار الشريرة تتواتي، كما يتواتي الليل و النهار.

و إنك ستجد في كتابات القديس ايسخيوس فقرات و مقاطع كثيرة مشابهة، و سوف ترى أنه يرسم الخطوط العريضة لكل حربنا اللامنظورة. لذا أنصحك أن تطالع ما كتب في اليقظة و الصلاة، كلما ستح لك الوقت.

## القسم الثاني

## الفصل الأول

### في سر الشكر الكلي القدسية

أيها القارئ العزيز، لقد حدثتك حتى الآن عن الأسلحة الأربعة الواجبة من أجل النصرة على الأعداء في الحرب اللامنظورة، وهي : عدم الثقة بالنفس. رسوخ الرجاء بالله. مقاومة الخطيئة و الجهاد ضدها. وأخيراً، الصلاة. والآن أريد أن أشير إلى سلاح قوي آخر في الحرب اللامنظورة، انه سر الشكر الكلي القدسية. ان هذا السر هو الأقوى تأثيراً من كل الأسلحة الروحية، فالأربعة السالفة، تستمد طاقتها وقوتها من هبات النعمة الإلهية و معونتها المتنوحة لنا بدم المسيح. إلا أن هذا السر هو دم المسيح نفسه، كاله. عندما نستخدم هذه الأسلحة الأربعة، فنحن نحارب العدو بقوة المسيح. في الحالة الأخيرة، ربنا نفسه يضرب أعداءنا فيينا، بالتعاون معنا. لأن من يأكل جسد المسيح و يشرب دمه، يقيم في المسيح، و المسيح يقيم فيه كما قال: " من يأكل جسدي و يشرب دمي يثبت فيّ و أنا فيه" (يوحنا 6 : 56). لذا فعندما نغلب الأعداء، فدم المسيح هو الذي يغلبهم كما جاء في الرؤيا: " وهم غلبوه بدم الحمل" (رؤ 12 : 11).

و سر الشكر الكلي القدسية، هو السلاح الغالب، أو بالحرى هو المسيح، حاضر في هذا السر. و يمكن نيله تحت شكلين:

1- الأول سرّياً (*sacramentally*)، في سر جسد المسيح و دمه، مع الاستعداد الواجب، و أعني الانسحاق و الاعتراف و التطهر بالتوبة و الصوم المطلوب.

2- ثانياً: داخلياً و خارجياً، في الذهن و القلب. فال الأول يمكن الركون إليه و استخدامه كلما سنتحت الظروف الخارجية و الحالة الداخلية و تقديرات الأب الروحي و ما يسمح به. أما الثاني فيمكنه أن يكون في كل وقت. لذا عليك أن تجعل هذا السلاح في يدك، و تشهده على الدوام ضد أعدائك. لذا اصغ لهذا و اشترك في أسرار ربنا قدر الإمكان، مadam أبوك الروحي قد أذن لك. لكن جاهد أيضاً كي تشتراك في المسيح ربنا، داخلياً و روحيًا، بدون توقف. لقد قدمت لك الدليل الى هذا في الفصول السابقة عن الصلاة.

## الفصل الثاني

في كيف ينبغي للمرء أن يشترك في سر الشكر المقدس أو كيف يشترك بال المسيح ربنا

عبر الأسرار، وعلى نحو سري؟

كي نبلغ الهدف الذي به ندنو من هذا السر الإلهي، ينبغي أن تكون لنا بعض الاستعدادات الخاصة، فنتم ممارسات خاصة، ونتمرس على أمور معينة، قبل المناولة، أثناءها، وبعدها. قبل المناولة، علينا أن نظهر أنفسنا من كل قذارة الخطايا المميتة وغير المميتة، وذلك بالتوبة والاعتراف، فنعمل بما يطلبه الأب الروحي منا أثناء الاعتراف، وندمج ذلك بعزم ثابت على خدمة ربنا يسوع المسيح، من كل القلب، ونفسه و القوة و الذهن، فنعمل فقط ما هو مرضي له. و في هذا السر يهبنا جسده و دمه، و معهما نفسه و الوهيتها، و ملء قوه تجسده. و عندما نفكر بصغر و قلة أهمية ما نعطيه نحن، بالنظر إلى عطية، دعونا على الأقل نعقد العزم في قلوبنا على أن نكون مجاهدين و مجتهدين في القيام بما نستطيع من أجل مجده. لنقدم له كل شيء بجهوزية و تأهبا لعظمته الإلهية.

و إن رغبت الاشتراك في هذا السر، و ذلك كي تغلب أعداء الرب بقواه، و تسحقها، و أعداءنا أيضاً، فبادر إلى التأمل في الليلة السابقة، أو التي قبلها، بمقدار رغبة مخلصنا ابن الله والله، بذلك. و نحن باشتراكنا في هذا السر، إنما نعطيه مكاناً في قلوبنا، فيتتحد بنا، و يعيننا على طرد و غلبة كل الأهواء و الانتصار على عدونا. ورغبة الرب عظيمة وحارة، حتى ان ذهنا مخلوقاً، مهما كان، يعجز عن احتواها بكل كمالاتها. ولكي تتحرك قليلاً إلى الأمام في فهم ذلك، عليك أن تطبع بعمق، في ذهنك، هاتين الفكريتين:

1- فرحة الله الكلي الرحمة، والتي لا توصف في أن يتّحد فينا بإخلاص كما تؤكّد الحكمة المقدسة ذاتها: " وبهجتي كانت مع أبناء الناس" (أمثال 8 : 31).

2- مقدار مقت الله الشديد للخطيئة. فهي تحول دون اتحاده بنا، الأمر الذي يرحب به. فالخطيئة تتعارض مباشرة مع كمالاته الإلهية. و لما كانت طبيعته مقدسة و مباركة بما لا يوصف، نوراً نقياً وجمالاً لا يلفظ به ، فهو يمقت الخطيئة بالكلية، لأنها ليست سوى ملء الشر، و الظلمة و الفساد والعار والخزي، في نفوسنا . ان مقت الله للخطيئة، عظيم جداً، فكل أعمال العناية الإلهية، و كل أحكام العهدين القديم و الجديد، موجهة منذ البدء، نحو ابادة الخطيئة، و ازالة كل آثارها. هكذا كانت الآم المسيح مخلصنا العجيبة، ابن الله، و الله. و يقول بعض اللاهوتيين

و المعلمين بأن لو كانت الضرورة تدعو أن يتخذ ربنا على عاتقه ميتات عديدة لا تحصى، لسحق قوة الخطيئة، لفعل.

(راجع القديس ديونيسيوس الاريوباغي \_ رؤية تيطس). هكذا هو غضب الله ضد الخطيئة.

و إذ أدركت من هاتين الفكرتين مقدار رغبة الله في الدخول الى قلبك، ليحقق هناك نصرة نهائية على أعدائك الذين هم أعداؤه أيضاً، سوف لا يكون لك إلا رغبة واحدة حارة، هي أن تتقبله، كي ينجز فيك هذا العمل فعلاً. و هكذا تمثلت بالشجاعة و الجرأة و الرجاء الأكيد بأن الملك السماوي، مخلصك، يستطيع أن يدخل إلى قلبك و يقاتل الهوى الأكثر مضايقة لك، والذي ترغبه أنت أن تسحقه بالكراهية و الاحتقار و الاشمئزاز. و في نفس الوقت، يثير فيك الشوق الى اكتساب الفضيلة المضادة، و الجهوزية، للقيام بأعمال مماثلة الخ... وهذا ما يجب أن تفعله عشية المناولة: افحص نفسك صباح يوم المناولة عن عدد المرات التي انجرفت فيها و أخطأت، من وقت مناولتك الأخيرة وحتى الآن، تذكر أيضاً العمى و الغباوة اللذين بهما عملت كل هذا، كما لو كان الله بالنسبة اليك غير موجود و ليس من يدين او يجازي . تذكر انه يرى كل شيء، و أنه احتمل العذابات المريمة و الموت العجيب على الصليب، كي ينقذك من مثل هذه الاشياء. تذكر أنك احتقرت هذا كله بعملك، عندما انحرفت على الخطيئة، و جعلت شهواتك فوق ارادة الهم و مخلصك. ليغطّ الخجل وجهك عندما تدرك مقدار حماقتك و نكرانك للجميل. لكن مع هذا، لا تدع نفسك تر�� تحت كل هذه الاضطرابات، و اليأس . فالرب بطول اياته يرى توبتك و استعدادك لخدمته هو فقط، من الآن فصاعداً ، فيسرع اليك، و يسكنك عليك محبته و رحمته، و ذلك كي يُغرق فيها نكرانك للجميل، و غباوتك و قلة ايمانك. لذا ما عليك إلا أن تدنو منه بشعور ملؤه عدم الاستحقاق، يحدوه رجاء كامل و محبة و تكريس، جاعلاً قلبك هيكلًا له. و أسمح له أن يدخل اليه. كيف يكون ذلك و بأية طريقة؟ انه بإقصاء كل القيود الشهوانية من القلب، و عدم التعلق بأي مخلوق، و سد أبواب الذهن أمام أمور الدنيا، للحيلولة دون دخولها، فلا يدخل غير الله.

بعد تناول الأسرار المقدسة، بادر الى الدخول تواً إلى الأعمق السرية من قلبك، و اعبد الرب هناك بتواضع و تكريس قلبي قائلاً: ” يا إله المراحم، يا من يرى سرعة سقوطي في الخطيئة، و يعلم قوة شهواتي التي تهاجمني، و مقدار سيطرتها على، وعجزي عن الانعتاق منها من ذاتي، أعني، و قوّ جهادي، و خذ أسلحتي لتحارب عنِي، فتهزم عدوى الصليب و القاسي الى النهاية.”.

بعد ذلك ، التفت و ارفع الشكر لآب السماوي أبي ربنا يسوع المسيح، و أبينا، الذي بداعي محبته نزل اليك مع ابنه عبر هذه الأسرار ، مع الروح القدس الذي أهلك و أهلك أن تتناول جسد ودم يسوع المسيح. و ها هو يسكن عليك خيراته الوفيرة بعد المناولة. قدّم الحب لله المعبد في ثالوث أقدس ، الذي أسيغ عليك احساناته: أشكره بحرارة، مظهراً له عزمه الأكيد، و استعدادك في أن تقاتل خطيبتك على أمل غلبتها بقوة الله الثالوثي الأقانيم. و ينبغي أن تعلم أنك لن تأخذ أي عنون من الله، ان كنت تعتمد على قواك، رغم كل جهادك بغيرة و اجتهاد. و ستكون النتيجة فشلاً و اخفاقاً. جاهد بكل غيرة، و لكن ترقب النجاج من الله. و معونة الله آتية إليك بكل تأكيد، لتقوى ضعفك، و تمنحك النصرة على الذين تجاهد ضدتهم.

### كيف تضرم محبة الله في النفس بالولوج الى عمق سر الشكر؟

كي تضرم محبة الله في نفسك بالولوج الى السر السماوي، سر دم المسيح و جسده، حول افكارك الى التأمل بالمحبة التي اعلنها لك انت، في هذا السر، فالله العظيم و المجد، لم يكتف بأن جعلك على صورته و مثاله، ولم يكتف بإرسال ابنه الوحيد ليحيا ثلاثةً و ثلاثين سنة في العالم، كي ما يفديك، عندما سقطت و أهنته. كذلك لم يقنع بان يعتقك بالآلام الرهيبة، و موته الاليم على خشبة الصليب، و ذلك لكي يحررك من الشيطان الذي اخضعك بالخطيئة، فيعود بك الى الرتبة الاولى التي كانت لك. كلا، انما علاوة على كل هذا، أسس سر جسده و دمه غذاء لك، و ذلك كي تسري في طبيعتك كل قوى تجسده. اجل كل هذه موضوع تأمل عميق عندك لكي ترى ملء وغنى هذا السر. و عليك ان تغذى و تضرم قلبك بمحبة لا تتتجزأ، و حنين قوي الى الله.

1- فكر في الوقت الذي بدأ الله يحبك فيه، و سوف تجد ان حبه لك لا حدود له، فهو ازلي بجوهره، لذلك فحبه ايضاً ازلي. و قد شاء قبل كل الدهور، ان يهبك ابنه الوحيد بطريقة عجيبة يتذرع وصفها. فأنت اذ تتحقق من هذا بنفسك، تهمل و افرح بالروح، و اهتف صارخاً: " حتى عندما كان عدمي في هاوية الازل، كان الله يرعاني بحبه غير المحدود. و قد عزم ان يهبني ابنه الوحيد غذاء. فهل اسمح بعد هذا لنفسي بأن لا اتحد به من كل الذهن و القلب و الشوق؟

2- فكر ايضاً انه مهما عظم التجاذب و المحبة بين المخلوقات، تبقى اموراً محدودة و ذات قياس. اما حب الله لنا، فهو وحده بدون حدود . و عندما لزم الامر، دفع ابنه المساوي له في العظمة و اللامحدودية، لأن طبيعتهمما واحدة. حبه عظيم كعطيته، و عطيته عظيمة كحبه. الاثنان عظيمان، حتى انه يستحيل على المخلوق ان يدرك ما هو اعظم منها. لذا بادر الى اقتبال هذا الحب غير المحدود، بما فيك من قدرة على الحب.

3- تأمل ايضاً ان الله بادر الى حبنا، ليس عن ضرورة او احتياج، بل مدفوعاً الى ذلك من حبه الطبيعي. فقد احبنا تلقائياً بمحبة تفوق القياس و الادراك.

4- تأمل ايضاً في هذا الحب الالهي، الذي لا نقدر ان نقابله بأي عمل يستحق المدح و الثناء، فالله قابل فقرنا المطلق، بمعنى حبه. أحبتنا فقط، لأنه اراد ذلك بدافع محبته. لم يكن موقفه مجرد محبة، بل ايضاً اعطانا نفسه نحن غير المستحقين.

5- تأمل في نقاوة حبه، وكم هو مباین لحب المخلوقات. حبه لنا لا يشوبه أي نفع أو مصلحة. فالله لا حاجة له الى ربح يأتيه من خارج، فهو مكتف و كلي البركة في ذاته. و هكذا فعندما يرغب في ان يسكن حبه الامحدود علينا و فيينا، لم يكن ذلك على قاعدة النفع و الفائدة، انما كان من اجل خيرنا نحن.

و اذ تفكـرـ بـهـذـاـ ، فـلـنـ يـسـعـكـ الاـ الصـراـخـ قـائـلاـ: " يا للعجب، لقد جعل القديـرـ قـلـبـهـ عـلـيـ اـنـاـ العـدـمـ وـ الـاحـقـرـ منـ جـمـيعـ الـخـلـائقـ . ماـذـاـ تـرـجـوـ مـنـ يـاـ مـلـكـ الـمـجـدـ ، ماـذـاـ تـرـجـوـ مـنـ التـرـابـ وـ الرـمـادـ؟ فـأـنـاـ اـرـىـ بـوـضـوـحـ يـاـ سـيـدـيـ وـ الـهـيـ ، فـيـ نـورـ حـبـكـ غـيـرـ الـمـحـدـودـ ، إـنـ لـعـظـمـتـكـ رـغـبـةـ وـاحـدـةـ هـيـ اـنـ تـكـشـفـ لـيـ حـبـكـ اـكـثـرـ ، وـ أـنـكـ تـشـاءـ اـنـ تـهـبـنـيـ ذـاتـكـ طـعـامـاـ وـ شـرـابـاـ ، لـيـسـ لـغـرـضـ آـخـرـ ، غـيـرـ تـحـوـيلـ كـيـانـيـ إـلـىـ كـيـانـكـ . وـهـذـاـ لـيـسـ لـأـنـكـ بـحـاجـةـ إـلـيـ ، اـنـمـاـ لـأـنـنـيـ اـنـاـ الـمـحـتـاجـ إـلـيـكـ ، بـهـذـهـ الـطـرـيقـةـ تـكـوـنـ اـنـتـ فـيـ وـ اـنـاـ فـيـكـ . وـ مـنـ خـلـالـ اـتـحـادـ الـحـبـ هـذـاـ ، اـصـيـرـ اـنـاـ كـمـ اـنـتـ . وـ بـالـتـعـبـيرـ الـبـشـريـ : بـاـتـحـادـ قـلـبـيـ الـأـرـضـيـ ، بـقـلـبـكـ السـمـاـويـ ، يـوـلـدـ فـيـ قـلـبـ الـهـيـ .

ان تـفـكـيـرـاـ كـهـذـاـ يـمـلـأـ قـلـبـكـ بـالـذـهـولـ وـ الـبـهـجـةـ عـنـدـمـاـ تـرـىـ نـفـسـكـ عـلـىـ هـذـاـ الـقـدـرـ مـنـ الـقـيـمـةـ اـمـامـ اللهـ ، وـ تـرـاهـ يـحـبـكـ بـهـذـاـ الـمـقـدـارـ ، وـ تـدـرـكـ اـنـهـ بـحـبـهـ الـلـامـتـنـاهـيـ لـكـ ، لـاـ يـرـتـجـيـ لـنـفـسـهـ شـيـئـاـ سـوـىـ اـنـ يـجـتـذـبـ حـبـكـ إـلـيـهـ ، فـيـهـبـكـ السـرـورـ بـتـحـرـيـرـكـ مـنـ كـلـ اـرـتـبـاطـ شـهـوـانـيـ بـالـمـخـلـوقـاتـ وـ بـنـفـسـكـ . وـتـسـتـطـيـعـ بـعـدـ ذـلـكـ ، اـنـ تـقـدـمـ ذـاتـكـ ذـبـيـحـةـ مـلـتـهـبـةـ إـلـيـهـ فـهـوـ الـهـكـ . وـ مـنـذـ ذـلـكـ الـحـيـنـ ، وـ حـتـىـ نـهـاـيـةـ حـيـاتـكـ ، سـتـحـبـهـ وـحـدـهـ وـ تـرـضـيـهـ بـلـهـفـةـ حـارـةـ تـغـمـرـ اـرـادـتـكـ وـ ذـهـنـكـ وـ اـرـادـتـكـ وـ ذـاكـرـتـكـ وـ كـلـ حـوـاسـكـ . اـنـ كـلـ اـحـسـانـ يـأـتـيـكـ مـنـ حـبـ اللهـ لـكـ ، يـمـكـنـهـ اـنـ يـوـلـدـ التـأـثـيرـ ذـاتـهـ عـلـىـ نـفـسـكـ . وـ يـكـونـ طـبـيـعـيـاـ جـداـ ، اـذـاـ كـنـتـ تـنـظـرـ بـتـعـقـلـ وـوـعـيـ اـلـىـ سـرـ الشـكـرـ الـالـهـيـ وـ الـمـبـارـكـ . فـاـذـ تـنـظـرـ اـلـيـ بـذـهـنـكـ ، بـادرـ اـلـىـ فـتـحـ قـلـبـكـ اـمـامـهـ ، وـ اـسـكـبـ صـلـواتـكـ الـحـارـةـ وـ تـنـهـدـاتـكـ الـمـفـعـمـةـ بـالـحـبـ قـائـلاـ: " اـيـهاـ الـغـذـاءـ السـمـاـويـ ، مـتـىـ تـأـتـيـ السـاعـةـ فـأـلـتـصـقـ بـكـ وـ تـبـتـلـعـنـيـ لـيـسـ بـنـارـ غـرـيبـةـ ، بـلـ بـنـارـ حـبـكـ لـكـ ؟ اـيـهاـ الـحـبـ غـيـرـ الـمـخـلـوقـ ، يـاـ خـبـزـ الـحـيـاةـ ، مـتـىـ سـأـحـيـاـ بـكـ فـقـطـ ؟ مـتـىـ سـأـحـيـاـ فـيـكـ وـلـكـ فـقـطـ ؟ مـتـىـ يـاـ حـيـاتـيـ وـ جـمـالـيـ وـ عـذـوبـتـيـ وـ دـيـمـومـتـيـ ؟ اـيـهاـ الـمـنـ النـازـلـ مـنـ السـمـاءـ ، مـتـىـ اـتـحـوـلـ عـنـ الطـعـامـ الـأـرـضـيـ ؟ مـتـىـ لـاـ أـشـتـهـيـ الـأـكـ فـقـطـ ؟ يـاـ عـذـوبـتـيـ الـمـطـلـقـةـ وـ خـيـرـيـ الـأـسـمـيـ يـاـ سـيـدـيـ الـمـشـتـهـيـ الـأـوـحـدـ وـ الـكـلـيـ الـصـلـاحـ . مـتـىـ تـنـزـعـ مـنـ قـلـبـيـ الـبـائـسـ كـلـ اـرـتـبـاطـ اوـ مـيـلـ خـاطـيـءـ ؟ زـيـنيـ بـفـضـائـلـ الـالـهـيـةـ ، وـ اـمـلـأـ حـيـاتـيـ مـنـ كـلـ مـيـلـ صـالـحـ يـجـعـلـنـيـ اـعـمـلـ مـاـ يـرـضـيـكـ . وـ فـيـ الـنـهـاـيـةـ سـأـبـادرـ اـلـفـتـحـ اـبـوابـ قـلـبـيـ لـكـ ، رـغـمـ عـدـمـ اـسـتـحـقـاقـيـ . وـ اـضـرـعـ اـلـيـكـ بـحـبـ قـائـلاـ: اـدـخـلـ اـلـىـ يـاـ اللهـ ، كـيـ تـزـيلـ كـلـ الـعـرـاقـيـلـ ، وـ تـتـقـمـ فـيـ الـاعـمـالـ الـتـيـ تـرـيـدـهـاـ فـيـ نـفـسـيـ ، وـ فـيـ نـفـوسـ الـمـكـرـسـةـ لـكـ .

بمثل هذه الافكار المحبة، و المشاعر الطيبة، بادر الى قضاء مسأتك و صباحك استعداداً للمناولة وعندما تدنو الساعة، تمثل في ذهنك بأجلٍ بياني ، مع تواضع ودفء في القلب، ذاك الذي ستتناوله، و من انت الذي سيتناول ذاك.

انه ابن الله المتسربل بالمجد الذي لا يدرك، الذي ترتعد في حضرته السموات و قواتها. انه الاقدس من القديسين، و الاشد بهاء من الشمس، النقاوة التي تفوق الادراك، و الذي نقاوة المخلوقات بأسراها، هي كالقدارة امامه. في حبه لك، اتخذ صورة عبد، و اختار ان يُرذل و يُهان من عالم لا ناموس له. إلا انه مع ذلك بقي الهاً، بيده الحياة و الموت. من أنت؟ انت عدم. و بفسادك و خبثك و شرك، صرت دون العدم، و احقر من اصغر الصغار، و اكثر دنساً من كل الخلائق الفاسدة. انت مهزلة شياطين جهنم، انت المحمول على خيالاتك و شهواتك و اهوائك، انت من ازدرى سيدك العظيم و المحسن اليك. فبدل شكره على احساناته الكثيرة، دست دمه الطاهر الثمين الذي اهرق من اجلك. لكن رغم كل هذا، فهو يدعوك الى وليمته الالهية، بمحبة لا تتوقف ولا تتغير. و كثيراً ما يتوعّدك كي تأتي اليها (وليتمه) و يذكّرك بما قاله للجميع : " ان لم تأكلوا جسد ابن الانسان، و تشربوا دمه، فليس لكم حياة فيكم" (يو 6 : 53). و ما برح حتى الساعة يشرع ابواب مراحمه امامك، و لم يصرف وجهه عنك و انت في خطيايك، انت الشقي الضعيف و الابرص و الاعمى و الفقير المستعبد للأهواء و الرذائل. ان كل ما يطلبه منك هو :

1- ان تحزن في قلبك لأنك اساءت اليه.

2- ان تمج الخطيئة اكثر من أي شيء، و فوق كل شيء، الصغيرة منها و الكبيرة.

3- ان تسلّم ذاتك بالكلية ، و لا تنشغل الا بأمر واحد هو ان تخضع له بإرادتك خضوعاً كاملاً ملؤه الحب و الشوق له.

4- ان يكون لك به، ايمان ثابت، و ثقة لا تتزعزع، و انه سيرحمك و يطهرك من كل خطيايك و يحميك من كل اعدائك المنظورين و غير المنظورين.

وعندما تتحصن بهذا الحب الالهي الذي لا يوصف، اقترب من المناولة بخوف و محبة قائلاً: " يارب لست مستحقاً ان اتقبك. لقد اغضبتك مرّات و مرّات بسبب خطياي و لم أئح بعد على كل افعالي الوديّة. انا لست مستحقاً يارب ان اتقبك لأنني لم أنقّ نفسي بعد من الميل الوديّة و من كل ارتباط آخر لا يرضيك. انا لست مستحقاً يارب لأنني لم اذعن بعد لحبك بإخلاص، ولم اعرف الطاعة لك. يا الهي الكلي القدرة و الصلاح، اجعلني بمحبتك و عطفك اهلاً لاقبلك، فانا اسرع نحو بِإيمان."

وبعد ان تكون قد تناولت، اغلق على ذاتك في اعمق قلبك، ناسياً كل ما هو حولك من خلائق، وارفع الى الله تسبیحاً على هذا المنوال قائلاً: ”ایها الملك العظيم، ملك السماء والارض، من جعلك تدخل قلبي انا غير المستحق، فانا شقي وبائس، اعمى و عريان. لا احد الاك انت ايها المحبة التي لا تُقاس. ايها المحبة غير المخلوقة. ايها الحب الكلي العذوبة، ماذما ترجو مني انا الفقير؟ لا شيء كما ارى و افهم. لا ترجو مني الا حبي لك. انت لا ترجو الا ان يضطرم قلبي بذار واحدة، هي نار محبتي لك على مذبح قلبي، المحبة التي تلتهم كل هوى و كل محبة غير التي عندك و القادره ان يجعل مني ذبيحة محرقه لعظمتك، ورائحة بخور زكي. انت لم تطالبني بغير هذا، ولا تطلب مني الان غير هذا، لذلك استمع يا رب الى نذور قلبي. ها انا الان ادمج بين رغبتي و رغبتك. وكما انك اعطيتني ذاتك بكليتها، ها انا اعطيك ذاتي بكليتها، كي تكون بكليتها فيك. انا اعلم يا رب ان هذا مستحيل، إلا اذا تخليت عن ذاتي بالكلية. هذا مستحيل ان بقي في اثر لحب الذات. او اذا كنت احمل في نفسي شفقة و ميلاً نحو ارادتي الخاصة و افكاري، او واحدة من عاداتي السيئة. لذا فانا مشتاق من الان ، ان اعارض نفسي في كل ما لا يرضيك، وارغم نفسي على ما هو مرضي لك، حتى ولو كان ذلك يتعارض مع ما هو بداخلي و خارجي. إلا اني لست امتلك القوة للنجاح في مسعائي. لكن حيث انك من الان معي، فانا اثق انك ستعمل في كل ما انا بحاجة اليه، و اني لمشتاق ان يكون قلبي و قلبك واحداً. واثق ان نعمتك ستنهبني هذا. اني اريد و اشتق ان لا ارى شيئاً ولا اسمع شيئاً ولا افكر في شيء، ولا استلطف شيئاً، إلا الذي تريده انت، واراه في وصاياتك. واثق ان قوتك الفاعلة في داخلي، ستغدق على ذلك. اني اريد و اشتق ان لا يصل قلبي، ويزبغ انتباهي، فانت تسكن في واراك دائمًا، و استدفني بشعاعات النور المنبعث منك. انا على ثقة تامة ان يدك ستنهبني هذا. اني مشتاق من الان ان تكون انت نوري و سعادتي و قوتي. واثق اني ساحظي بذلك بعملك الخلاصي في. من اجل هذا، اصلّي، و سوف اظلّ اصلّي. ايها الاله الرحوم هبني هذا، هبني هذا..”

بعد ذلك حاول ان تزيد من جهادك يوماً بعد يوم، بفعل المناولة الكلية القدسية. ولا تكف عن التأمل في سرها العجيب، متأملاً في كيف يعتلن الله لك تحت شكل خبز و خمر، و ان يكون حاضراً فيك كي يزيديك برأ و بركة و قداسة، لأنه ” طوبى للذين لم يروا و آمنوا“ حسب كلمات المخلص (يوحنا 20 : 29).

لا ترغب في ان يعلن لك الله ذاته في هذه الحياة بغير المناولة حاول ان توطّد النفس الى هذه القدسات ، فتتقدم كل يوم في استعدادك الى القيام بما ينسجم مع اراده الله، و في الحكمة الروحية، جاعلاً اياها ملكة و حاكمة على كل اعمال الروح فيك. مع النفس و الجسد ايضاً. وفي كل مرة تتناول جسد الرب و دمه، اجعل نفسك ذبيحة للرب لدى اشتراكك في هذه

الذبيحة غير الدموية، و صرّح عن جهوزيتك وحسن استعدادك لاحتمال كل الضيقات و الاحزان، و كل خطأ تصادفه في مجرى حياتك، و ذلك من أجل الذي احبك و بذل نفسه عنك.

ويصف القديس باسيليوس الكبير ما يترتب على المتناول، على اساس كلمات الرسول بولس : " ان الذين يأكلون جسد الرب و يشربون دمه، يخبرون بمorte" (1 كور 11: 26). فالموت هذا سبق الرب و احتمله من أجل كل الناس، و كل المتناولين. لماذا؟ " كي يعيش الاحياء لا لأنفسهم فيما بعد، بل للذي مات عنهم" (2 كور 5: 15). لذا فالذين يدنون من المناولة الالهية بإيمان و محبة و استعداد، كي يكونوا امناء في وصايا الرب، و امام مشيئته، و ان يستعدوا لبذل حياتهم من اجل ذلك فلا يعيشون بعد الآن لذواتهم او للعالم او الخطيئة، بل للرب الاله الذي يتناولونه في سر الشكر، لأنه مات و قام من اجلهم. و اخيراً و اذ تكون قد تناولت الرب من خلال هذا السر، الرب الذي بذل نفسه عنك، وقد اشتركت انت نفسك في قوة هذه الذبيحة، وبعد تمجيده ورفع الشكر له، ارفع باسم هذه الذبيحة، صلوات و ابتهالات نحو ابيك السماوي، عن كل احتياجاتك الروحية و النفسية و الجسدية، وعن كنيسة الله المقدسة ، و عائلتك، و المحسنين اليك، و ارواح الذين رقدوا بإيمان. و اذ تكون اشتراكك في الذبيحة التي جعلها ابن الله رحمة لنا من الله الآب، فان صلواتك ستُسمع ، ولن تكون بدون ثمر البتة.

## الفصل (الرابع)

### الشركة في الروح

الشركة مع الرب في سر الجسد و الدم ممكنة في بعض الاوقات فقط، حسب امكانات الشخص و غيرته، ولكن لا تكون اكثراً من مرة في اليوم. الاَّ ان الشركة الداخلية مع الرب، في الروح القدس، هي ممكنة في كل ساعة و دقيقة، أي انه يمكن للمرء ان يكون بنعمة الله في شركة دائمة مع الرب، و ان يكون متيقظاً ان اراد الاتحاد في القلب حسب وعد الرب، فنحن نتقبّله بالاشتراك في جسده ودمه، فيدخل و يسكن فيينا بكل خيراته وبركاته، ويسمح للقلب المستعد ان يعي ذلك. المتناولون الحقيقيون يكونون في حالة مقدسة بعد المناولة. في مثل هذه الحالة، يشترك القلب بالرب في الروح القدس. و ما دمنا مقيدين بأجسادنا، و محاطين بعلاقات و نشاطات خارجية، يحثّنا الواجب على الانغماس فيها، فان ذهنا يتشتّت، مع احساسينا، يوماً بعد يوم. و الاشتراك الروحي مع الرب يضعف و يحتجب، الا انه لا ينكسر، الا اذا دخلت (لسوء الحظ) خطيئة من الخطايا، واتلفت حالة النعمة. لا شيء يمكنه ان يقارن ببهجة الاشتراك مع الرب. فالمجاهدون عندما يشعرون انها تضعف، يسارعون الى استرجاع ملء قوتها. بعدها يدركون من جديد، أن شركتهم مع الرب عادت لهم، وهذه هي الشركة الروحية مع الرب. بهذه الطريقة تحصل الشركة و الاتحاد به عبر الاسرار المقدسة. و يمكن لهذه الشركة ان تكون دائمة في من يحتفظ بقلبه نقياً، و يكون انتباهه و احساسه موجهة على الدوام نحو الرب. و كل هذه هي من عطايا النعمة تُمنح للإنسان المجاهد في طريق الرب، ان كان جاداً و مجاهداً ولا يشقق على نفسه.

حتى ولو كان المرء في شركة مع الرب في الروح، من وقت الى آخر، فهذه الشركة هي من عطايا الروح. كل ما يمكننا ان نأتي به، هو العطش و الجوع الى هذه العطية، والجهاد القوي من اجل الفوز بها. وهناك سبل، على كل حال، تقود الى الاتحاد بالروح، وتساعد على نيله، رغم انه يبدو ان حلول الاتحاد هذا، هوامر غير متوقع. و هذه السبل هي: الصلاة النقية بصرخات قلب كالطفل. و اعمال عدة قوامها نكران الذات في التمرّس على الفضائل. وعندما لا يكون ثمة خطيئة تلوّث النفس، ولا يكون هناك افكار واحساس تداهم النفس، عندما تكون النفس نقية و تصرخ الى الله، فماذا يمنع الرب الموجود و الحاضر، من ان يجعل النفس تتذوقه، و ان تعي هذه المذاقة؟ الاَّ ان هذا ما يحصل غالباً، ما عدا اذا كان الرب يؤثر، من اجل منفعة النفس، ان يطيل جوعها و عطشها قبل ان يرويها. و من بين اعمال نكران الذات، فان الطاعة المتواضعه، هي اقوى من الكل، في هذا الصدد، و من شأنها ان تجعل المرء تحت اقدام الناس، وتعدّه من اجل كسب

الفضائل، لا سيما احتمال الظلم، بقلب صالح. و كل هذا يكون في روح التسليم لله و مشيئته. و مثل هذه الاعمال تجعل الانسان شبيهاً بالرب اكثر من الآخرين، فيصبح الرب حاضراً فيه و يسمح لنفسه ان تتذوقه. كذلك فان حفظ وصايا الرب باجتهاد، يُثمر بجعل الرب يقيم في القلب مع ابيه و روحه القدس (يوحنا 14 : 23).

والشركة الروحية مع الرب، لا ينبغي لها ان تخلط بالذكر الذهني للشركة معه عبر سر الجسد و الدم، حتى ولو اقترن هذا التذكير بأحساسين روحية، وحنين متوجب الى الشركة الحقيقية مع الرب عبر الاسرار المقدسة. كذلك لا يختلط الامر بما يقدمه المتعبدون في الكنيسة و يتناولونه بالتناولة. فهم يأخذون تقديساً الهياً، و احساساً ، كونهم شركاء في الذبيحة غير الدموية بالإيمان، والانسحاق، والاستعداد لبذل ذاتهم لمجد الله. و يأخذون على قياس هذه الاستعدادات. إلا انها ليست كالاتحاد به، رغم ان الاتحاد يمكن ان يحصل هنا ايضاً.

## الفصل (الخامس)

### في رفع الشكر لله

ان كل بركة نمتلكها، و كل عمل حسن نعمله، هو من الله، و من عنده يأتي. لذا فالواجب يقضي ان نرفع الشكر عن كل شيء، و من اجل كل بركة نأخذها من يديه الظاهرتين، سواء البركات المنظورة، ام غير المنظورة، من اجل كل عمل حسن، و من اجل كل جهاد حسن، و من اجل كل نصرة تصير لنا ضد اعداء خلاصنا كما اوصانا الرسول: "اشكروا في كل شيء، لأن هذه هي مشيئة الله في المسيح يسوع من جهتكم" (1 تسا 5 : 18). لذا اجتهد في أن تصنون مشاعر الاعتراف بالجميل حارة و ملتهبة فيك منذ ان تستيقظ. وعندما تخلد الى النوم، فلتكن كلمات الشكر على شفتيك، فأنت مغمور بالبركات الالهية، ان مجال اقتبالي هذه البركات هو في القلب المعترف بالجميل. و يقول القديس يوحنا الذهبي الفم : " ان خير السبيل للمحافظة على احسانات الله، هو، أن تتذكر احساناته، و تشكره من اجلها على الدوام". و قد كتب القديس اسحاق السرياني يقول: " ان الاعتراف بالجميل يبحث المعطي على تقديم عطايا اكبر من الاولى. لأن من لا يشكر على القليل، سيأس عندما يتطلب الكثير. ليس هناك عطية تخلو من الزرايدة و الوفرة، الا التي يعوزها الشكر". و يضيف القديس باسيليوس الكبير الى ذلك تنبیهات نافعة، فيقول : " ان لم نرفع لله شكرًا عن البركات التي يمنحها، فالواجب يقضي ان ينزعها منا، حتى نعرف ما نحن عليه. فالعين التي لا تقوى على النظر الى امر قريب منها ، تحتاج الى مسافة ملائمة. هكذا النفوس غير الشكورة، فعندما تنزع عنها البركات الالهية، تتنبه متذكرة المراحم السالفة. و الذين لا يشكرون الوهاب عندما ينعمون بهباته، سيشتاقون الى ماضي العز الذي أضاعوه".

و اذ تدرك كلامي و تفهمه، فأنك ستسأل : كيف اجعل مشاعر الشكر في على الدوام؟ دقة في كل احسانات الله للناس، لذريتنا ، لك انت، و تأمل فيها، و احفظها في ذاكرتك. و ان كنت صاحب قلب، فلن تتوانى عن الترتيل لله بشكر. و ستتجدد ان اردت، نماذج مثل هذا التسبيح في صلاتك، وفي اعمال القديسين. انظر كيف يصف القديس باسيليوس الكبير عطايا الله علينا: " لقد جاء بنا من العدم الى الوجود. خلقنا على صورته و مثاله، و حبانا عقلاً و نطفأ تحوي كمالات طبيعتنا. زودنا بإمكانية معرفته، و قدم لنا جمال الخلاق، نحن المجاهدين من اجل معرفته. بين لنا عظمته و عنایته بكل شيء، بمنتهي الحكمة. الطبيعة ايضاً تعلمنا ان نختار المفيد، و نحجز عمما هو مؤذ. و لما ابتعدنا عن الله بالخطيئة، دعانا للاشتراك في حياته، و اعتقنا من العبودية المرة بدم ابنه الوحيد. ماذا عن رجاء الخلاص و افراح النعيم و ملکوت السموات و الخيرات الموعود بها التي تفوق الوصف و الادراك؟

طالع امور احسانات الله علينا، و اختر اخرى من اعمال القديسين. او بادر انت نفسك الى صياغة قول يحوي بركات الله التي سكبها عليك. ردّها على الدوام بالقول و الفكر، ليس لمرة في اليوم، بل لمرات، و سوف تبلغ مشاعر الشكر الواجبة لله. و عندما يبرز هذا الشعور، فانه لا يرغب ان يبقى مكتوماً، فهو يبحث عن تعبير . فكيف ستعبر لله عن شكرك له؟ انه يريدك ان تعمل ما يرضيه عندما يحيطك ببركاته. ماذا يريد الله؟ عندما يسكب عليك بركاته، يريدك ان تتذكره. انه يريدك ان تلتصل به و تحبه. انه يفرح بطاعتكم لوصاياته، فتجاهد كي ترضيه في كل سبيل. هو يريدك ان تعتمد عليه في كل شيء. لذا افعل ذلك. انه يريدك ان تتذكر المناسبات العديدة التي فيها اسأات الى المحسن اليك، بأعمالك الشريرة، فقمتني انسحاقاً و تتوّب و تبكي، حتى تأتي الى سلام مع ضميرك، و تتلقى الضمانة بأن الله قد غفر لك. لذا افعل هذا. اما ترى اتساع مجال الشكر، و كثرة الوسائل لإتمام هذا الواجب؟ اعلم ان خطيئة المتهاونين عظيمة، و انتبه ان لا تلطخ نفسك بها. نكران الجميل بين الناس هو ظلام. اية كلمة تستطيع ان تعبّر عن نكران الجميل هذا؟ لذا انتبه، و احتفظ بمشاعر الحمد و الشكر حارة فيك على الدوام، لا سيما عندما تكون في الكنيسة اثناء الذبيحة الالهية، و حينما ترفع الذبيحة غير الدموية التي تدعى المناولة، الى الله. المناولة هي الافخارستية وتعنى الشكر. ولا تنسى هنا ان الشكر الوحديد واللائق الذي يمكنك ان ترفعه، هو استعدادك الكامل لبذل ذاتك وكل ما تملك، من اجل مجد اسمه القدس.

## الفصل (السادس)

### في التسلیم لمشیئۃ اللہ

عندما يتوب الانسان، فإنه يسلّم نفسه لله بالكلية، ويبدأ على الفور بالسلوك في وصاياته وارادته. وهذا العمل يبدأ بعرق الجبين. الوصايا ليست صعبة في حد ذاتها، الا ان هناك عقبات كثيرة امام المضي فيها، و ممارستها على صعيد الظروف الخارجية عند المجاهد، لا سيما من جهة ميله و عاداته الداخلية. الا ان المجاهد الصبور الذي لا يكل، يستطيع بنعمة الله، أن يغلب كل شيء، فيصل في النهاية الى سلامه الداخلي و تسود فيه حالة من السكينة في كل شيء.

ورغم معونة الله، فالمجاهد يعمل بنفسه. و الخبرة الناجمة عن الايام الاولى، من شأنها ان تجعله يدرك، انه رغم كل جهوده من اجل الخير، فالفضل في نجاحه، يعود الى قوة من فوق، أعلى منه. فكلما تقدم في الحياة الروحية، كلما ترسّخ فيه هذا اليقين، بعمق اكبر. و عندما يبني السلام الداخلي، تترسّخ قناعته و تتحول الى مبدأ، حتى ينتهي الامر في نهاية المطاف الى التسلیم الكلي لله و الخضوع الكامل له. و يبدأ فعل الله و عمله في الذين يجاهدون من اجل الخلاص، منذ ان يتحوّلوا اليه، فيفعل فيهم. ثم ما يليث ان يبدأ الفعل بالتزايد، عندما يتخلّى المرء عن نفسه و يلتتصق بالله، عندها سيدرك عجزه، فتصير له ثقة اكبر بقدرة الله. و عندما يستسلم في نهاية الامر لله، يكون حضور الله فيه فعالاً على صعيدين: الاول، بإرشاده الى ما ينبغي ان يقوم به. و الثاني ، بإتمامه و انجازه. هذه هي ذروة الكمال المسيحي، فالله هو الفاعل فيكم ان تريدوا و ان تعملوا (فيليبي 2 : 13). و كما قيل في البداية، فبذار الكمال يقوم في عدم الاعتماد على الذات و الرجاء بالله، الا انها تظهر هنا في ملء نضوجها ان ما يؤلّف جوهر الخضوع لإرادة الله، يمكن تعلمّه لدى ظهوره بملء قوته. انه يأتي من تلقاء ذاته، و ليس ثمة اصول خاصة لاكتسابه و البلوغ اليه. لذا فمستحيل هو القول: اعمل هذا او ذاك، تنله. انه ينمو على نحو لا يدرك، و في ظل عدم الاعتماد على الذات، مع الرجاء بالله.

لقد ذكرت هذا ببساطة ، لأنني سبق ان اوردته في موضع آخر. و ما قيل في نهاية الفصل السابق، في بذل الانسان لنفسه من اجل الله، قد سمح في المجال لذكره الآن. فالتسليم الكامل لله، هو تقديم الانسان نفسه قرباناً حياً لله.

ان البرهان على هذه الحالة، هو الموت عن النفس، عن الرأي الذاتي، عن الرغبات و المشاعر و المذاقات الغريبة عن الله، في انسجام تام مع ارادة الله، و شركة معه. و قد سبق لخلصنا ان مارس ذلك ، فسلم ذاته بكليتها لله و نحن فيه: " لأننا اعضاء جسده من لحمه و من عظامه" (أفسس 5 : 30). لذا فلنسرع للسير على خطاه لأنه قدّم لله الآب قداسة من اجلنا (يوحنا 17 : 19)، على رجاء ان تكون هكذا، و نعمل هكذا.

لماذا قدمت هذه الذبيحة في النهاية و ليس في البداية (1)? السبب هو ان التقدمة لله ، ينبغي ان تكون كاملة وبدون عيب. الكمال يطلب في البداية، اما البلوغ اليه فهو امر لاحق. لكن عندما يتم البلوغ اليه، يكون من الممكن اذ ذاك، تقديم النفس ذبيحة وقرباناً. و في الواقع يستحيل على الانسان ان يقدم نفسه قرباناً، قبل بلوغ الكمال. ان هناك تقدمات اخرى ممكنته قبل ذلك، كالصالحة و التطهير و الشكر، ولكن ليس التقدمة الحية الملتئبة. يمكن للمرء القيام بالمحاولة و التحدث عنها، ولكن يبقى كل هذا مجرد كلام، وليس فعلاً حقيقياً. فالفعل الحقيقي يتم بدون كلمات.

واعلم انه ما دمت مرتبطاً بأمر دنيوي، و ما دمت ترتكز على امر غير الله، و خارجاً عن نفسك، و ما دمت تجد تعزيتك و متعتك في ما هو مخلوق، فلست بعد صالحًا ان تكون ذبيحة حية. في الاول جاهد كي تنبذ كل هذه. دع كل اشكال الحياة تتوقف في داخلك، عدا واحدة فقط. بكلام آخر لا تحيا انت فيما بعد، بل دع يسوع يحيا فيك مع روحه القدس. بعد ذلك قدم ذاتك ذبيحة الله. و حت يكون لك ذلك، قدم الله روحًا منسحقاً، و قلباً متواضعاً مكسوراً، وكن راضياً بذلك الى حين، لا الى الابد. لأنك في النهاية ستجد نفسك مجبراً على بذل ذاتك لله بالكلية، كذبيحة حية محترقة.

---

(1) راجع شرح القدس الالهي للقديس نقولا كاباسيلاس

## الفصل (السابع)

### في دفء القلب وبرودته وجفافه

دفء القلب هو ثمرة الشعور بالله، و بأي شيء الهي. و يتولّد هذا الدفء، منذ لحظة العودة الى الله بالتوبّة، و اثناء القيام بأعمال الندامة، بغية نيل نقاوة القلب. و ينمو الدفء هذا تدريجياً. احساس الدفء تأتي متقطعة بين حين و آخر. و مع مرور الوقت، تصبح حالة دائمة في القلب.

جاء في كتابات القديس يوحنا السلمي : " ليكن شوقك دائماً من جهة الشعور بالله، و بكل الامور الالهية ". بهذا يعني الدفء. انه كل شيء يحرّك في القلب فرحة تولد فيه الدفء. و دفء القلب هو على انواع: دفء ينجم عن مؤثرات روحية على القلب، و هذا ما يصير لنا في حياتنا الروحية. و من سماته الاقلاع عن الامور المخلوقة، عندما يجتذبنا الله و كل الامور الالهية. ان دفء القلب سمة تختلف عن الحرارة الناجمة عن المشاعر النفسية والجسدية، و هو بعيد عنها بعد السماء عن الارض.

والاحساس بالدفء الروحي في القلب، هو بسيط، الا انه في جوهره ثمرة حركات روحانية عديدة مندمجة في ما بينها كشعاع النور المؤلّف من سبعة الوان الطيف المتداخلة في ما بينها، في الدفء خشوع و مخافة، انسحاق قلبي، سجود في الحضرة الالهية ابان التعبد، و شوق لا حدود له، مع حب لا ينتهي. و لما كان من المستحيل ان تحل كل هذه الاحاسيس في القلب دفعة واحدة، لذا فالدفء القلبي ينمو فيها تدريجياً. و لكي يكون الدفء هذا، حالة دائمة في القلب، تجيء و تروح، فهي اما انها تأتي من تلقاء ذاتها، بفعل افتقاد الهي، او انها تكون ثمرة رياضات روحية (مطالعة، تأمل ، صلاة، اعمال نكران للذات، و اعمالاً اخرى حسنة). الا انها تهدر، بشروع الذهن عن الروحيات، منجذباً الى هوى القلب في الامور غير الروحية التي تجذبه و يتلذذ بها. فأمور كهذه، من شأنها ان تخمد الدفء القلبي، كما تخمد الماء النار.

فهل ترغب بالمحافظة على هذا الدفء الروحي فيك؟ انتبه اذن الى الامور التالية:

- 1- ركز انتباحك في قلبك، وقف فيه للصلادة الى الله، دون ان تسماح لأفكارك بالشروع، لئلا يتشتت ذهنك ايضاً.
- 2- لا تجعل ثمة ما يجذبك من الامور النفسية و الجسدية، ولا تسماح لها بالدخول الى قلبك، انما بادر الى قطع كل الاهتمامات الدنيوية، و كل صنوف الازعاج، منذ البداية.

- 3- كن حاراً في ارضاء الله على الدوام، فتخلص نفسك. اما في الامور الخارجية، فراعِ ما يملئه عليك ذهنك، ووجه كل شيء نحو الهدف الاسمي و الاساسي. و عندما تتأمل في ايٍ من الامور، لا تدع ذهنك ينشغل بسواء. و اود ان اقول انه اذا

اختبرت هذا الدفء، مرة واحدة، لا يعود من الممكن ان تهمل الشوق اليه، بل سترغب في الاحتفاظ به على الدوام. و هكذا سترغب في استخدام كل الوسائل الناجعة بغية نيل هذا الغرض. و عندما تستخدمنا، ستتعلم من ذاتك، ما هو افضلها و انجعها.

و ان قمت بهذا العمل ، جيداً ، سيكون الدفء الروحي مرشدك الاكيد و المضمون، فنتعلم منه كيف تتحكم بحياتك الروحية، كيف تسلك في الشؤون العامة، و كيف تضبط مسلكك كي تحتفظ بهذا الدفء.

و كما ان الدفء الروحي في القلب يستتبع عذوبة مطلقة، هكذا فغيابه، يجعل القلب في وجع لا يطاق و لا يحتمل. و قد قيل قدِيمًا بأن الدفء الروحي يغادر القلب، حين يحيد القلب و اليقظة عن الامور الروحانية، وينزع الى ضدها، و التي قد تكون اموراً غير خاطئة. فمن سبق ان ذاق الدفء الروحي، لا يعود ينجدب الى الخطيئة، و هنا اعني ما يدخل في نطاق النفس و الجسد من امور الدنيا و تفاهاتها. فما ان ينزع القلب الى هذه الامور، حتى تتناقض فيه الحرارة و الدفء. الا انه عندما ينجدب اليها، فهذا يعمل على تلاشي الدفء القلبي بالكلية، مخلفاً وراءه برودة تجاه الروحيات، مقرونة بشيء من اللامبالاة تجاه الاعمال والواجبات الروحية التي نمارسها عن قصد، بغية الاحتفاظ بهذا الدفء. فالإنسان اذ يستجمع ذاته تواً، و يسارع الى ما ينتج عنها مثل هذا الدفء. فان الدفء يعود، و بسرعة. اما اذا تقاعس ، و تشتت، فان ذهنه يُسلب كونه اعتمد على ذاته. و قد يحصل ان تترافق النفس لا سيما عندما يقدم المرء على ارضاء الهوى غير الروحي الذي انتصب لدى التصميم على الحياة لله، عندها ستختبو الحماسة الروحية، ان لم نقل ستموت، و الحالة الاخيرة هذه، تسبق السقوط في الخطايا القديمة المألوفة. اما اذا استجمع الانسان ذاته، فلا يعود يستصعب العودة الى الحالة الروحية، حتى من هناك.

هذا هو السبب وراء البرودة. انها غلطتنا. فالبرودة تنجم عن قلة الحرث و اليقظة على الذات. وهذا يحصل، اما بداعي تأثير البيئة الدنيوية، و ما يتصل بها، عندما تأخذ اباطيل العالم لب الانسان فتسليه ذاته، و اما هي بداعي خداع العدو، الذي يبتكر ما يلزم من الوسائل، كي يحمل المرء على مبارحة ذاته. و كثيراً ما ينجح، عندما يستحضر صورة الخداعة، فيستميل بها الجسد على نحو ما. لكن مهما كان السبب، يبقى ان عمل البرودة و الفتور، يبدأ بعد تخلی القلب عن اليقظة. و يكون استخدام البرودة هذه، من اجل استعمال القلب الى ما هو باطل، شهوانی و خاطئ. و في كل الاحوال تبقى الخطيئة منوطة بالإنسان اذ لا العالم و لا الشيطان يقدر ان يقتتحم الحرية الانسانية. ما هو ممکن فقط، ان تتعرض هذه الحرية للتجربة.

كثيراً ما يكون الفتور من عمل النعمة الالهية. فالدفء الروحي في القلب هو من ثمار حضور النعمة فيها. بمجيء النعمة، يلتهب القلب. و بذهابها، يخبو و يبرد. النعمة كثيراً ما تتخلى عن الانسان عندما ينجذب الى الخطيئة. في هذه الحالة تسمى (فتوراً قصاصياً). كثيراً ما تنسحب من تلقاء ذاتها لمساعدة رجال الله في تقديمهم الروحي، وفي مثل هذه الحالة يدعى الانسحاب (بناء) (1). لكن في الحالتين تكون النتيجة ذاتها: فتور و بروفة في القلب، فالضييف والزائر قد ادبوا . و الفرق بين الامرين، هو ان الفتور عن اثم او خطيئة، من شأنه ان يضعف الحماسة الروحية، أما الفتور الناجم عن انسحاب النعمة، فيلهبها كثيراً، و هذا من دواعي الانسحاب. النعمة الالهية تنسحب من تلقاء ذاتها، بهدف البناء، و ذلك للأسباب التالية:

- 1- لكي تقوّي الحماسة التي تتعرض للفتور بفعل سكون طويل الامد.
- 2- لكي يدرس الانسان امره بدقة، فيرفض الاهتمامات التي لا تتصل بالسيرة المرضية لله و لا تقود اليها.
- 3- لكي تقوّي فيينا الاحساس بأن الخير الذي فينا، هو من ثمار النعمة الالهية.
- 4- لكي تجعلنا اهلاً لتقدير هبات الله المقبلة، فنحتفظ بها بتواضع كثير.
- 5- لكي ترشدنا الى التسليم بأخلاص للهبات الالهية، مع انكار قاتم للنفس و احتقار لها.
- 6- لكي تثبتنا في الالتصاق بالأفراح الروحية نفسها، فلا ينقسم قلباً، فالله يريدنا ان نلتصل به فقط.
- 7- لكي تحول دون توقفنا عن الجهاد عندما تباشر النعمة فعلها فينا، فلا نتغافل في درب الله، انما نرُوض قوانا المنوحة لنا من الله كي تكون في الخط المرسوم لها.

ولو ان الفتور هو نتيجة لانسحاب النعمة، تبقى انت السبب في هذا. فانسحاب النعمة تم بإرادتها، اما انت فعندما تشعر بالفتور تجاه الامور الروحية و كل الاشياء الالهية، فبادر الى الدخول الى اعمق نفسك، مدققاً في سبب ما حصل لك. فان وجدت انها غلطتك، فبادر الى محوها، ليس لأنك مشتاق الى الافراح الروحية، انما لأنك تريده ان تبدد كل ما هو لإبليس فيك، و ذلك لأنك راغب في ارضاء الله. و ان لم يكن شيء من هذا، فسلم الامر لإرادة الله، و قل في نفسك: هكذا شاء رب، لتكن ارادتك في يارب، فانا ضعيف و غير مستحق. اصبر على نفسك مجاهداً ، كي لا تحيد عن نواميس الحياة الروحية. فالذي هاجمك يريد ان يحضرك على ممارسة ما لا يرضي الله. الاعداء ستسعى كي تقنعك بأن جهاداتك عديمة النفع.

اشرب هذا الكأس برغبة، و انت تقول للرب : " انظر الى تواضعي و جهادي ولا تبعد عني رحمتك". لتكن هذه الجهادات ملهمة لك بالإيمان ، بأن الكأس هذه هي من حب الله، فالله ي يريدك ان ترנו و تصل الى كمال روحي اكبر.

اسلك بسرور درب خطوات الرب على ثابور، وعلى الجلجلة. أي ليس حينما تشعر بالنور الالهي و البهجة الروحية العذبة في داخلك فقط، انما ايضاً عندما تهاجمك الهموم و الاحزان و الضيقات التي تعرفها النفس ساعة الشدة و التجربة، داخلياً و خارجياً معاً. ولو ان البرودة هذه اقتربت بما لا تعرف كيفية العمل فيه، فلا تحف ، بل اثبت حيث انت، حاملاً صليبك. اقص عنك كل تعزييات الدنيا التي يختارها الجسد، ويؤوي بها العدو. جاهد كي تخفي تعبك عن الناس، و لا تحدثهم عنه، انما بادر الى كشفه لأبيك الروحي، ليس بدافع شكوك من الضيق، انما لكي تلتقط منه النصائح الى كيفية تحاشي المتابع لاحقاً، فتحتملها برضى و فرح، الى الوقت الذي يشاؤه الله. واظب على الصلوات و المناولة و الرياضات الروحية الاخرى، كالعادة ، ليس من اجل الافراح المتولدة عنها، ولا من اجل الرغبة بإنزال الصليب عن ظهرك، انما لكي تناول قوة تبقى بفعلها مصراً على حمل الصليب برضى و فرح، من اجل مجد المسيح المصلوب عنا، كي نعيش وفق ما يرضيه و ان كانت حالتك لا تسمح بالصلوة احياناً، و كنت تتعب امام نقاوة الافكار، فكما فعلت سابقاً تجاه بلبلة الافكار، اعمل ما هو بوسعك ما دمت نشيطاً و غير كسول. و ما ينقص في التنفيذ يصبح لك و كأنه عمل تام، بداعي رغبتك و جهادك. ابق على هذا المنوال، و سترى الثمار العجيبة، مع قوة و حيوية تملأ قلبك و نفسك.

و ها انا الان اسوق مثلاً على كيفية دعوة الله في تلك الاوقات العصيبة: تضرع الى الله قائلاً: لماذا انت قسوة يا نفسي ، و لماذا الانين؟ تضرعي الى الله لأنني احمدك.." (مزמור 43: 5). " يارب لماذا انت بعيد؟ لماذا تحتجب ساعة ضيقتي" (مزמור 10: 1). " لا تتركني يا الهي و لا تتخلى عنني" (مزמור 38: 21). تذكر قول سارة زوجة طوبيا المحبوبة: " هذا هو يقين كل الذين يعبدونك، فمن يحيا في تجربة، يتوج. و من احاطت به الشدة، يخلص..." (طوبيا 3: 21-23). تذكر المسيح ربنا الذي بالآلام احس ان الاب قد تركه في الجثمانية. فعندما تحس و كأنك مصلوب. ، فاصرخ من كل قلبك : " لتكن مشيئةك يارب..." (متى 26: 39) فان فعلت هكذا ترتفع صلاتك الى الحضرة القدسية، و تحس انك ممتلىء حباً قوياً، واستعداداً ملتهياً لحمل صليب الآلام و السير وراء الرب في الطرق التي يختارها، و هذه حياة حقيقية في الله. فطلب الله الرغبة به، و الاشتراك معه في الطرق، الى الحد الذي يشاء، هي الحياة الحقيقية. فالذين يلجون الحياة بهذه العزيمة، لا ينكسرون امام الصعاب و التجارب، ولا يكون فتورهم بدون فائدة، ولا يتأففون ساعة الضيق و التجربة،

او ساعة الفتور و الجفاف، انما يقبلون كل شيء بفرح و شكر، على ان فيه اراده الله، و انه لمنفعتهم، فلا يبالون بشيء، بل يجدون لإرضاء الرب مدققين في الامور البناءة بحماسة عظيمة و نكران للذات اكبر.

و يحدث عندما تفتقر النفس و تبلغ حالة البرودة وعدم الاحساس الروحي، ان يهاجمها العدو بضراوة عبر الافكار الشريرة و المؤشرات المختلفة و الاحلام ، و كل ذلك بهدف زرع اليأس في القلب بحجة أن الله قد تخلى عن الانسان ، و هكذا يبلغ مرحلة التوقف عن الجهاد، و ينجذب الى هوی استطاع العدو شدة اليه. فإذا قدر لك ان تدرك ذلك، قف بثبات، ولا تخشى هدير الاثم حول ابواب قلبك. بادر الى الاشمئizar من الخطيئة كما هو عهده سابقاً. و كن على يقين ان سفينتك الصغيرة ستظل في سلام. النعمة الالهية سحبت تعزيزاتها منك، الا انها واقفة بجوارك ترقبك و تفرح لجهادك، فهي لا تدعك بلا سند مادامت ارادتك تنزع نحو الخير. لهذا تمسك جيداً باليقين ان العاصفة هذه تعتبر سريعاً. آمن ان ذلك كان لمنفعتك.

فانت ان استطعت ان تحتمل دقة التجربة، ستخرج بمعرفة ادق لضعفك. و سوف تدرك تواضعاً اكبر، و قناعة اشد، بأن الله دائم الاستعداد الى المعونة، و هو قريب منك، و مستعد لشد ازرك. لقد اتيح لي المجال ان اكلمك عن هجمات بهذه العاصفة يشنها العدو ضدنا. فما عليك ، الا ان تطالع ما كتبت.

## الفصل الثامن

### في حراسة الضمير و فحصه

استعمل يا أخي كل الوسائل كي تحفظ طهارة ضميرك في الأقوال والأفكار والأفعال. ليكن ضميرك على الدوام غير ملوم، فلا تسمح له بتبكيرك أو تأنيبك على أي شيء. وإن عملت هكذا، فإن ضميرك سيترسخ في سائر الأمور الداخلية والخارجية أيضاً، ويصبح بذلك سيّداً على حياتك يحميها ويدير شؤونها على نحو جيد. فالضمير الظاهر يجعل حياتك عديمة العيب و غير ملومة لأنه ينزع إلى الخير و يمحّ الشر. الضمير هو ناموس الله المغروس في قلوب الناس يساعدهم على إنارة سبيل حياتهم ، ويرشدهم إلى الصراط القويم كما علم بولس الرسول: " عمل الناموس مكتوب في قلوبهم" (رومية 2 : 15) . وعلى قاعدة هذا القول يقدم القديس نيلوس النصيحة التالية: " في كل شؤونك، اقتفي إرشاد ضميرك لأنّه سراج ينير" .

ثمة أمور أربعة ينبغي أن تصون ضميرك فيها:

-1 علاقتك بالله

-2 علاقتك بنفسك

-3 علاقتك بآنسائك و جيرانك

-4 وعلاقتك بكل ما هو في متناولك.

أنت تعرف هذا، إلاّ أنني سأذكر بالأمور الأكثر أهمية:

1 - علاقتك بالله

واظب على ذكر الله، و اسلك دائمًا في حضرته. انتبه إلى نفسك، فقوّة الله هي التي تحملك و تحبّك و تحميّك. اسلك نحو هذا الهدف، فمن أجله دعاك إلى الوجود(1). كرّس نفسك وكل ما عندك لخدمة الله و مجد اسمه. عش فيه، ثق به، و سلم له كل أمورك، الزمنية منها والأبدية.

2 - علاقتك بنفسك

كن منصفاً مع نفسك، و أعطها حقّها مما في وجودك، اجعل روحك الطامحة إلى الله تحكم على جسدك و نفسك، فقد أناط الله بهما دوراً في الحياة الزمنية. درّب نفسك على طاعة ما يملئه الروح، و كن منصاعاً

(1) نحن في الوجود لا لناكل و نشرب وننجب و نجمع المال و نطلب المجد و الشهر. إن هذه كلها هي تفاهات يعلق بها أبناء الدنيا

للحق المعلن من الله. بهذه تسلك في كل شيء، فتحفظ مشيئة الله وتدبّر وصاياه. لا تدع نفسك تشرد إلى ميولها ونزعاتها. واعلم ان قلبك لا يجد عزاءه إلا في الإلهيات، وفي كل ما يحمل طابعاً إلهياً أو يعبر عنه. بهذه الروح دع نفسك تسوس شؤونها العامة والخاصة في الحياة. اعط جسدك حاجته، جاعلاً للأمر مقياساً وكن حازماً حسب قول الرسول : " لا تصنعوا تدبّراً للجسد من أجل الشهوات" (رو 8 : 14).

### 3- علاقتك بأنسائك و غيرك

احترم الجميع ، ففيهم صورة الله. اطلب الخير لهم مبادلاً الجميع بالخير، قدر المستطاع. اتّضع أمام الجميع طالباً رضى الجميع في حدود الخير. افرح مع الفرحين ، واحزن مع الحزانى. لا تدن أحداً، ولا تحقر أحداً، لا بالفكر ولا بالشعور. لا تحجب الحق إن كنت تعرفه ، عن الذين يسألونك النصح والإرشاد. لا تفرض نفسك على أحد ، كما لو كنت معلماً من تلقاء ذاتك. فوق كل هذا ، احتفظ بالسلام والوفاق مع الجميع ، مستعداً لكل بذل وضحية من أجل هذا الهدف. انتبه كل الانتباه في أن لا تضل أحداً.

### 4- بالنسبة للأشياء

احترم كل الأشياء على أنها خليقة الله. استعملها وصنها لمجده الله. ارض بما لك ، واسكر الله على ذلك. لا تلتقص بأي شيء ، ولا يعلق قلبك بشيء يعيقه عن الحياة مع الله. اعتبر أشياء العالم أموراً خارجية ، و مجرد أدوات ، و ذلك كي تنتفع لدى تعاطيك بها ، فلا تكبلك وأنت في الدرج الصحيح. لا تسمح لذاتك بالاتكال على هذه الركائز الضعيفة (القابلة للكسر). لا تتبااهي بما تملك. لا تحسد الآخرين على ما يملكون. تحاش تكديس الأموال وروح الامتلاك. لا تضل في الأمور غير الصالحة. على كل إنسان أن ينتبه لهذه كل يوم بشكل أو آخر ، عند كل محطة وخطوة. وإن كنت تعيش باستقامة ، فهذا يجعل ضميرك صالحًا ، فتتشبه بالرسول بولس (عبانيين 13 : 18). ان الذين يرغبون أن يحيوا باستقامة وهم غياري على الخلاص ، يسلكون كما قلت ، مجاهدين كي لا يخطئوا في أي من هذه الأمور ، فيبقى ضميرهم غير ملطخ. لكن رغم جهاداتهم ، تنسل أفكار ومشاعر خاطئة و كلمات خاطئة ، و أعمال خاطئة ، فلا يلاحظونها ، وأحياناً يرونها ، فيتغطى بالتراب وجه الضمير النقى. حتى انه في نهاية اليوم ، قلما ينجو أحد من نتائج ذلك ، على مثال المسافر الذي يجتاز طريقاً يعج بالغبار ، فيمتلىء أنفه و عيناه وفمه و شعره بالتراب ، ووجهه أيضاً ، فالذي يحن إلى الخلاص ، لابد له من فحص الضمير عند المساء ، ليرى الأمور الخاطئة التي أقرت بها أفكاره مع كل الكلمات والأفعال الأخرى ، فيغسلها

كلّها بالتنوّة. فهو يحذو حذو المسافر الذي علق به التراب. المسافر يغسل وجهه بالماء، أمّا الأول، فيغتسل بالندامة و الانسحاق و الدموع.

و فحص الذات لابد أن يشتمل على التدقّيق في كل الأمور، الصالحة منها والرديئة، الجيّدة و الخبيثة، و من كل الجوانب، كما بيّنت سابقاً. فإن رأيت أمراً صالحأً، بحد ذاته، انتبه لترى إذا كان صالحأً من جهة الانطباع و الاهواء و النية. وأيضاً ينبغي أن يكون صائباً من جهة طريقة ممارسته و موقفك منه بعد إتمامه، و ذلك لترى إذا كان قد جرى تحت تأثير ما، من أجل منفعة الناس، أو بداعي التساهل و الإشغال على الذات. دقّق أيضاً في ظروف إنجازه، كي لا تكون كمن ينفع بالبوق امام نفسه فيتمجد من ذاته دون أن يمجّد الله. العمل الصحيح، صحيح هو، إن كان قائماً على الطاعة لمشيخة الله و مجده، مع رفض للذات، و نسيانها.

و إن عثرت على أمر معوج سبق أن قمت به، دقّق في سبب اقترافه عندما تكون راغباً في القيام بعمل سليم . يكفي أن تعرف البواعث الداخلية و الخارجية التي أودت إلى ذلك ، و كيف ستحكم نفسك كي لا تخطئ، و لماذا لم تقم بالأمر الموفق في حينه دون أن تنزع إلى ملامة الآخرين أو تعزو السبب إلى أمور مختلفة، فقط إلى نفسك. فكر كيف ينبغي أن تسلك في ما بعد كي تتجنب الوقوع في الخطيئة في كل الظروف. اجعل لنفسك ناماًوساً ، قانوناً، ونفذ ما عزمت عليه بدون شفقة أو تساهل مع الذات. وهكذا تستطيع أن تستخدم الأمور غير النقيّة كي تنمّي بستان قلبك. و بعد كل هذا، ارفع الشكر لله من أجل الأمور التي رأيتها سليمة و صائبة، دون أن تنسب أيّاً منها لنفسك. تذكر كلام الرسول : " لأن الله هو العامل فيكم، أن تریدوا و أن تعملوا" (فيليبي 2 : 13)، " بدون الله لا تقدرون أن ت عملوا شيئاً" (يوحنا 15 : 5) . لذا بادر إلى رفع الشكر لله و " امتد الى ما هو قدّام" (فيليبي 3 : 13). أما من جهة الامور غير الحسنة، فتب عنها أمام الله، و بادر إلى ملامة نفسك، فالقربان الذي قدّمه الله، لم يكن نقياً، بل امتزجت به الشوائب. صمم على مراقبة نفسك في اليوم التالي، ولا تسمح لأي خطأ بالدخول إليك في القول و الفعل و الفكر. فالذين يتيقّظون، يفحصون ذواتهم يومياً، و في المساء يكون فحص الضمير مجرد استرجاع لنشاطات اليوم المنصرم، و ذلك بقصد التحسين و التقويم. ألا ترى ان السبيل الأخير حسن، فأنت بذلك تجعل الضمير عارفاً بكل شيء. و الضمير سيضطرب إذا لمح خطأ ما. و هكذا فإنه سيسكن ويهدأ، بفعل ملامة النفس، فالرغبة بالسيرة الحسنة لاحقاً، خير من تأجيل الامور حتى المساء.

و أريد أن أضيف بضعة كلمات على هذا الموضوع: بادر إلى فحص نفسك بحزم شديد وباحثاً عن أسباب كل أعمالك، و احكم على نفسك بدون هواة. وكلما توغلت في ما يحدث فيك، أو يصدر عنك، تحذف الأمور الخاطئة، وتثبت الحسنة، فتسرع

أكثر في تنقية ضميرك، تماماً كما إن الماء الأطيب هو في البئر الأعمق. و عندما يتعلم الضمير ما هو صائب و ما هو منحرف، لن يتطلب إلا تلك الحسنة، مشمئزاً من السيئة. و لكن البلوغ إلى التمييز بين هذه و تلك (عب 5 : 14) يستوجب عينين ترى. و قبل ذلك ، يكون الضمير معتمدا على قوى النفس الأخرى، لاسيما قوة العقل. و لكن العقل نفسه يمكن أن يسلب و يُرثى قبل أن يكون القلب قد بلغ النقاوة و التطهير من الأهواء. فالعقل ينزع، قبل نقاوة القلب، إلى المبررات ، و التي من شأنها أن تحجب عين الضمير و تضلّلها فتأخذ الأبيض بالأسود و العكس. فما دمت تجاهد ضد الأهواء، فعند فحص الذات، بادر إلى وضع كل أعمالك أمام مرآة الله، و استرشد بها في تقرير نوعية أعمالك و قيمتها. لا تتوان أو تخجل من زيارة أبيك الروحي لأكثر من مرة.

بادر إلى فحص أعمالك و الانتهاء منها بصلة حارة، طالباً من الرب أن يهبك عينين تبصران أعماق القلب "فالقلب خداع.." (ارميا 17 : 9). الله وحده فقط هو الأعظم من قلوبنا (1 يوحنا 3 : 2)، فهو وحده فقط عرف قلوب الجميع (1 ملوك 8 : 39). هناك مشاعر خاطئة متजذرة في القلب (1)، و كثيراً ما تنسل إلى أعمالنا دون أن نلاحظها، فتنفسد كل شيء، بدنس الخطيئة. لذا صل مع داود قائلاً: "من الخطيئة الدفينة أشفني" (مزמור 19 : 12).

---

(1) راجع باب القلب في كتاب "اليقظة و الصلاة".

## الفصل التاسع

### في الاستعداد للمعركة ضد العدو في ساعة الموت

ورغم ان حياتنا على الارض كلها حروب، ورغم انه يتوجب علينا الجهاد في هذه الحروب، وحتى النهاية، يبقى ان المعركة الاساسية والاكثر خطورة، هي التي تتربيص بنا ساعة الموت، فمن سقط في تلك اللحظة، قد لا ينهض ابداً. لا تنذهب من ذلك، فالعدو تجرأ على ربنا نفسه الذي لم يكن فيه خطيئة، فجرّبه في نهاية ايامه بالجسد على الارض "رئيس العالم هذا، آتٍ و ليس له على شيء" 0 يوحنا 14 : 30). ترى ما الذي يمنعه من الهجوم علينا في نهاية عمرنا؟ في هذا يقول القديس باسيليوس الكبير لدى تفسيره مزمور (7): "لئلا يفترس كأسد نفسي و يهشمها وليس من منفذ" (مزמור 7 : 2). ان اكثر المقاتلين بأساً وقوه، المجاهدين ضد الشيطان طوال حياتهم، وقد نجوا من حيلة والاعيبه و صدوا هجماته، تعرضوا في نهاية عمرهم لتجربة من رئيس هذا العالم، و ذلك ليقوم باخر محاولة له ضدهم، فقد يكون شيء من الخطيئة مازال عالقاً فيهم، و يستطيع به ان يقهرهم في اللحظة الحاسمة. فعندما لا يجد مبتغاه فيهم، يفشل، فيعبرون الحرب بسلام، ليصلوا الى الراحة مع الرب (1). و ما دام الامر هكذا ، فيستحيل إبعاد الحرب عن مخيلتنا، انما ينبغي ان تكون الحياة كلها استعداداً لهذه اللحظة. عليك ان تثبت استعداداً لائقاً في تلك الساعة. و ان كنت في حياتك الارضية قد جاهدت بشجاعة ضد اعداء خلاصك، فمن الاكيد انك اكتسبت تقينه تتغلب بها عليهم، فتناال الاكليل بيسرا و سهولة، في ساعة الموت. اضف الى ذلك، انه يجب ان تفكر بالموت على الدوام، بيقظة وصحوة، وتسترجع في ذهنك كل ما سيصيبك في تلك الساعة. و ان عملت هكذا، فالساعة لا تفاجئك ، ولا تخيفك، او اقله لن ترعبك كثيراً. نفسك لن تضعف بالجزع، انما ستبدى متانة و ثباتاً في الجهد من اجل النصرة على العدو. ابناء العالم يمجنون تذكر الموت و يؤبونه، و ذلك لأنهم لا يودون الانقلاب عن التمتع بالمباهج الحسية التي ليست على وفاق مع ذكر الموت. الامر الذي يجعل تعليقهم بأباطيل العلام ينمو و يزيد على نحو لا يعود معه بالإمكان صدّه. لكن عندما تحين ساعة الفراق، و الانفصال، عن نكل امور العالم الذي احبوه و ارتبطوا به، يسقطون ضحية الرعب و الفزع و القلق.

(1) انتهى قول باسيليوس

و لكي يأتيك ذكر الموت بثماره، عليك ان تجعل نفسك في مكان من يحضر ساعه الموت و يختبر الضيق و الالم و السكرة الاخيرة. عليك ان تستحضر لنفسك تجارب العدو حية، و التي بها سيهاجمك. و لا تنسى ايضاً الافكار و المشاعر التي ستحملها امام رهبة تلك اللحظة. و انا سوف افسر لك كل قتال العدو المحتمل ضلك و ادلك على السبل التي تصدء بها، ما دمت على قيد الحياة. فيمكننك الافادة منها عملياً عندما تحين ساعه الموت. الحرب هذه لا تأتي الاّ مرة، و لابد منها. و على المرء اتقان كيفية الوقوف فيها ، للحرب، بمهارة، كي لا يخطئ و ينزل. لأنه اذ ذاك، سيفقد ما لا يمكن تعويضه و استرداده.

## الفصل العاشر

التجارب الاربعة الآتية من العدو في ساعة الموت:

التجربة الاولى هي ضد الايمان

ما هي السبل للنصرة في هذه التجربة؟

التجارب الرئيسية الخطيرة التي يحاربنا الشيطان بها ساعة الموت، هي :

-1 زعزعة الايمان

-2 القنوط

-3 المجد الفارغ

مع تخيلات مختلفة يظهرها للمحتضرين:

التجربة الاولى :

عندما يبدأ العدو بزرع الشك فيك، او يكلمك وهو في صورة منظورة، ضد الايمان، فلا تناقشه و لا تحاججه. انما رسم الايمان الذي يهاجمك، و بادر الى القول بهزء، له: أبعد عني يا شيطان، فانت اب الكاذبين، انا لا اريد ان اصغي اليك، إيماني من كل القلب، هو ايمان الكنيسة المقدسة نفسها، هذا يكفي. لا تضف على ذلك شيئاً، بل اثبت حسب قول الكتاب: "ان قامت على روح التسلط فلن ابارح مكاني" (جامعة 10 : 4). تيقظ و انتبه مواطباً على يقظتك. فهذا ليس سوى حيلة شيطانية. فالشيطان يريد ان يضللك في ساعة الموت. و ان عجزت عن الوقوف و الصمود ببيقظة، فحاول ذلك في ارادتك و مشاعرك. لا تسمح للأعداء بالإيحاء إليك، فقاتل النفوس يعمد الى الكتاب المقدس يقتصر به للايقاع بك. و هو يعمل ذلك، كي يودي بك الى خسارة نفسك بفعل تفسير مغلوط، و تحريف للحقيقة

الكامنة في كلمة الله، و ان سألك الافعى عن فحوى تعليم الكنيسة و ايمانها، فلا تجيب، و لا تكرر الى هذه الكلمات، بل تجاهلها تماماً، فهي مكر و كذب و غش، فالشيطان همه ان يضللك افكارك. تأمل في عمق الايمان الذي فيك، و ان شعرت انك راسخ عليه، و تريده اذلال العدو، فقل : الكنيسة تؤمن بما هو حق. و ان عاود الكلمة: و ما هو الحق؟ قل له: الحق هو ما نؤمن به. انه الصليب الذي به سحق الرب رأس الشيطان و بدد قوته. و عند ذلك اجعل عينيك على صليب

المصلوب و قل :  
” يا الهي ، يا خالقي و منقذي ، بادر الى معونتي ، ولا تدعني أتدعى من الايمان بك ، فانا  
بحبك العظيم قد ولدت في هذا الحق . فهبني ان اتمسك به كي تنتهي حياتي الى مجد اسمك القدس .

## الفصل الحادي عشر

### التجربة الثانية :

اما التجربة الثانية التي يشتق العدو الى كسرنا بها، فهي الجزء لدى رؤية هول خطايانا، و الجزء هذا لا يمكن تحاشيه، و كثيراً ما يرتبط به شيء من شك بعقيدة الخلاص من الخطيئة، بقوة صليب الرب. فالعدو يثير فينا الجزء امام خطايانا، و ذلك كي يطفئ كل امل لنا بالخلاص، و يحطمها بقطع الرجاء و بالقنوط. لذلك اعدد نفسك قبل الاوان مثل هذا الهجوم. و قرر التمسك بالرجاء، من الان، حافظاً في داخلك الثبات في الايمان بقوة الفداء الذي تم بموت الرب على الصليب. و ان كنت تختبر هجوم قطع الرجاء ، فبادر الى التفكير ان هذا كله من العدو، و ليس نتيجة لكثره ذنبنا و معاصينا. ان هذا الموقف يجعلك تتضع و تنحني، و يغمرك الحزن بأنك قد احزنت رب الرحوم. لذا فرغم ان التجربة هذه تأتي بالجزء، الا انها لا تقوى على تبديد الرجاء بمراحم الله، فالرجاء يولد ثقة قوية بالخلاص. لذا بادر الى ابعاد كل رفض من قلبك، فتذكرة الخطايا قد يودي بك الى الضيق و اليأس. و كثيراً ما يكون تذكرة الخطايا سبباً لضرب الرجاء. لذا فعندما تتنبه لذلك، لا يعود من الصعب عليك التمسك بالرجاء. الرجاء يؤهلك الى التأمل في عمق مراحم الله اللانهائيه، فالله وهبنا ان نتخلى عن الخطايا وهو يريد خلاصنا، لا هلاكتنا. اما القاعدة التي عليها الصليب التي لا حدود لها. علينا دائماً ان نطلب العون من هذا الصليب، فالطلب واجب، لا سيما ساعة الموت. و اليك الان صلاة ترفعها عند ولوح عتبة الموت: "رببي، كثيرة هي بواعث جزعي، فأنا لو تلقيت معاملة عادلة، سأكون مذنباً... إلا ان رجائى القوي بغرانك، حسب كثرة مراحمك في ابنك يسوع المسيح، هو الذي يدفعني الى التضرع كي، تبقى لي صلاحك الامتناهي، انا المخلوق البائس و المسكين. فرغم ذنبي، غسلني دم ابنك الوحيد الهي، كي امجدك الى الابد. ها انا استودع روحي بين يديك. عاملني برحمتك، فانت وحدك سيد حياتي.".

## الفصل الثاني عشر

### التجربة الثالثة :

اما التجربة الثالثة في ساعة الموت، فهي المجد الفارغ الذي يحاربنا به العدو، كي يعتمد الانسان على نفسه و اعماله. لهذا لا تكترث لها. لا تكترث الى نفسك و اعمالك ساعة الموت، لا ترضي عن نفسك و اعمالك، حتى ولو كان تقدمك يفوق تقدم القديسين. لا ترضي الا بالله، جاعلا رجاءك برحمة و آلام يسوع المسيح. كن صغير الشأن بعيوني نفسك، حتى الرقم الاخير. ان راودتك افكار اعمالك الحسنة، فكر في ان الله هو الذي انجزها فيك، فهي ليست منك، بل يجب ان تُنسب له. تمسك بالعنایة الالهیة دون ان تعتبرها ثوابا لك عن جهاداتك التي احتملتها، و النصرة التي فرت بها. قف امام الله بمخافة و اقتناع نقى ان جهاداتك باطلة و عديمة الثمر لو لا اجنحة الله التي رأفت بك و اعانتك على اعمالك: لذا اجعل ثقتك و رجاءك برأسه و رحمته.

و ان سلكت بمقتضى نصيحتي، فانك ستبطل هجمات العدو ساعة الموت، فينفتح لك سبيل تعبير عليه من الوادي الدنيوي ، الى اورشليم السماء، المكان الذي تصبو اليه نفسك.

## الفصل الثالث عشر

### التجربة الرابعة

عدونا اللجوح، لا يمل من تجربتنا، و هو يحاول ان يضلك ساعة الموت بخيالات وضعوطات، او قد يتحول الى ملاك من نور. فوْطَدْ نفسك على ضعفك، و على انك لست شيئاً ابداً، قل له بجسارة و بلا جزع: " عد ايها الملعون الى عتمتك، فانا غير جدير بالرؤى و الاعلانات. انا بحاجة الى امر واحد هو حنان الرب يسوع، و صلوات القديسين مع مريم والدة الاله". و حتى ولو كان هناك ما يجعلك تشعر بوجود رؤى حقيقة من الله، فلا تسرع الى اقتبالها، فخير لك ان تتمسك بعدمك و عدم جدارتك. لا تظن انك تسي الى الله بعملك هذا فالمشارع المتواضعة، لا تغضبه. و ان كان هناك ما يدعو الى هذه الرؤى ، فالله يعرف كيف يجعلك تنظر اليها. فالمتواضعون امامه غير مرذولين. ابليس يستخدم ضدنا مثل هذه الاسلحة ساعة الموت، كما و يستخدم ايضاً اي هوى آخر، سبق ان عانى المرء منه في حياته، فيحاول ان يخدعه به، كي يجعله يترك الحياة، حاملاً الهوى معه. لذا ينبغي ان نتسلّح بالشجاعة لصد اقوى و اعنف اهوائنا، قبل مجيء موعد المعركة الاخيرة، و ذلك كي نغلب و نفوز و ننقى سيرتنا. فربما تأتي المعركة في اي وقت. اما انت فتمسك بقول رب : " حاربهم حتى يبيدو" (1 صموئيل 15: 18).

## الفصل الرابع عشر

### السلام الروحي في القلب

الله يا عزيزي خلق قلبك لغرض واحد هو ان يحب الله وحده و يخدمه، لأنه موضع سكناه. لهذا يقول لك : " يابني اعطيني قلبك" (امثال 23 : 26) . و مادام الله سلاماً يفوق كل عقل، لذا فلا غنى للقلب الراغب في اقبال الله عن السلام و التحرر من كل ازعاج. فمكان القلب في السلام فقط، كما يقول داود. لذلك جاهد كي تبني في قلبك حالة سلام ثابتة. كل فضائلك و اعمالك و جهادتك، ينبغي ان تتجه نحو هذا السلام، لا سيما جهادك ضد الاعداء، اعداء خلاصك، كما يقول القديس ارسانيوس اعظم من مارس السكينة: " ليكن كل شغلك ، أن يجعل حالتك الداخلية في انسجام مع الله" ، عندها ستغلب كل اهوائك الخارجية".

و سلام القلب تبليله الاوهاء. لذا فان كنت لا تسمح للاهواء بالدنو من القلب، فإنه سيبقى في سلام. في الحرب اللامنظورة، يقف المجاهد بسلاحه عند ابواب القلب، ليصد كل من يحاول الدخول من اجل خلق الضجيج و الازعاج. فعندما يكون القلب في سلام، يسهل التغلب على كل المهاجمين. سلام القلب هو غاية الحرب الامنظورة، وهو اعظم الوسائل لنيل النصرة في هذه الحرب. لذا فعندما ينسّل احد الاوهاء الى القلب، لا تبادر الى الوثوب عليه، رغبة في غلبتها، انما انزل بسرعة الى اعمق قلبي لاسترجاع الهدوء فيه، فالحرب تنتهي بهدوء القلب.

ليست الحياة البشرية الا سلسلة حروب و تجارب. فالتجربة تحدث على القتال فتنشب الحرب. وفي الحرب هذه عليك بالحقيقة الدائمة، والعمل بكل الجهد، من اجل حراسة القلب و مراقبته، بغية حفظه في سلام و هدوء. و عندما تتحرك فيك روح اضطراب، بادر الى اخمادها، ليبقى قلبك في السلام. ان قلب الانسان اشبه بضراب الساعة، او دفة السفينة. فكلما تغير وزن الضراب نحو الخفة او الثقل، تتغير تبعاً كل حركات الساعة، ولا تعود قادرة على اعطاء الوقت الدقيق. كذلك ان تحركت الدفة في السفينة يمنة او يسرى، فان من شأن ذلك ان يحدث خللاً في سير المركبة. هكذا مع القلب تماماً، فعندما يسوده الاضطراب، يعود اليها كل التشويش فنفقد القدرة على التفكير السليم. هذا ما يدعو الى الاسراع في تهدئة القلب لدى اضطرابه بالأمور الخارجية والداخلية، سواء وقت الصلاة، او في أي وقت آخر.

عليك ان تدرك بأنه يستحيل ان تصلي بنقاوة الاً عندما تكون قد ضبطت حراسة سلامك الداخلي. لذا اجعل انتباهك كله في هذا ، و حاول ان تبلغ مرحلة يكون فيها كل شيء مقروناً بسلام قلبي ، و سرور وبهجة. و سوف اقول لك باختصار ان الوصول الى القلب ، هو سعي دؤوب يدوم كل حياته، عليك ان تبتعد عن كل اضطراب ، فتكون اعمالك في عرين السلام كما هو مكتوب: " يا بنى لتكن اعمالك بوداعة" سيراخ 3 : 17). بهذا تصل الى بركة الوعد بالتطويبة: " طوبى للودعاء فانهم يرثون الارض" (متى 5 : 5).

## الفصل الخامس عشر

### في وسائل حفظ السلام الداخلي

من أجل حفظ السلام الداخلي ، عليك :

- 1- أن تبادر قبل كل شيء ، الى ترتيب حواسك الخارجية ، بالهرب من كل تهور و طيش في كل اعمالك . وأعني ان لا تنظر أو تتحدث او تشير بيديك أو تمشي او تقوم بأي شيء ، بخشونة و طيش ، بل ليكن كل شيء بهدوء و وقار . درب نفسك على المهدوء والوقار في كل اعمالك و تحركاتك الخارجية ، و هكذا تبلغ السلام القلبي بيسير و سهولة ، و بدون تعب أو مشقة . فالآباء القديسون يعلموننا انه كثيراً ما يتاثر انساننا الداخلي بما يعمله الانسان الخارجي .
  - 2- اعدد نفسك كي تحب الناس ، وتعيش في وفاق مع كل واحد منهم ، حسب وصية الرسول : " ان كان من الممكن حسب طاقتكم ساعدوا جميع الناس " ( رومية 12 : 18 ).
  - 3- ليكن ضميرك ظاهراً فلا يوبخك على امر ، مهما كان ، و احرص ان تكون على الدوام في سلام مع الله ، و مع نفسك و جيرانك ، و مع كل الوسط الخارجي ايضاً . فنقاوة الضمير ترسّخ عمق السلام القلبي حسب قول داود : " سلام جزيل لمحبي شريعتك و ليس لهم معثرة " ( مزمور 119 : 165 ).
  - 4- درب نفسك على احتمال السوء و المهانة ، بدون اضطراب . ولا بد ان تحزن قبل بلوغ هذه الحالة ، فتقاسي الامررين و ذلك لعدم خبرتك على ضبط النفس في كل الامور . لكن بالعادة ، المرة تلو الاخرى ، ستجد نفسك راحة في المشقات التي تحل بك . و ان ثبتت ، فانك سنتعلم يوماً بعد يوم ، كيفية ضبط النفس على نحو افضل ، فنتقدم عندما تعرف كيف تصنون سلام قلبك ، وسط كل العواصف الخارجية و الداخلية معاً .
- و ان عجزت احياناً في السيطرة على قلبك ، وفشلت في ابعاد الاحزان عنه ، فبادر الى الصلاة و ثابر عليها مقتدياً بالرب الذي صلى ثلاث مرات في الجثمانية ، عليه يريك من مثاله ، كيف تكون الصلاة حصنأ لك في الضيق و الشدة ، فلا شيء يقدر ان يكسر قلبك . و عندما تتفق ارادتك و ارادة الله ، فانك ستهدا ، و يمتلىء قلبك قوة و شجاعة ، و تصبح قادراً على قبول أي شيء و احتماله . فالرب كشف لنا الضيقات ، الا انه علمنا كيفية استرجاع السلام بالصلاحة : " قوموا ننطلق ، هؤلا الذي سيسلمني قد اقترب " ( متى 26 : 46 ).

## الفصل السادس عشر

### سلام القلب يبني شيئاً فشيئاً

ليكن اهتمامك ليس في ان يكون قلبك عديم الاضطراب و التأثر، انما جاهد، بكل قوة، كي تحفظه بهدوء و سلام. فعندما يرى الله جهادك، سيرسل لك النعمة لتكون نفسك مدينة سلام، فيصبح قلبك بيت عزاء، كما يعبر المرن عن ذلك تأوiliاً: "اورشليم المبنية كمدينة" (مزמור 122 : 3). الله يطالبك بأمر واحد: في كل مرة تنزعج من امر ما، عليك ان تستعيد السلام الداخلي و تداوم على هذا المنوال، بلا قلق و انزعاج، في كل اعمالك و شؤونك. و مما لا شك فيك ان هذا يستدعي صبراً ، فكما ان المدينة لا تبني في يوم، فلا ترجو انت ايضاً ان تفوز بسلامك الداخلي في يوم. فالفوز بالسلام الداخلي، يعني بناء بيت سلام الله، خيمة العلي. اذ ذاك تكون انت هيكل الله باني القلب فيك. و بدون الله تذهب اعمالك سدى: "ان لم يبن الرب البيت فباطلاً يتعب البناؤون" (مزמור 128 : 1). و ينبغي ان تعرف ان مرتكز سلام القلب، هو التواضع. تحاشى كل ما يأتي بالهم و القلق. ترى من يجهل ان التواضع و سلام القلب و الوداعة هي امور ترتبط ببعضها. فما ان تأتي واحدة، حتى تحل الاخرى ايضاً. المتواضع هو انسان يحمل السلام الوديع هو متواضع ايضاً. المتواضع هو انسان يحمل السلام. الوديع هو متواضع ايضاً. المتواضع هو وديع وفيه سلام ايضاً. لهذا قال رب: "تعلّموا مني فاني وديع و متواضع القلب.." (متى 11: 29). الا ان الله، كما نرى في العهد القديم، لم يطلب من داود ان يبني له بيتاً، فداود قضى عمره في حروب وقتل. انما اناط ذلك بسليمان، الذي يتصل اسمه بالسلام . سليمان كان ملك سلام، و لم يحارب احداً، فطالبه الرب ببناء البيت.

## الفصل السابع عشر

### من أجل حفظ سلام القلب، على المرء، أن يتحاشى الأمجاد و يحب التواضع و الفقر

إن أحبابت سلام القلب يا أخي، فجاهد من أجله عبر بوابة التواضع، فلييس ما يقودك إلى السلام إلاه. و لكي تفوز بالتواضع، جاهد بكل قوتك لمقابلة الشدائـد و الضيقـات بـفرح، كما لو أنك تقابل أخاك أو صديقاً حمـيـماً. اهرب من الأمجـاد. آثر أن تكون مجهـولاً و مرـذـولاً في كل شيء. لا تسأـل تعـزـية و عـنـاـية من أحد، بل ليـكـنـ هذاـ منـ اللهـ، واقـنـعـ بـعـطـائـهـ. رسـخـ فيـكـ التـفـكـيرـ أنـ اللهـ خـيرـكـ الـوحـيدـ، وـ حـصـنـكـ الـأـكـيدـ، وـ ماـ سـوـاهـ لـيـسـ سـوـىـ أـشـوـاكـ تـقـسـبـ فيـ ضـرـرـ عـظـيمـ انـ تـسـرـيـتـ الـقـلـبـ. انـ حدـثـ انـ أـسـاءـ إـلـيـكـ أـحـدـ، فـلاـ تـغـتـمـ، بلـ اـحـتـمـلـ ذـلـكـ بـفـرحـ، وـ اـقـنـعـ أـنـ اللهـ إـلـىـ جـانـبـكـ. لـاـ تـطـلـبـ كـرـامـةـ ، وـ لـاـ تـرـغـبـ إـلـاـ فيـ أـجـلـ الحـبـ الـذـيـ فـيـكـ، وـ مـنـ أـجـلـ مـاـ يـؤـولـ إـلـىـ تـمـجـيـدـ اللهـ فـيـكـ. بـادـرـ إـلـىـ الـفـرـحـ عـنـدـمـاـ تـهـانـ، اوـ تـلـامـ، اوـ تـرـذـلـ، عـالـمـاـ أـنـ فيـ هـذـهـ كـنـوزـاـ عـظـيـمةـ لـكـ. فـإـنـ قـبـلـتـ الـاحـتـقـارـ، تـصـبـ غـنـيـاـ بـالـرـوـحـ. لـاـ تـظـنـ السـوـءـ فيـ مـنـ يـهـيـنـكـ، فـعـمـلـهـ هوـ خـدـمـةـ لـكـ. لـاـ تـرـغـبـ فيـ أـنـ تـكـونـ مـحـبـوـباـ فيـ الـحـيـاـةـ، وـ ذـلـكـ لـتـكـونـ أـكـثـرـ حـرـيـةـ فيـ أـنـ تـصـلـبـ نـفـسـكـ مـعـ الـمـسـيـحـ. وـ اـنـ عـمـلـتـ هـكـذاـ، فـلـنـ يـكـونـ هـنـاكـ مـاـ يـعـيـقـكـ فيـ سـعـيـكـ. اـنـتـبـهـ لـنـفـسـكـ جـداـ اـنـ كـنـتـ تـرـغـبـ بـالـفـوزـ. لـاـ تـتـبـعـ نـصـحـ هـوـاـ، وـ لـاـ تـسـلـكـ حـسـبـ مـشـيـئـتـكـ، وـ أـحـاسـيـسـكـ وـ مـيـولـكـ. تـسـلـحـ عـلـىـ الدـوـامـ ضـدـ نـفـسـكـ. وـ عـنـدـمـاـ تـنـزـعـ اـرـادـتـكـ إـلـىـ أـمـرـ، مـهـمـاـ كـانـ حـسـنـاـ، فـبـادـرـ إـلـىـ تـجـرـيـدـهـ مـنـ كـلـ مـاـ هـوـ غـرـيبـ، وـ اـجـعـلـهـ وـحـيـداـ أـمـامـ اللهـ بـتـواـضـعـ ، طـالـبـاـ مـشـيـئـتـهـ لـاـ مـشـيـئـتـكـ أـنـتـ. اـعـمـلـ هـذـاـ بـغـيـرـ وـ اـخـلـاـصـ، وـ سـلـمـ اـرـادـتـكـ لـاـرـادـةـ اللهـ، دـوـنـ أـنـ تـرـاعـيـ مـحـبـةـ الذـاتـ، عـالـمـاـ أـنـ لـيـسـ فـيـكـ خـيـرـ، وـ اـنـكـ عـاجـزـ عـنـ الـقـيـامـ بـأـيـ عـمـلـ مـنـ أـجـلـ خـلـاـصـكـ . اـنـتـبـهـ لـنـفـسـكـ مـنـ الـأـفـكـارـ الـتـيـ تـبـدوـ طـاهـرـةـ، إـلـاـ أـنـهـاـ لـيـسـ حـسـبـ اـرـادـةـ اللهـ: " اـحـتـرـزـواـ مـنـ الـأـنـبـيـاءـ الـكـذـبـ الـذـيـنـ يـأـتـونـكـ بـثـيـابـ الـحـمـلـانـ.." (متـىـ 7 : 15 - 16). الفـتـورـ ثـمـرـتـهـ هـزـيـمـةـ الـرـوـحـ. وـ لـاـ تـنـسـيـ أـنـ مـاـ يـبـعـدـكـ عـنـ التـواـضـعـ وـ السـلـامـ الـقـلـبـيـ وـ الـهـدـوـءـ، مـهـمـاـ بـدـاـ بـرـاقـاـ، فـهـوـ لـاـ شـيـءـ. اـنـهـ أـنـبـيـاءـ كـذـبـهـ تـأـتـيـ فـيـ هـيـئـةـ الـحـمـلـانـ، وـ أـعـنـيـ الـحـمـاسـةـ غـيـرـ الـمـعـتـدـلـةـ مـنـ أـجـلـ الـقـيـامـ بـعـمـلـ مـنـ أـجـلـ الـقـرـيـبـ، لـكـ بـدـوـنـ تـمـيـيزـ. وـ هـكـذاـ فـالـأـنـبـيـاءـ هـؤـلـاءـ هـمـ فـيـ الـوـاقـعـ لـصـوـصـ يـصـوـنـونـ تـواـضـعـكـ وـ هـدـؤـكـ وـ سـلـامـكـ. فـمـنـ رـامـ التـقـدـمـ الـرـوـحـيـ، وـ جـبـ عـلـيـهـ أـنـ لـاـ يـأـخـذـ الـأـمـورـ بـظـاهـرـهـاـ، بلـ يـفـحـصـهـاـ بـتـمـيـيزـ وـ تـؤـدةـ. وـ اـنـ حدـثـ أـنـ وـقـعـتـ، فـلاـ تـحـزـنـ، بلـ تـواـضـعـ أـمـامـ اللهـ. اـعـرـفـ ضـعـفـكـ، فـرـبـمـاـ سـمـحـ اللهـ بـمـاـ جـرـىـ، لـيـكـشـفـ لـكـ عـنـ الـكـبـرـيـاءـ الـخـفـيـ الـذـيـ يـتـحـركـ فـيـ قـلـبـكـ، دـوـنـ أـنـ تـدـريـ. وـ اـنـ أـحـسـتـ أـنـ نـفـسـكـ قـدـ وـخـزـتـهـ شـوـكـةـ مـسـمـوـةـ، وـ أـعـنـيـ شـوـكـةـ الـأـلـمـ الشـهـوـانـيـ أـوـ أـيـاـ مـنـ الـأـهـوـاءـ، فـلاـ

تضطرب ، بل تيقظ أكثر ، واجعل انتباهك في قلبك . قاوم ، كي يكون قلبك نقياً في حضرة الله ، فلا تصل اليه الأعداء .  
و بطهارة قلبك ، يكون الله حاضراً في أعماق قلبك . كذلك اقتنع من كل قلبك ، بأن ما أصابك هو اختبار لك يرمي الى  
منفعتك ، و تدريبك على التمييز بين الأمور المختلفة . فأنت باتباعك هذا ، تناول الإكليل الحق المعد لك بمحبة المسيح .

## الفصل الثامن عشر

### من الضروري أن تبقى النفس سجينه ذاتها ان توقعت أن يوجد عليها الرب بالسلام

طالما أن إله الإلهية ورب الأرباب قد سُر أن يخلق نفسك لتكون هيكلًا وسكنى له، فما عليك إلا أن تحافظ عليها بدقة، فلا تخفّض من قيمتها فتعمل ما هو أدنى من مرتبتها. ليكن كل اهتمامك منصبًا على افتقاد الله لك. ولا تنسي أن الله لن يفتقرك إلا إذا كانت نفسك حبيسة ذاتها، أي إذا كانت بعماش عنيفة أو فرض أمور (حرمانات) طوعية، تختارها أنت لنفسك، بدون تدقيق و تمييز، وأيضاً طلب مناسبات للألم من أجل مجد الله. لهذا عليك أن تأخذ بنصيحة أبيك الروحي الذي يقودك كوكيل الله. فكن مطيناً له، و الله به ، سيوجهك إلى ما يريده، و إلى ما هو نافع لك. لا تقم بأي شيء من ذاتك، و بإرادتك، بل دع الله يعمل الكل فيك حسب ارادته. أما أنت فينبغي أن تتحرر من ذاتك و ان لا يكون لك رغبة ذاتيه، ولو كنت ذا رغبة حسنة، فلا تحزن ان تتحققت ألم لا. ولا تكتئب ان جاءت نتائج الامور على عكس ما ترجو. بل اقبلها كما لو كنت لا تتوقع شيئاً. ان هذا الاستعداد يحمل حرية القلب الحقيقة، بحيث أن القلب لا يعود مقيداً في شيء، ولا في الذهن، و لا في الإرادة، من جهة أي شيء، و ان قدمت ذاتك الله حرمة هكذا، و حبيسة في نفسها، فإنك ستتعالى العمل العظيم الذي سيحل فيها، فالله سوف يحيطك بسلام من عنده. و هذه الهبة ستكون اناة لك يحوي كل الموهب الأخرى حسب قول القديس غريغوريوس باللاماس في رسالته إلى الراهبة كسيني (الفيلوكاليا اليونانية ص 944): " يا لها من عزلة عجيبة، و يا لها من بيت للكنز الخفي الذي هو الله. ففي القلب يُسر الله أن يستمع إلى الحديث الذي ترفعه له. فهو يكلم قلبك. أيتها البرية والقفر الذي أضحي فردوساً. هناك فقط يسمح الله للإنسان أن يراه و يكلمه..." . و قال موسى: "أميل و أنظر هذا المنظر العظيم" (خروج 3 : 3). و في كلامه هذا، اشاره إلى العليةة في سيننا، فالقفر مكان طبيعي غني بالتأملات الروحية. فان أردت أن تستأهل هذا الأمر، فسر بدون حذاء، فالأرض تحتك مقدسة. "لا تحمل كيساً ولا مزوداً..." (لوقا 10 : 4). لا ترغب في أي من أمور هذا العالم. لا تتسلّم على أحد في الطريق كما أوعز اليشع لخادمه، و كما طالب الرب تلاميذه. ينبغي أن تكون أفكارك و ميولك وحبك، محمولة و مرفوعة إلى الله، لا إلى مخلوق، "دع الموتى يدفنون موتاهم..." 0 متى 7 : 22). أسلك وحدك في أرض الاحياء، فلا يكون للموت حظ فيك.

## الفصل التاسع عشر

### في المعنى الحسن في أعمال محبة القريب من أجل سلامك أنت

قال الرب في الانجيل: "لقد أتيت لأنقي ناراً على الأرض. فماذا أريد لو اضطررت" (لوقا 12 : 49)؟ الحب الإلهي ليس له حدود. انه كالله غير محدود. إلا أن محبة القريب ذات حدود، و ينبغي أن يكون لها حدود، فإن لم تحفظها، ربما تبعده هذه المحبة عن محبة الله، فتسقط لنفسك الضرر والأذى، و تلقي بك في الهلاك الأبدي. ينبغي أن تكون محبتك للقريب من كل القلب، إنما دون أن يسبب مثل هذا الحب ضرراً لنفسك. قم بكل أعمالك لا لغرض سوى أن ترضي الله فقط. فهذا سيحميك من الأعمال الخاطئة التي تملئها عليك محبة القريب، والأكثر أهمية بين هذه الاعمال هو أن يخلص قريبك. لكن حذار أن تكون هذه الاعمال مداعاة ضرر لنفسك. كن قدوة في الایمان المخلص والسيرة اللائقة بالله. و كما كان الرسل، هكذا كن أنت رائح المسيح، تجذب كل الناس اليه. لا تكن لجوجاً في كلامك مع الناس لثلا تتلف سلامك مع ذاتك و مع الآخرين. ليكن لك رغبة قوية نحو كل انسان، كي يعرف الله، كما عرفته أنت، و كي يسر بالخمرة الموعود بها مجاناً (اشعيا 55 : 1). ليكن فيك عطش الى خلاص الآخرين. إلا أن هذا العطش، ينبغي أن يقوم على حب الله، لا على غيرة جاهلة. و الله نفسه سيغرس هذا الحب، من أجل الآخرين في نفسك، ان كنت قد أفرغت ذاتك من أي شيء. هو نفسه سيأتي ليقطف الثمر. أما أنت فلا تبذر حسب هواك. ما عليك إلا أن تقدم الله أرض قلب تخلو من الحسک و الشوك، والله سيبذّر البذار فيها متى شاء و كيفما شاء. سوف تبذر البذرة في حينها. لا تنسى أن الله يريد نفسك حالية من أي شيء، كي يربطها بذاته، لذا دعه يعمل بك، ولا تسمح لإرادتك بالتدخل في ما يريد. لا تخطط لنفسك شيئاً ما عدا طلب رضي الله بالطاعة لمشيئته. رب البيت خرج ليطلب فعلة لكرمه حسب قول الكتاب. أما أنت فأبعد ذاتك عن كل هم و تفكير. ابتعد عن كل هم و قلق و كل ارتباط شهوانی أو أي أمر زائل. و الله سيلبسك نفسَه، و يهبك أموراً لا تقدر ان تدركها. انس ذاتك بالكلية و قدر الامكان، ولا تسمح بغير محبة الله في نفسك.

علاوة على ذلك، عليك أن تستخدم الدقة و الغيرة المعتدلة في علاقتك مع الآخرين، و الرب سيحفظك في سلام و هدوء. انتبه لثلا تخسر نفسك بركتها الأساسية، أعني سلام القلب أمام اهتمامات غبية من جهة منفعة الآخرين. أما المصدر الذي يغريك بهذه البركة فهو طاعة نفسك بالكلية الله مع ترك كل الأمور الزائلة. اعمل هذا لا طمعاً في مكافأة . لا تقبل

أي إيحاء يشير إلى أنك جدير بذلك. فالله نفسه ي العمل في كل شيء، ولا يتوقع منك إلا التواضع أمامه، وأن تهبه ذاتك معتقدة من الأرضيات كافة، وأن لا يكون في قلبك إلا رغبة واحدة هي أن تتحقق ارادة الله فيك، دائمًا، وفي كل شيء.

## الفصل العشرون

عندما تتخلى النفس عن ذاتها ، عليها أن تسلم أمرها لله

لتكن ثقتك بالله يا أخي ، فهو يدعو كل الناس قائلًا : " تعالوا إلى يا جميع المتعبين ... " (متى 11 : 38). اتبع الصوت الذي يناديك ، و في نفس الوقت توقع مجيء الروح القدس. ادخل بعين متأملة إلى بحر العناية الإلهية والمحبة. دع أمواج مشيئة الله تحملك ، دون أن تقاومها ، فتقودك سريعاً إلى مرفأ الخلاص و الكمال المسيحي. رب نفسك على هذا ، مرات و مرات كل يوم ، و اطلب الاختلاء الخارجي و الداخلي ، قدر المستطاع ، و ذلك كي ترکز كل قواك على الرياضات التي لها قوة خاصة تولد فيك محبة قوية لله ، كالصلوة و استدعاء الاسم الحلو ، اسم ربنا يسوع المسيح على الدوام ، و الدموع التي تفيض من حبه ، مع عبادة الله تولد الفرح و البهجة ، و أعمال روحية أخرى. دع هذه الأعمال تنمو فيك دون ارغام أو غصب للقلب ، لثلا تستنفذ ذاتك بغباوة عن طريق تمارين قسرية ، فتصبح صلباً قاسياً ، و عاجزاً عن اقتبال مفاعيل النعمة. اطلب نصيحة أهل الخبرة في هذا المجال. و بمعونتها جاهد كي تكتسب عادة التأمل في قداسته الله و احساناته الكثيرة. اقبل بتواضع قطرات العذوبة التي تسقط داخل نفسك من صلاحه الذي لا يوصف.

لكن لا تصر على الله طلباً لإيضاحات عن تحنته ، انما ابق بتواضع في عزلتك الداخلية ، منتظراً مشيئة كي تكتمل فيك. و عندما يهبهها الله لك دون توتر و جهد من جانبك ، فإنك ستختبر عذوبتها و ثمارها. أما المفتاح الذي به يفتح بيت الكنز الخفي الحاوي الهبات الإلهية ، من معرفة و محبة إلهية ، فهو التواضع و بذل الذات و تسليم النفس لله ، كل حين ، و في كل شيء. المفتاح نفسه يغلق باب الجهل و الفتور الروحي.

احبب قدر ما تستطيع ، و بهدوء ، كي تقف مع مريم عند أقدام المسيح ربنا فتচغي لما يريد أن يقول لنفسك. و احرص ألا يعيق العدو نفسك ، التي هي أكثر أعدائك ، من جهة هذا الوقوف بصمت أمام الرب. و عندما تبتغي الله بذهنك ، و ذلك كي تستريح فيه ، فلا ترسم له حداً ، أو حدوداً حسب خيالك الضيق و الضعيف. فالله لا يحد ، وهو في كل مكان ، و في كل شيء ، أو بالأخرى ، كل الأشياء قائمة فيه. انت ستراه في نفسك في كل مرة تطلبه بحرارة. الله نفسه يرغب في أن يكون معنا ، نحن أبناء البشر ، و ذلك كي يؤهلنا لذاته ، رغم عدم احتياجه لنا.

وعندما تقرأ الكتب المقدسة، لا تضع في ذهنك أن تطالعها صفحة بعد أخرى، إنما تأمل في كل كلمة. وعندما تحثك بعض الكلمات على الغوص إلى أعماق ذاتك، أو تملأ قلبك بالفرح، والحب الروحي، فتوقف عندها، فهذا يعني أن الله قريب منك. استقبله بتواضع، وبقلب مفتوح، كما يريد هو أن تشارك فيه. وان كان فشك في رياضاتك الروحية بسبب هذا ، فلا تقلق، لأن الغرض منه، كما من كل الرياضيات الروحية الأخرى ، هو أن تكون آهلاً للاشتراك في الله. وعندما تُمنحك ذلك، لا يعود هناك أي معنى من جهة الوسائل. بنفس الطريقة، عندما تتأمل في بعض الموضوعات الإلهية، لا سيما بعض الأمثلة من آلام ربنا يسوع المسيح، توقف عند الجزء الذي يلمس قلبك، واجعل انتباهاك عليه، لفترة أطول، وذلك كي يطول فيك هذا الشعور المقدس.

إن واحداً من أعظم عرائيل الاحتفاظ بسلام القلب يا أخي، هي أن تقيد ذاتك بقانون ثابت لا يتغير، بقاعدة ثابتة لا تتبدل، فطالع عدداً كبيراً من المزامير، وفصولاً عديدة من الأنجليل و الرسائل. فالذين يجعلون لأنفسهم نواميس بهذه، هم في العادة على عجلة من أمرهم، ويرغبون أن يتموا المطالعة، ولا يهتمون إذا كانت تلامس قلبه أم لا، أو إذا كان هناك تأملات روحية قد ملأت ذهنهم. وعندما يخفقون في إنهاء المطالعة، فإنهم يتآثرون وينزعجون، ليس لأنهم حُرموا من الثمار الروحية التي تتأتي منها، و التي يحتاجونها كي يخلقوا الإنسان الجديد في نفوسهم، إنما ببساطة، لأنهم لم يطالعوا كل ما عزموا على مطالعته. فاسمع لما يقول القديس اسحاق عن هذا: " ان كنت تريد أن تستمتع بقراءة الآيات وفهم كلمات الروح التي تتلوها، فضع جانباً الكميه، و عدد الآيات، كي ينشغل عقلك بكلمات الروح، حتى يمتليء من الذهول في القانون الروحي، فتتحرك روحك بالمفاهيم الرفيعة، و تندفع إلى تسبيح الله، أو إلى الحزن النافع للنفس. العمل الطائش لا يأتي بسلاح الذهن. و القلق من شأنه في العادة أن يحرم الذهن من فهم قوة التذوق، و يفرك الأفكار كالدوامة التي تمتص الحياة من الجسم كله مع دم أعضائه. و ان أردت بغيره و اخلاص أن تنهي سيرتك الحاضرة على نحو فاضل، فلا تجعل لنفسك هدفاً غير الله فترى أين يختار أن يعلن ذاته لك. وعندما توهّب هذا، أوقف كل نشاط ولا تتمسك به. انس كل شيء، ولتكن راحتكم في الله فقط. وعندما يختار القديس ان ينسحب منك، و يتوقف عن كشف ذاته لك في ظرف حاضر، عليك العودة إلى جهاداتك الروحية الاعتيادية، مواظباً عليها. و ليكن لك نفس الهدف، ألا وهو أن تجد معشوقك. وعندما تجده افعل كما قلت لك سابقاً، فتوقف حيث أنت، كي تستريح فيه فقط. فكر جيداً بما قلت لك، فهناك العديد من الذين انشغلوا بالعمل الروحي، إلا أنهم حرموا ذاتهم ثمار السلام التي تنقذهم. و هكذا حرموا من أعمالهم الروحية، لأنهم في الواقع \_ خوفاً من الخسارة ان فشلوا في القيام بها \_

اقتنعوا عن ضلال، طبعاً ، ان في هذا يكمن الكمال المسيحي. فتبعوا مشيئتهم الخاصة، واجهدوا أنفسهم و عذبواها كثيراً. إلا أنهم لم يفزوا بالهدوء. ولا بالسلام الداخلي، حيث يسكن الله ويرتاح.

## الفصل الحادي والعشرون

### اطلب الله فقط، لا التعزيات والمسرات

اختر على الدوام الأمور الصعبة والمؤلة، و لا ترحب في المسرات والتعزييات التي لا تجدي النفس. و ينبغي أن تكون الأعمال التي تقوم بها، بمثابة خطوة نحو التقرب من الله. لا تدع أياً من أعمالك عائقاً في السبيل إلى الله. ليكن الله كل فرحك، فهو الحلاوة ، و ما سواه، ليس سوى مرارة. قدم الله كل صعوبة تصادفك. أحببه، و سلم قلبك كله له بدون أي تفكير أو خوف. و هو سيجد الوسائل لحل كل معضلاتك، فيرفعك إن كنت قد سقطت. و بكلمة واحدة، إن كنت تحب الرب، ستثال منه كل بركة. لذا قدم ذاتك بالكلية، ذبيحة لله هادئة ، وبروح مسالمة.

و ما يعينك على التقدم في هذا السبيل، فيعتقدك من الضجر و الغموض، هو أن يجعل ارادتك في ارادة الله. و بمقدار نجاحك في ذلك، دون أن تترك لنفسك شيئاً، يكون العزاء و القوة التي تجنيها. لتكن ارادتك على اتفاق مع ارادة الله، فلا ترحب إلا بما يرغبه هو. وعلى الدوام، جدد العزم في نفسك كي ترضي الله في كل شيء. لا ترسم خططاً للمستقبل، فأنت لا تعلم ما يقدم لك اليوم (أمثال 27 : 1). لا تقيد ذاتك، بل حررها، فهذا لا يمنع أياً كان من العناية و الاهتمام بأمور تطلبها حاليه ووضعه، طالما أن مثل هذا الاهتمام هو على وفاق مع مشيئة الله، ولا يتعارض مع السلام الداخلي و التكريس لله و التقدم في حياة الروح. و في كل ما تقوم به، قرر أن تقوم بما في وسعك، و كل ما تحتاج إليه، و ما أنت ملزم به، ولا تكتثر بأي شيء آخر، إنما استسلم بتواضع لكل النتائج الخارجية، مهما كانت.

و ما يمكنك أن تقوم به على الدوام، هو أن تبذل ذاتك من أجل الله، لذا لا ترحب بغير ذلك. و كنتيجة لذلك، ستختبر الحرية ، و لن يقيّدك شيء مهما كان، فتكون إذ ذاك في سلام مع نفسك. و حرية الروح هذه تؤلف في ذاتها بركة عظيمة، كثيراً ما تسمع عنها في أعمال و كتابات القديسين. و هذا ليس سوى بقاء الإنسان الداخلي في ذاته، دون أن يكون فيه رغبة طائشة داخلية للبحث عن أمر هو خارج عنه. و إذا كنت تحفظ نفسك حراً، فإنك لا محالة ستشارك في الفرح الإلهي الذي لا يوصف، و الذي لا ينفصل عن مملكت الله القائم فينا، حسب قول ربنا: " مملكت الله في قلوبكم" (لوقا 17 : 21).

## الفصل الثاني و العشرون

### لا تخف عندما ينسحب السلام الداخلي أو يتوقف

الذين يسلكون طريق الله، غالباً ما يختبرون أوقاتاً يتوقف فيها السلام المقدس\_ والخلوة الداخلية الحلوة، والحرية التي يعيشون \_ أو ينسحب. و كثيراً ما تشير حركات القلب غيوماً من الغبار تحول دون رؤية الطريق الذي يسرون فيه. و ان حدث و صادفك شيء من هذا، فاعلم أن الله يسمح به من أجل منفعتك. هذه هي المحاربات التي من أجلها كافأ الرب أحباءه القديسين بأكاليل نورانية. لذا تذكر هذا، ولا تفقد شجاعتك في التجربة التي صادفتكم. و كما في آية ضائقـة أخرى، ارفع نظرك الى الله، و قل في قلبك: ”أيها الرب الهـيـ، انظر الى عبـدـكـ، و لـتكنـ ارادـتـكـ فيـ. أناـ أـعـرـفـ و أـعـتـرـفـ أـنـ كـلـمـاتـكـ حـقـ ثـابـتـ، وـ وـعـودـكـ غـيرـ كـاذـبـةـ، لـهـذـاـ فـأـنـاـ أـضـعـ كـلـ رـجـائـيـ بـكـ، وـ اـقـفـ فـيـ طـرـيـقـ بـثـبـاتـ“. هـنـيـئـاـ للنفس التي تسلّم للرب هـكـذاـ، وـ فـيـ كـلـ حـيـنـ تـصـادـفـ شـدـةـ أـمـ ضـيقـ. وـ انـ اـسـتـمـرـ الجـهـادـ رـغـمـ هـذـاـ كـلـهـ، دـوـنـ أـنـ تـتـمـكـنـ مـنـ دـمـجـ اـرـادـتـكـ بـإـرـادـةـ اللهـ، بـالـسـرـعـةـ المـطـلـوـبـةـ، فـلـاـ تـحـزـنـ، بـلـ تـابـعـ الـخـضـوعـ لـإـرـادـةـ اللهـ، لـأـنـكـ بـهـذـاـ تـفـوزـ بـالـنـصـرـةـ. اـذـكـرـ المـعـرـكـةـ التـيـ خـاصـهـاـ رـبـنـاـ يـسـوـعـ فـيـ بـسـتـانـ الـجـهـانـيـةـ عـنـدـمـاـ اـهـتـزـ أـمـامـ الـكـأسـ وـ صـرـخـ: ”يـاـ أـبـتـاهـ اـنـ أـمـكـنـ تـعـبـرـ عـنـيـ هـذـهـ الـكـأسـ“ (متى 26 : 39). إـلاـ أـنـهـ قـالـ بـعـدـ ذـلـكـ وـ بـكـاملـ اـرـادـتـهـ: ”لـكـنـ لـيـسـ كـمـاـ أـرـيدـ أـنـاـ بـلـ كـمـاـ تـرـيدـ أـنـتـ.“

عندما تكون في ضيق، لا تخطو أية خطوة، قبل أن ترفع عينيك الى المسيح المصلوب ربنا. و هناك ستجد بحروف كبيرة كيف ينبغي أن تتصرف في ضيقتك التي أنت فيها. انسخها لنفسك، لا بالكلمات بل بالأعمال. و أعني أنه عندما تحس بهجمات حب الذات، و التساهل معها، لا تكتثر، و لا تنسحب من المعركة بهلع و جبن، بل واظب على الصلاة محتملاً بتواضع، و مجاهداً كي تغلب ارادتك، فتثبت على تنفيذ مشيئته الله. و ان خرجمت من الصلاة بهذه النتيجة ، افرح . أما إذا أخفقت في بلوغ ذلك، فدع نفسك صائمة لا تذوق طعامها الطبيعي. لا تدع شيئاً يسكن في نفسك، و لو إلى حين، إلا الله و ايـهـ فقطـ. لا تـحـزـنـ وـ لـاـ تـكـنـبـ فـيـ أـيـ شـيـءـ. لـاـ تـنـظـرـ إـلـىـ شـرـورـ الـآـخـرـينـ، أـوـ إـلـىـ النـمـاـذـجـ الرـدـيـئـةـ. إنـماـ كـنـ طـفـلـاـ فـيـ الـبـرـاءـةـ، وـ الـبـرـيءـ لـاـ يـلـاحـظـ هـذـهـ، وـ هـكـذـاـ تـعـبـرـ أـمـامـهـاـ دـوـنـ أـنـ تـتـأـذـىـ.

### الفصل الثالث و العشرون

#### كثيرة هي حيل العدو التي بها يتلف سلامنا الداخلي. فيقظ

عدونا الشيطان يفرح، عندما تتبabil نفوسنا و تضطرب، لذا فهو يستعمل كل حيله الماكنة، كي يببل نفوسنا. ان أولى الوسائل التي يستخدمها في حربه، هي اثارة الذات. و ينتج عن ذلك، انسحاب النعمة التي تحفظ لنا سلامنا الداخلي. العدو يوحى لنا أن كل ما هو خير أو يبدو خيراً فيها، هي أمور اكتسبناها بعملنا و جهدنا. بهذا يبعد التواضع و البساطة عنا، و يحثنا على تقويم ذاتنا فوق قدرها، ناسبيين لأنفسنا الفضل في كل شيء، فنشعر إذ ذاك، أننا شيء مهم جداً، و هكذا يحجب عمل النعمة، بنسيانها، و التي بدونها لا يستطيع أحد أن يقول يسوع رب (1 كور 12 : 3). و هذه النعمة تعطى لكل المؤمنين. و حضورها هو علامة على أن الانسان مؤمن حقيقي. فالمؤمن عندما يقتبلاها، ولا يعود العدو يقوى عليه في أي شيء، مادامت النعمة فيه. لذا فالعدو يحاول بكل الوسائل أن يبعدا عنا، و أول ما يقوم به من أجل هذا الغرض، كما قيل، هو أن يبث بذار الفكر الذاتي، فيوحى لنا بأنه أمر مهم جداً. فالذى يرضخ للفكرة، يتلقى من العدو فكرة أخرى، (ايحاء)، مؤداها أن الانسان هذا هو أفضل من الآخرين، و أكثرهم غيرة، و أعماله أكثر غنى من جميع أعمالهم. و إذ ينجح العدو في سعيه، فإنه يبادر الى دفع هذا البائس الى دنيونة الآخرين و احتقارهم، مما يؤدي به حتماً الى الكبرياء. و كل هذا يمكن ان يحصل في القلب بلحظة واحدة. لكن رغم قصر الوقت، فإن عمل النعمة يتناقض تواً. و ينتج عن هذا الزهو الانتفاخ، ضعف في العبرة الروحية، و ثورة الأفكار و انتفاضتها، و التي تكون في البداية فارغة، لكنها تصبح فيما بعد شهوانية، و يصاحب ذلك عاصفة هوجاء في القلب، فيتبدل السلام الداخلي. لكن حالة بهذه لا تدوم، و إذا تذكر من يعاني هذا، و عاد الى ذاته ممتلئاً ندامة و انسحاقاً، فإنه يتوب، و بالصلة يعيد الهدوء الى سابق عهده. و هكذا يعاقب ابليس، إلا أنه لا يخرج من القلب، فهو يعود مجدداً بالإيحاءات نفسها، و للغرض ذاته، و أعني ذلك السلام الداخلي، و تدميره.

و إذ تعلم هذا يا أخي ، فإنك لكي تصد هذه الأفكار المعادية، ما عليك إلا أن تكون يقظاً على نفسك، و ساهراً عليها، حسب كلمات الرب : " اسهروا و صلوا لئلا تدخلوا في التجربة" 0 متى 26 : 41). اسهر على ذاتك بكل جهاد و حرص، لئلا ينسى العدو اليك ، و ينهب متعاك، فيحرمك من هذا الكنز العظيم الذي هو السلام الداخلي و هدوء النفس. العدو يسعى الى تدمير سلامك، فهو يعلم جيداً أنه عندما تكون النفس في اضطراب، يقدر أن يقودها الى

الشروع، بسهولة، عليك أن تحرس سلامك و تسهر عليه. فالعدو لا يقوم عليه عندما تكون في سلام. النفس الحاملة لهذا السلام، تكون مستعدة لكل عمل صالح، بلا صعوبة، و تستطيع أن تغلب كل العراقيين. و لكي تنجح في ذلك، حاول أن تراقب العدو قبل وصوله، و اقتراب العدو هو الفكر القائم على الاعتداد بالذات، اجعل ذلك قاعدة لك بها تدرك متى يدnu العدو منك ويلقي اليك باي فكر، ليقلل من ثباتك و اقتناعك بأن الخير يأتي من الله، و أنه يمكنك النجاح في أي شيء دون الاعتماد على النعمة، و ليجعلك تجعل كل ثقتك فيه. فعليك الانتباه من هذه الافكار. ارفضها و اطردها عنك. ان عمل الروح القدس فينا هو في كل حال من الاحوال هو أن يقود نفوسنا الى الاتحاد بالله، و ي Prism فينا محبته الحلوة، مع الثقة المغبوطة و الاعتماد الكلي عليه. و كل ما هو عكس ذلك، فهو من العدو . العدو يستخدم كل الحيل و الوسائل التي يقدر أن يخترعها ليثير النفس. فهو يبث في القلب مخاوف مختلفة، و يزيد من ضعف النفس، و ذلك ليضعف فيها الاستعدادات الضرورية، و يحول دون فرحتها بالاعتراف كما يجب، وفي المناولة، أو الصلاة. بل يجعل النفس تعبر في هذه كلها، بدون جسارة متواضعة و محبة، انما بخوف و هلع و اضطراب. انه يجعل النفس تتلقى بياًسٍ مشاعر الفقر الروحي (الديني)، محاولاً اقناع النفس بأن هذا الفقر ليس بسماح من الله لمنفعتها. ان معنى ذلك أن جهود النفس و مساعيها كلها لا معنى لها، فخير لها الاقلاع عنها، وهكذا تأتي النفس إلى اليأس و البلبلة بشكل هائل، فيقع الانسان في النهاية، تحت وطأة أن كل ما يقوم به ، لا يجدي ولا ينفع ، و ان الله قد نسيه و تخلّى عنه بالكلية.

ولكن من الواضح أن هذا افتراء. فالنفس قد تعرف الجفاف و الفقر في المشاعر الروحية و العذوبة الدينية. لكن رغم هذا، فإنها قادرة على الأعمال الحسنة إذا تحركت بإيمان بسيط، و تسلّحت بالصبر المقدس و الثبات. ولكي أساعدك على نحو أفضل، فأحول دون تضررك بأن الله يرى هذا حسناً و لمنفعتك، أو يسمح لك بهذا الفقر في الاحساس الروحي و العذوبة، سوف أصف لك في الفصل التالي البركات التي تأتيك بفعل صبر متواضع على الذين يظهرون الصبر وقت الجفاف أو برودة القلب. و كي تتعلم كيف تحتفظ بسلام نفسك، فلا يبتلك الحزن عندما تعاني هذه الحالة أو أي تيار فكر مضطرب، و ضغوط شهوانية.

## الفصل الرابع والعشرون

### على المرء أن لا يضطرب أمام فقر الأحاسيس الروحية أو التجارب الداخلية الأخرى

رغم اني تناولت في فصل سابق حرارة القلب وبرودته، و الحزن الناجم في النفس من جراء البرودة هذه، و أعني الحزن و الجفاف في القلب، أو الفقر في الفرح الروحي و عذوبته، إلا أنه من النافع للنفس جداً أن نقبل و نحتمل هذه بصبر و تواضع. و ان كان الانسان يعرف هذه الحسنات من قبل، فهو بكل تأكيد لن يعتبر الأمر ثقلاً أو حزناً. فهو لن ينظر إلى فقر التعزيزات الروحية على أنها علامة غضب الله، إنما سيراها عملاً من أعمال محبة الله الخاصة به، و يقبلها بمثابة رحمة.

و قد يكون في الواقع قد نال التعزية من الحقيقة الواضحة ان مثل هذه الحالات عرفها أناس تركوا أنفسهم برغبة من أجل خدمة الله، و تحاشوا ما يسيء اليه، و عرفوا هذا اليه فقط منذ ان اقتربوا من الله، إنما أيضاً بعد أن ساروا مع الله زماناً طويلاً، و بعد أن تنقى قلوبهم بالصلة المقدسة و التوبة، و بعد أن شعروا بحلوة روحية خاصة و فرح و غبطه دفعت بهم الى بذل ذواتهم حتى المنتهي. من هذا يتبيّن بوضوح أن الضيقة شرف و غذاء لا يقدر بثمن، يتناوله الذين أحبهم الله و دعاهم. و لئن كانت مذاقتها مرّة، إلا أن فيها نفعاً عظيماً هو مبهم الآن. عندما تكون النفس في هذه الحالة من الجفاف، فتذوق هذه المرارة، و تتلقى التجارب والأفكار التي مجرد التفكير فيها يجعل المرء يرتجف، كونها تسمم القلب و تقتل الانسان الداخلي. لكن عندما تجد النفس أنها في هذه الحالة، فهي تتعلم أن لا تثق بذاتها، و لا تعتمد على نفسها، و هكذا تجني التواضع الحقيقي الذي يفرح رب بامتلاكنا له. بالإضافة الى ذلك، فإن النفس ستصبح ملهمة بالرغبة لاكتساب افضل اشكال الحب غيره من أجل الله، مع انتباه شديد على الأفكار، و شجاعة في احتمالها مع التجارب، بدون ضرر، فتخرج من هذه الحرب، بحواس مدربة على التمييز بين الخير و الشر كما قال الرسول بولس (عبرانيين 5 : 14). لكن طالما ان هذه الثمار محجوبة عن رؤية النفس، فإنها تنزعج، و تتحاشى الشدة و المرارة لأنها لا ترغب أن تحرم التعزيزات الروحية، حتى ولا الى حين.

وتعتبر كل رياضة روحية غير مقرونة بها، مضيعة للوقت، وجهداً لا فائدة منه.

## الفصل الخامس والعشرون

### لخيرنا هي كل تجربة

كي تفهم أفضل، ان كل التجارب عموماً، هي من الله لفائدتنا، انتبه لما سأقوله: ان نزوع طبيعة الإنسان الفاسدة، هو نحو الكبراء، وحب الذات، وحب الظهور، والتباكي بالذات، والتمسك بالرأي، والقرار الذاتي. وكل انسان يريد لنفسه قيمة تفوق قدره. هذا هو الاعتداد بالذات. وأبينا السماوي المحب في تدابيره الحكيمية من أجلنا، لاسيما الذين جعلوا أنفسهم في خدمته، فإنه يسمح بالتجارب، ان تهاجمهم (أي نحن)، و ذلك ليكونوا في حالة يصبح معها من الممكن الهرب من الخطر المحقق، خطر الاعتداد بالذات، وهكذا تُجبر على الوصول الى معرفة متواضعة عن ذاتنا، والرب فعل هكذا مع بطرس حين تركه لفكرة ثلاثة مرات، و ذلك كي يتحقق من ضعفه، فلا يتكل على ذاته. كذلك عند القديس بولس خبرة مماثلة بعد أن اختطف الى السماء الثالثة، وأعلنت له الاسرار الالهية التي لا ينطق بها، و هكذا في النهاية حمل يقيناً صورة حقارته و هشاشته، فشرع ينمو في التواضع ولا يفتخر إلا بضعفه لئلا ينتفخ و يتكبر بداعي الاعلانات الكثيرة التي كشفها له الله "... و لئلا ارتفع بفترط الاعلانات، أعطيت شوكة في الجسد..." (كور 12: 7).

الله بحنانه يسمح للتجارب أن تهاجمنا، و ذلك بسبب هذا النزوع المريض فينا نحو التعالي. وكثيراً ما تكون التجارب مؤلمة حقاً، و هكذا، نعرف ضعفنا فنتواضع. في هذا يتجلّى حب الله لنا و حكمته. فإذا لالنا و تواضعنا ، نجني خير البركات، عبر أمور تبدو مضرّة، إلا أن التواضع هو أكثر الأمور فائدة لأنفسنا، التجارب تعطي لنا أحياناً لتعلمنا التواضع. و كل من يخدم الله يحدث أن يذوق الحالات التالية: الجفاف، نقصان في العون الروحي، فقر في التعزيزات. و كل هذه هي لكي نتعلم التواضع، عن طريق التفكير بأن هذه كانت بداعي خطایانا. المتواضع هو على يقين أن نفسه هي المقصّرة في كل الأمور أكثر من كل النفوس. ان هذه أيضاً هي لكي ننكر أن مثل هذه الضيقات لا تأتي إلا للمتروكين الذين تخلّى الله عنهم. و هنا فهو متروك عن استحقاق. من هذه الفضيلة يتولد الخير للمتواضع. فمن يظن انه شيء ذو شأن، لكنه ذاق مرارة الدواء المرسل له من فوق، فإنه سيبدأ في اعتبار نفسه الأكثر سماحة و خطأ في العالم، و انه غير مستحق حتى أن يدعى مسيحيًا. و حقاً ما كان سيصل الى مثل هذا الرأي عن نفسه فيختبر التواضع العميق، ما لم يسمح الله بهذه التجارب و هذه الكربة القلبية و الأسى الداخلي فالتجارب نعمة كبيرة يظهرها الله للنفس في هذه الحياة.

و النفس التي تسلم له أمرها، تتداوي حسب مشيئتها. فهو وحده يعرف الدواء الشافي و الناجع و الضروري لشفاء النفس و اعادتها الى الحالة الجيدة.

بالإضافة الى هذه الشمار التي تجنيها النفس بالتجارب و الفقر و التعزييات الروحية، هناك ثمار أخرى أيضاً فالإنسان الذي يتضاع قلبه بهذه الأحمال الثقيلة المرهقة، يتقوى داخلياً، و تتجدد طاقته وغيرته، فيسرع نحو الله، طالباً منه العون، و يجاهد ايضاً كي يشفي حزن نفسه، و يطرد المراوة من قلبه، و يتمكن من تحاشي مثل هذه العذابات في المستقبل. و هكذا يوطّد العزم على السير من الآن في درب الحياة الروحية، فينتبه بكل قوته الى حركات القلب، و يتحاشى حتى ظل الخطايا، و التراخي القادر أن يفصله عن الله، و أن يفصل الله عنه، بأي شكل من الأشكال. و هكذا فالأسى الذي اعتبره مضره له، و لا يخدم أهدافه، أصبح له حافزاً على طلب الله بحرارة، فبات يتتجنب بغيره مشتعلة، كل ما لا يرضي الله. و باختصار فإن كل ما تحتمله النفس من حزن و ألم ابان التجارب الداخلية، مع فقر في التعزييات و البهجة، ما هي إلا أدوية ناجعة مطهّرة يستخدمها الله بداعي حبه و حنانه كوسائل لتطهير النفس، ان هذه احتملتها بصبر و تواضع و الأوجاع هذه تعطي لم يحتملها بصبر، اكليلاً لا يؤخذ، إلا بصبر. و الإكلييل يكون أكثر كرامة كلما كانت الأوجاع أكثر شدة و قد احتملها القلب.

من الواضح بعد كل هذا، انه لا ينبغي أن نعذب نواتنا كثيراً أو أن ننزعج بمرارة من التجارب التي تهاجمنا أو من تلك الداخلية التي سبق الكلام عنها، فهذا موقف من كانت لهم خبرة قليلة في هذا المضمار.

و أمثال هؤلاء يعتبرون ما يأتي من الله كأنه من الشيطان، أ و من خطاياهم و نواقصهم، و يخلطون بين علامات الحب الإلهي، و تلك التي للغضب الإلهي، فيفسرون احسانات الله و خيراته، لطمات و ضربات تنزل عليهم بسبب غضب الله. و يعتبرون كل ما عملوه و يعملونه، عدمي النفع و لا يجدي. و ان ما خسروه، لا يمكن أن يعوض. أما إذا اعتقادوا و آمنوا ان هذه التجارب تأتي اليهم بالفضائل، و تزيدوها لهم، عندما يكون قبول النفس للتجارب بصبر و تواضع، فيتأملون بشكر. و إذا آمنوا ان هذه التجارب هي من ترتيب الله و محبته لهم، فانهم لن ينزعجوا و لن يفقدوا سلامهم الداخلي رغم ضيقهم في التجارب الكثيرة، و رغم الأفكار المعيبة والجفاف في صلاتهم و رياضاتهم الروحية الأخرى. فكل هذه من شأنها أن يجعل نفوسهم تتواضع أكثر في حضرة الله، و تجعلهم يعقدون العزم في قلوبهم على اتمام مشيئة الله وارضائه في هذا العالم. فهذه هي السبيل التي يرضي عنها الله. كذلك فانهم عازمون على الجهاد بكل الوسائل المتاحة

لهم، كي يكونوا في سلام و سكينة لدى اقتبال كل الامور التي تحل بهم، كما لو أنها كانت من يد الآب السماوي الذي منه أيضاً الكأس المر الذي ينبغي أن يشربواه الآن و في هذه اللحظة الحاضرة. و سواء كانت التجربة من الشيطان أو من آخرين، أو نتيجة لخطاياهم، فالامر يعتمد على الله، و منه يأتي، لمنفعتنا و خيرنا، أو ربما ليكي يمنع عنا تجارب قد تكون أكثر خطراً من هذه.

## الفصل السادس والعشرون

### علاج الغم الناجم عن مخلفات صغيرة و ضعفات

إن حدث و سقطت في إحدى المخالفات بالقول أو بالفعل. على سبيل المثال ان اضطررت لحدث عابر ، أو أنك انتقدت أحداً، أو سمعت انتقادات من آخرين، أو دخلت في جدل حول أمر ما ، أو كنت في بعض الأحيان عديم الصبر، أو أنك اضطررت و شككت بالآخرين، أو أنك أهملت أمراً ما، فينبغي أن لا تضطرب و يبتلعك الحزن المفرط و تيأس مما فعلت.

إنما قبل كل شيء عليك ألا تجزع من الاضطراب بالأفكار السوداء المحزنة المتعلقة بك ، و أنك لن تتمكن من التحرر منها، أو أن ارادتك ضعيفة و عاجزة عن العلم حسب رضى الرب. أو أنك لا تتقدم في درب الله كما يجب. لأنك كلما فكرت هكذا، فإنك سترهق نفسك بأعباء أخرى و بآلاف المخاوف الناجمة عن ضعف القلب و الحزن. و ماذا بعد؟ أنت تخجل من الوقوف بجسارة في حضرة الرب. فقد أثبتت له عدم ولائك له. إنك تهدر وقتك إذا كنت تفحص مقدار الوقت الذي قضيته في كل مخالفة، سواء كنت متعلقاً بالمخالفة أو بدأت ترغب بها أو ترفضها ، و سواء كنت رفضت هذه الفكرة أم لا ، فكلما زاد تعذيبك لذاتك كلما عمل هذا على تعكير نفسك أكثر. و كلما عظم نتيجة لذلك ، حزنك، وضعفت فيك الرغبة بالبوج بخطيائك. حتى ولو ذهبت للاعتراف، فإنك تقوم بذلك عن خوف و اضطراب، و بعد الاعتراف لا تجد سلام نفسك أيضاً. إذ يبدو لك ان هناك اموراً كثيرة لم تبح بها. فتتمرر حياتك و تتعكر، و تصبح قليلة الثمر و تكون أنت كمن يضيع الوقت سدى. كل هذا يحصل لنا عندما ننسى ضعفنا الطبيعي و ننسى الهدف الأوحد الذي يجب أن تراه النفس و بكلام آخر، ننسى أنه عندما تسقط النفس في واحدة من الخطايا الممكن غفرانها، ينبغي أن تتوجه إلى الله برجاء و توبة متواضعة، بدل أن تعذب ذاتها بحزن مفرط و مرارة مع ضيق.

أقول هذا عن الخطايا التي يمكن أن تغفر. لأن هذه فقط يمكن تبريرها في النفس التي اعتنقـت الحياة الرصينة التي وصفـت هنا. و هنا نخاطب الذين يحيـون حـيـاة روـيـحة و يجـدون في النـمو بها باـذـلين كل جـهـد لـتحـاشـي الخطـايا المـمـيتـة.

أما الذين لا يـحيـون حـيـاة روـيـحة رـصـينـة بل يـتـعـامـلـون معـ الـحـيـاة كـيـفـما اـتـفـقـ، ولا يـهـتـزـونـ عندـما يـسـيـئـونـ إـلـى الله بـخـطـيـئـةـ مـمـيـتـةـ، فـهـمـ بـحـاجـةـ إـلـىـ نـصـيـحةـ أـخـرىـ. فالـعـلاـجـ المـذـكـورـ اـعـلـاهـ، لـيـسـ لـمـثـلـ هـؤـلـاءـ. إذـ يـنـبـغـيـ أـنـ يـحـزـنـواـ بـعـمقـ بـكـلـ خطـاياـهـ بـدـوـنـ شـفـقـةـ أـوـ تـسـاـهـلـ مـعـ النـفـسـ. وـ يـنـبـغـيـ أـنـ لـاـ يـأـلـواـ جـهـداـ مـهـماـ كانـ، لـشـفـاءـ نـفـوسـهـمـ.

وفي التعديات اليومية الصغيرة، ينبغي أن تكون التوبة مفعمة بثقة ثابتة بالله، لا سيما في الخطايا الكبيرة أكثر منه في الصغيرة، والتي كثيراً ما يسقط فيها خدام الله الغيارى أنفسهم. فالحزن القائم على توبة والذي يجعل القلب يضطرب ويجزع، لا يمكنه أن يسترد الرجاء بالله إلى النفس، إلا إذا صاحبه ثقة في صلاح الله ورحمته. وينبغي أن يمتلئ القلب على الدوام بمثل هذه الثقة لا سيما في الذين يرغبون الوصول إلى أعلى درجات الكمال المسيحي. إلا أن كثيرين ممن دخلوا درب الحياة الروحية، يفشلون في الانتباه إلى ذلك، فلا يتقدموه، لا بل يضعف قلوبهم ويكف عن المضي إلى الأمام. وهذا لا يعودون صالحين لاقتبال البركات من النعمة التي وزعها رب على السائرين في هذا الدرب، والتي في العادة تكون من حظ الذين لا يتراخون بل يسيرون إلى الأمام بثبات. لكن قبل كل شيء، على الذين يتعرضون مثل هذه الأمور أن يتوجهوا إلى أبيهم الروحي أو إلى انسان خبير في الحياة الروحية، وفي نفس الوقت يتضرعون إلى الله بثقة كي يكشف لهم الحقيقة و يمدthem بالحل المقيد لمشاكلهم و اضطراباتهم. وهناك يستريح المرء عندما يسمع كلمتهم.

## الفصل السابع والعشرون

في انه ينبغي على الانسان المضطرب و الحزين ، أن يوطّد السلام في نفسه على الفور.

في كل مرة تسقط في هفوة قابلة للغفران ، حتى و لو حصلت ألوف المرات كل يوم ، فبمجرد أن تلاحظ ذلك ، لا تزعج نفسك و نهدر وقتك سدى. بل تواضع على الفور ، و كن واعياً لضعفك. بعد ذلك توجه إلى الله برجاء ، و ادعه من أعماق قلبك قائلاً : "أيها الرب الهي" لقد فعلت هذا لأنني كما أنا ولا يُرجى مثّي شيء سوى هذه المخالفات و ما هو أسوء منها. فان تخلّت عن نعمتك ، أكون لوحدي. أنا حزين جداً عما فعلت ، لاسيما وأن حياتي تخلو من البر ، و أنا عاجز عن الاستجابة لعنایتك بي. ها أنا أسقط المرة بعد الأخرى. سامحني و اعطني القوة كي لا أهينك بأي شكل من الأشكال. أنا راغب من كل قلبي أن اصنع مشيئتك ، و أرضيك ، و أطيعك في كل شيء. بعد هذه الصلاة ، أترك نفسك و لا تضايقها بالأفكار بما إذا كان الله قد سمع لك و سامحك أو انه لم يسمع ، فالرب قريب و يسمع كل تنهادات خدامه. لذا أهدا على هذا اليقين و الثقة. و عندما تسترجع سكينتك ، عاود متابعة أعمالك ، كما لو أن شيئاً لم يحدث.

عليك أن تقوم بهذا أكثر من مرة ، بل مئة مرة إذا دعت الحاجة و في كل لحظة ، لتكن المرة الأخيرة مليئة بالثقة كالألوي. فأنت عندما تفعل ذلك ، فإنك تعبّر عن اكرام لصلاح الله الذي لا يحد. و الذي ينبغي أن تراه محبة غير مجددة منسوبة علينا. و هكذا لن تتوقف عن التقدم في حياتك ، بل تتبع الى الأمام دون أن تهدر وقتك و عملك.

هناك طريقة أخرى تحفظ بها سلامك الداخلي عندما تر�� تحت ثقل هذه المخالفات ، و هي التالية: ادمج الفعل الداخلي و الذي هو ادراكه لعدم جدارتك و استحقاقك ، بالتواضع أمام الله ، مع تذكر حار لراحمه الإلهية العظيمة ان تشكره و تمجده. بعد ذلك اشكره و مجده بحرارة و من أعماق النفس ، فشكر الله و تمجيده ، هي أسمى آيات التعبير عن الاتحاد الحي به و فيه. حاول الاستفادة من زلتك ، و اجعل ذلك يُعينك على الارتقاء إليه. ليكن هذا في ذهن الذين يضطربون و يتعرّدون نتيجة للتفكير بالمخالفات التي يرتكبونها . فهي تؤهّلهم أن يروا مقدار عمّاهم في المسألة التي امامهم ، و كم انهم يتأنّدون بسبب حكمهم الخاطئ مثل هؤلاء توجّه هذه النصيحة الأخيرة. فهي تضع في أيدينا المفتاح الذي به تستطيع بمدة النفس أن تفتح بيت الكنز العظيم ، بيت الروح. و تستطيع بمدة قصيرة ، أن تفتح بيت الكنز العظيم ، بيت الروح. و تستطيع بمدة قصيرة ، أن تفتحني بنعمة ربنا يسوع المسيح الذي له المجد و الكرامة و العبادة مع أبيه الذي لا بد له و روحه القدس الآن و كل أوان و إلى دهر الاداهرين آمين.

## ملحق من اعداد الأب منيف حمسي

### القديس ثيوفان الحبيس

إنه المطران ثيوفان الحبيس واحد من ألمع كواكب البرية الروسية. كاتب مميز في ميدان النسخ والتصوف. طبّقت شهرته الآفاق ليس فقط في حدود الاتحاد السوفيافي، بل في كل مكان من العالم أيضاً. عاش القديس ثيوفان حياة العمل والثيوريا. كان رجل صلاة ورجل خدمة. خدم النفوس بالوعظ والارشاد. إنه شخصية فذة وفريدة. في العالم كان اسمه جورج غوفوروف. ولد في العاشر من كانون الثاني سنة 1815 في قرية صغيرة وادعة تدعى شرنافسك في بطاح الاورال الواسعة والحقيقة. أبوه يدعى باسيل، كان خطيباً مفوحاً عرفته القرية وكل ضواحيها. لكنه رغم لمعان موهبته، اتسم بالتقوى والوداعة. أما والدة القديس ثيوفان، فكانت امرأة تقطر وداعية وتقوى وطهارة، وكانت على قدر كبير من العمق الديني والروحي. كانت طفلة ثيوفان حلوة وجميلة. فقد نما وترعرع في وسط يعبق بالبخور والصلوات. أحب الكنيسة من قلب الأسرة. عرفها في البيت قبل أن يعرفها ويختبرها خارجاً.

سنة 1823 أرسله والده إلى المدرسة الاكيليريكية في (ليفني) و هناك لمع واستبانت مواهبه و طاقاته العقلية، إلى جانب العذوبة الروحية التي لمسها فيه كل من تقرب منه. و فسنة 1829، أرسل إلى السيمinar في بلاد الاورال. وهناك تعرف على الارشمندريت ايسيدوروس نيكولسكي الذي سيصبح فيما بعد أسقفاً على بطرس برج. أعجب ثيوفان بالكثيرين، إلا أن قلبه انجدب إلى استاذ الفلسفة اوستروموزلن斯基.

في حياته الأكademية أحب ثيوفان الفلسفة و علم النفس كثيراً. وفي سنة 1837، عندما أتم دراسته بامتياز، في السيمinar المذكور، أرسل إلى كلية اللاهوت في كييف. و هناك لمع جداً كعهدنا به في الاورال. أعجب ثيوفان بمعلميه كثيراً لا سيما منهم الارشمندريت ديمتري موريتوف والأسقف اننوست (بريء). لكن رغم حبه للعلوم و براعته فيها وتفوقه بشهادة رفاقه وأساتذته، إلا أن جزوة النار الالهية كانت تلتهب فيه، فكان في اعمقه حنين إلى السيرة الرهبانية. لقد اراد أن يصبح راهباً أحب الرهبنة. أعجب بهدوء الأديار. أنهى علومه اللاهوتية في كييف في 15 شباط 1841 وله من العمر 26 سنة و تعرف في تلك الأثناء على رفيق الدراسة بولفاكوف الذي سيصبح فيما بعد واحداً من ألمع لاهوتني روسييا و العالم في التاريخ الكنسيي و اللاهوت العقائدي. وفي إحدى اللقاءات التي جمعته برجال الروح، تحلّق رتل من الشباب الأيافع حول الأب الراهب بارثانيوس فألقى فيهم كلمة عساها كما أراد، تكون زاداً لحياتهم بعد

الدراسة. و مما جاء فيها: أيها الرهبان الأيافع. أنتم أصحاب علم و معرفة، وقد غرفتم منها الكثير، لكن لا تنسوا ان اهم عمل يطلب منكم هو الصلاة. صلوا على الدوام بالفم و الذهن و القلب. لا تتكلوا قبل بلوع مثل هذه الصلاة . و وكان بشهادة ازمير نوف، ثيوفان قديسنا حاضراً، فشعر من أعماقه و كان الكلمة له دون سواه. في ربيع 1841 عُين الأب ثيوفان رئيساً على السيمinar الاكليريكي في كييف، و انيطت به مادة علم المنطق، فأعطي دروساً فيها الهبت العديد من القلاميد. كذلك انيط به كرسي "علم النفس". و فيما بعد عُين مشرفاً من قبل الكنيسة على سيمinar نوفغورود . و في سنة 1855 صار خطيب سيمinar اولونيتز. كانت شخصية البروفسور ثيوفان لطيفة و قريبة من القلب، فقد ألهب قلوب تلاميذه حماسة الى العلم و التقوى، فكان مثالهم و قدوتهم في الأخلاق. و أثناء عمله في حقل التعليم، و في سنة 1847، قررت الحكومة الروسية ارسال بعثة الى اورشليم لدراسة أحوال الارثوذكسيين في الشرق الأدنى، بغية ارساء قاعدة تربوية روسية هناك. كان الأب ارشمندريت بورفيريوس او زبنسكي رئيساً لهذه البعثة، و كان ثيوفان أحد اعضائها. حطّت البعثة في اورشليم إلا أن أعضاءها طافوا تلك الديار طولاً و عرضاً، فجابوا سوريا و مصر، و عبروا بريمة سيناء مروراً إلى جبل آثوس. وكانوا في تجوالهم يتعرفون على المكتبات الشهيرة في كل مكان و يدونون معلوماتهم عنها. وكانوا في نفس الوقت يطالعون المخطوطات القديمة التي كانت تقف في طريقهم أما حصة ثيوفان، فكانت الإقامة في ربوع دير القديس سaba، فعكف على العمل على تصنيف كتابات الدير و مخطوطاته، بالإضافة الى نفس المهمة في دير سينا. كذلك زار أدياراً قبطية ما تزال حتى الآن تذكر له هذه البركة و ترتفع نعمها و شفاعاتها. لكن لسوء الحظ لم يتمكن من زيارة جبل آثوس، فقد حصر رئيس البعثة زيارة آثوس بنفسه، تعرّف ثيوفان على الاكليريكيين في تلك الديار. و أدرك كما جاء في مذكراته أنهم فقراء، و في غاية من البؤس، و كانوا على حالة مزرية من الجهل، و مع هذا كانوا على شيء من الاعتزاد بالنفس يميل الى الكبراء. أما الاكليروس الفلسطيني، فكان يحب أكل اللحوم و التدخين و ما أشبه، فأعثر ثيوفان لما رأى . كذلك درس ثيوفان أحوال الارساليات الكاثوليكية و البروتستانتية في الشرق، لا سيما في الأرضي المقدسة. و أثناء اقامته في هذه الربوع، بادر الى تعلم الفرنسية و اليونانية و العربية و العبرية، إلا أن اندلاع حرب القرم عجلت في عودة البعثة الى الوطن. و في طريق العودة عرج الجميع على ايطاليا و المانيا و قد احب ثيوفان فلورنسة كثيراً و البندقية و روما. و لدى اقامتهم في ايطاليا قام الباب بيوس التاسع باستقبال البعثة، و شكر اليهم من أمر و سلوك نيقولا الأول الذي كان قد تطاول بكلماته على كرسي روما و عبث ببعض الادارات الكاثوليكية على هواه. في سنة 1857 عُين ثيوفان مندوباً للكنيسة الروسية في استنبول أثناء المسألة البلغارية. و كان موقف ثيوفان أن البلغار

كانت على حق في أن يكون لهم أساقفة لهم و من أعوانهم فما كان من المجمع الروسي إلا أن وافق على موقف ثيوفان. في 1 حزيران 1859 ، وكان له من العمر 44 سنة تم انتخابه أسقفاً في لافرا القديس الكسندر نيفسكي ، و انيطت به رعاية منطقة تامبوف ، التي ستلد من أحشائها بعد سنوات القديس سلوان الشهير و الذي أعلنت قداسته في ايلول 1988 بعد 50 سنة تقريباً على وفاته. أقام الأسقف ثيوفان في تلك الأماكن أربع سنوا نقل بعدها إلى منطقة أكثر أهمية تدعى فلاذيمير. و هناك أقام ثلاث سنوات كان فيها مثال الخادم الأمين للرب. أثناء خدمته الرعائية هناك عمل على تأسيس مدرسة للبنات و أخرى للصبيان. كذلك أسس قطاعاً منظماً عمل على تحسين أحوال الكرازة و البشاره و الرفع من مستوى الالكتلريوس ، و كان هو أحد المحاضرين فيه. جاهد كي يعلم الناس الطريق إلى الخلاص بال المسيح ، وكان أستاذًا لاماً في الصلاة، أحبها و حبّ الكثيرين بها، فكان الاسقف الأب. عرف كيف تكون الرعية عائلة للكاهن و للراعي. وهو نفسه قام بتدريب الناس و يحثّهم على الحياة البسيطة و التي كان أيضاً أستاذًا فيها. فكان لباسه بسيطاً و طعامه بسيطاً أيضاً، و كان يتناول وجبة واحدة في اليوم. كان أخاً للكهنة، و رفيقاً للمتألين و للحزاني و للأراميل يستمع الجميع فرداً فرداً، بصبر انقطع نظيره. في ربيع 1866 رفع الأسقف ثيوفان رسالة إلى المجمع يطلب فيها السماح له بالتقاعد و الاعتزاز في دير فيشا في ضواحي تامبوف في 17 حزيران من السنة ذاتها، وافق المجمع على طلبه، لكنه أوكل إليه رئاسة الدير الجديد (فيشا). فقام ثيوفان بقداس آخر في أبرشيته قبل التوجه إلى دير فيشا، فاحتشدت لوداعه جموع غفيرة من المصلين و المصليات، و بدأ الجميع بالبكاء و كأنهم في مأتم جنازة. أما هو فكان له كلمة مؤثرة جداً يتسع المجال لو نقلت إلى العربية، لكن نذكر منها بعض المقتطفات: يا أخوتي، أرجوكم لا تجرحوني حباً بالرب. لا تنزعجوا لرحيلي. أنا أتركم ليس لأنني أريد ذلك، كما و لست مرغماً على ذلك. إن محبتكم لي، لا تسمح باستبدالكم بقطيع آخر. إنما اسمحوا لي أن أذهب إلى مكان يخلو من الهموم و المتابع، و الذي أرجو أنه مكان يحبه الكثيرون، لابد أن أقول لكم أن أموراً كثيرة تتتحكم بجريات حياتنا الظاهرة، لكن هناك عوامل داخلية تقود خطانا إلى قرارات حاسمة جداً تكون بمثابة نقطة تحول في حياتنا. هناك حاجة داخلية يصغي إليها الضمير ولا يعارضها القلب. فأنا إذ وجدت نفسي في مثل هذه الحالة، فإني أسأل محبتكم ان تصلوا من أجلي كي يثبتبني الرب في ما أنا مقبل عليه.

وصل المطران ثيوفان إلى دير فيشا في الثالث من آب 1866 دخل الدير باحتفال مهيب، ليبقى فيه دون أن يبارحه طيلة ثمان وعشرين سنة. كان الدير كبيراً واسعاً يعيش فيه 100 راهب. كان يربض بين اشجار الصنوبر الشاهقة و يحيط به نهران صغيران الأول: تسينا، و الثاني: فيشا الموقع جميل جداً و يصلح كمناخ للتأمل الروحي. وقد جاء في إحدى

رسائل القديس ثيوفان يصف فيها الدير الأمور التالية: " الدير جميل و الهدوء ملفت للانتباه و الأخوة متحابون و الصلوات طويلة، وكل هذه ، تساعد على التقدم في حياة الصلاة التي هي غاية حياة الرهبان في الدير. أما الصلاة فتببدأ كل يوم في الثالثة صباحاً، و تتوج بالقداس الالهي. هناك بعض الأقواء الذين يظلون واقفين في الخدمة منذ البداية و حتى النهاية". كان للمطران ثيوفان غرفة خاصة به و مكتبة كبيرة. وكان هو نفسه أيقونة حية أمام الرهبان. قضى السنوات الست الأولى في دير فيشا يواكب على كامل الصلوات اليومية. فكان في الكنيسة لا يتحرك البته و لا ينحني وعيناه مغمضتان كي لا يتعرض للشروع. و حدث في إحدى المرات أن ظل الراهب واقفاً و هو يحمل له البروتي مدة طويلة قبل أن ينتبه ثيوفان لوجوده. طوال السنوات الست هذه، كان ثيوفان يستقبل الزوار و كان في الوقت نفسه يتصرف كرئيس للدير بكل معنى الكلمة. لكن في فصح 1872 و بعد قدما العيد، تحول الى راهب حبيس، مما عاد يستقبل الناس أو يغادر الغرفة التي هو فيها. و كان يدخل عليه رئيس الدير فقط و أب الاعتراف و الراهب المكلّف بخدمته عند الضرورة. و حتى هؤلاء كانوا يدخلون بعد طلب منه. لم يعد ثيوفان يذهب الى كنيسة الدير، بل كان يقيم الصلوات كلها في غرفته مع الذبيحة الالهية السنوات التسع الاولى من الاعزال، كان فيها يقيم القداس الالهي يوم الاحد فقط و لكن بقية السنوات الأخرى فكان القداس كل يوم. وكان تارة بصمت و طوراً بترتيل. لا يعرف إلا القليل عن حياته بعد الاعزال. كان ثيوفان بعد صلوات النهار يجلس ليتأمل فيها و في الأبدية و محبة السيد و الكنيسة و القديسين. كان يتناول كوباً من الشاء صباحاً بعد القداس. في اعزاله وضع كتاباً عديدة هي بمثابة مكتبة في الواقع. و خليق بذوي المواهب و عشاق التراث أن ينشغلوا باللغة الروسية عسانا نوفق إلى مطالعة أعمال هذا القديس و سواه بالعربية. كان طعام الغذاء بالنسبة اليه في الثانية بعد الظهر، فكان له خارج فترات الصوم بيضة و كوب من الحليب مع قطعة خبز صغيرة. و في الرابعة بعد الظهر كان يعود ليحتسى كوباً من الشاي، يتوجه بعدها إلى صلاة التاسعة، فالغروب، كان المساء فرصة للمطالعة و الرد على رسائل الأخوة و الأخوات من العالم. كان القديس ثيوفان يتلقى ما بين 30 الى 40 رسالة كل يوم يطلب فيها أصحابها النصائح و الإرشاد منه. لكن رغم اقتبالي للرسائل، إلا أنه لم يكن يستقبل أحداً على الاطلاق. أما في الأصوم فكان طعامه يقتصر على قطعة جافة من الخبز مع كوب من الشاء. عاش القديس ثيوفان سنوات مسجلة في مذكراته شكلت له ضيقاً في مسألة العينين. فبدأت مشاكله مع النظر. و نتيجة لشهرته الكبيرة فقد منحته كلية العلوم اللاهوتية الروسية شهادة دكتوراه شرفية نظراً لخدماته و أعماله و مساهماته في حقل الرب. أثناء إقامته في ربوع دير فيشا عرض عليه بالحاج أن يكون مطراناً على كييف، فرفض بلطف لأنه كان

يستعد للدخول في الاعتزال عما قريب. كان رجل علم نم الطراز الاول، و رجل نسك فذ، و قد برع في الأمرتين معاً.

اضطر مرتين على التوالي أن يغادر دير فيشا بسبب الماء الزرقاء (1878 – 1879) لكن دون جدوى. في سنة 1888 أصابه العمى في عين واحدة، لكنه ظل مواظباً على اعماله اليومية المألفة. لم يتأثر برنامجه اليومي بأي شكل من الأشكال نتيجة لهذا العمى. فقط الأيام الخمسة الأخيرة من حياته طرأ عليها بعض التعديل وكان ذلك لظروف فوق طاقته. و يذكر الأستاذ زميرنوف ذلك و يقول : ”في نهاية حياته، أفاق صبيحة الخامس من كانون الثاني فأحس بالضعف الشديد في رجليه، فطلب العون كي يمشي. فقام الراهب الساهر على خدمته و أعانه لبعضة دقائق داخل الغرفة . إلا أن ثيوفان أحس بالتعب الشديد بعد ذلك ، فاضطر إلى الجلوس ، و بعدها عاد إلى الفراش من جديد. وفي يوم وفاته لم يسمع الخادم صوتاً يدعوه كما هي العادة، إلا أنه خوفاً منه على صحة القديس، أطل من شق الباب بهدوء بعد منتصف الليل ، فوجد القديس جالساً إلى الطاولة يكتب شيئاً على دفتره ، و لما حان موعد الشاي و لم يسمع الراهب صوتاً ، عاد فأطل من الباب فرأى القديس مستلقياً على السرير. و كانت ابتسامة حنونه تعلو محياه و يده تشير بالبركة. لقد غادر العالم قبل أربعة أيام من بلوغه الثمانين. لم يكن يعاني مرضًا محدداً . بعد رقاده قام الدير كما هي العادة بالصلوة على جثمانه، و احتشد ألف من الناس لوداعه وكان حاضراً يرأس الخدمة مطران تامبوف. أمضى ثيوفان في حياة الاعتزال 28 سنة كتب فيها أموراً عديدة تصلح مكتبة عامة دينية بدون شك، تميزت كتاباته بالطابع الروحي و الميسيكي و إليكم بعضها : رسائل إلى أناس طلبوا منه النصح و الارشاد و تخلو من أسماء. رسائل عن كيفية السلوك في الحياة المسيحية. رسائل تتعلق بعيش الإيمان في عالم متعب كالذي نحن فيه. رسائل في اليقظة و الصلة. وضع القديس ثيوفان شروحات لرسائل القديس بولس. كذلك أسهم في تفاسير و جعل الكتابات النسكية محببة إلى قلوب المؤمنين.

ساهم في كتاب الحرب غي المنظورة للكاهن الكاثوليكي لورينزو سكوبولي. نقل عظات القديس سمعان اللاهوتي الجديد إلى الروسية. وأهم أعمال ثيوفان هو كتاب يحمل اسم (طريق الخلاص). فيه يتكلم عن الحياة الروحية عند الآباء الحبساء فيصف أن غاية الحياة المطلقة به و حفظ وصاياه. للنعمنة دور فريد عنده كحال كل الآباء الشرقيين. الحياة في الروح القدس أمر لا غنى عنه من أجل القدسية و الاتحاد بالله. يرى القديس ثيوفان أن القدسية مستحيلة بدون ارشاد الكنيسة، عنده كتابات رائعة عن ممارسة صلاة الرب يسوع و صعوباتها و حلولتها. وضع رسالة طويلة عن الصلاة أسوة بما فعله القديس غريغوريوس بالاماں. وضع رسالة إلى راهبة تدعى (مغ달ينا) في يوم اعطائهما الاسكيم الكبير.

أحب القديس ثيوفان الصوفية الغربية ولاقت في نفسه استحساناً، على عكس القديس أغناطيوس برياشانيروف الذي شجبها لأن دور الخيال الكبير في حياة الصلاة عند الغربيين كما ظن. وضع شرحاً طويلاً لكتاب توما كمبيس (الاقتداء بال المسيح) يصلاح أن يكون كتاباً يعلم في معاهد اللاهوت، لما فيه من كلام دقيق عن خواص الروحانيتين الشرقية والغربية. كان للقديس أغناطيوس برياشانيروف موقف خاص من القديس أغناطيوس لويولا و من القديس فرنسيس الأسيزي. يستطيع من يرغب في الاطلاع على الروحانيات المختلفة، أن يطالع ثيوفان الذي له ما يقوله في هذا الباب، يتبعين للذين طالعوا أعماله باللغة الأم، انه يكثر الكلام عن رؤية النور غي المخلوق. و الجدير بالذكر أن أعمال القديس ثيوفان محفوظة بالكامل في دير القديس بندلايمون في جبل اثوس. وقد ثيوفان بالرب في نهايةقرب التاسع عشر حين كانت الرهبنة نشيطة، لكن الثمر الحقيقي كانت يد الله قد ارجأت قطافه حتى القرن العشرين. و جاء القرن المرتقب و قدمت روسيا الملايين من الشهداء في جو من الاضطهاد المريض الذي لا يخلو قطعاً من الثمر الروحي، و الثمر كان كبيراً ، و كبيراً جداً.

## ما صدر للمعرب

- 1 كتاب "اذهبوا بسلام" بتمويل من مجلس الكنائس العالمي.
- 2 "أقوال الآباء الشيوخ" طبعته منشورات النور بالتعاون مع البلمند.
- 3 شرح القدس الالهي.
- 4 اليقظة و الصلاة.
- 5 الحرب اللامنظورة.
- 6 اربعونية قول في المحبة للقديس مكسيموس المعترف (تحت الطبع)
- 7 الكتاب المقدس في الكنيسة (قيد الاعداد)
- 8 العائلة في الكنيسة و الكتاب (قيد الاعداد)